لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الذاريات والمجادلة

(٢٧ - ٢٨)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي الذاريات والمجادلة (٢٧ – ٢٨).

تألِيف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (٣٣٧).

الطَّبعة: الأولى، ١٤٤٦هـ – ٢٠٢٤م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (١٢٦) ٢٠٢٤م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي الذاريات والمجادلة

(٢٧ - ٢٨)

تأليف

أ. د/ حسن بن محمد بن علي شبالة

أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، **وقد يسّر الله لنا** إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار - جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب

ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: **«لطائفُ البيان في تفسير القرآن»**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الثاني من السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (الذاريات، والمجادلة).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، **أو الإيميل:** (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

١ ذو الحجة ١٤٤٥هـ

تفسير جزء الذاريات

(٢٧)

تفسير سورة الذاريات

تفسير المقطع الأول من سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢)
يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ
مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ
آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ
الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ
بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا
كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾.

شخصية السورة:

سورة الذاريات؛ سورةٌ مكية[١]، **ومقصدُها العام** بيان الجزاء والحساب والبعث والنشور وأنه واقعٌ لا محالة، وفيها بيان ما أعده الله لأهل الجنة في الجنة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤﴾، **ابتدأت السورة بالقَسَم، فأقسم الله بأربعة أشياء:**

الأول: الذاريات، وهي الرياح التي تذرو الشيء أي: تفرّقه، وأكّد الفعل بالمصدر، وفائدة التوكيد إثبات حقيقة الفعل وإبعاد المجاز عنه.

والثاني: الحاملات، وهي السُّحب التي تحمل الماء الثقيل فوقها، فالوِقر هو الثُّقل، **كما قال:** ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾[الرعد: ١٢]، **أي:** أن السحاب إذا امتلأت بالماء صارت ثقيلة.

والثالث: الجاريات، وهي السفن، التي تجري على سطح الماء بيُسرٍ وسهولة، **كما قال:** ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾[الرحمن: ٢٤].

والرابع: المُقسمات، وهي الملائكة التي تُقسِّمُ الأشياء بأمر الله.

ما السر في جمع هذه الأقسام الأربعة مع بعضها؟! الجواب: أن الرياح سبب لحركة السحب والسفن، والملائكة موكلة بالرياح، وكلها تدل على عظمة الله وقدرته.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤١٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾، هذا جواب القسَم للأقسام الأربعة السابقة، والخطاب للمشركين من كفار قريش، والذي كانوا يُوعَدونه هو البعث والنشور، وأنه سيكون حقيقة ليس فيه كذب، وأن الحساب والجزاء لهم سيكون لا محالة، بعد حشرهم من قبورهم.

ما العلاقة بين القَسَم والمُقسَم عليه؟ الجواب: العلاقة واضحة، وهي إثبات عظمة الله وقدرته فيما سبق، فمن خلق هذه الأشياء العظيمة وجعلها تجري بإتقان؛ قادرٌ على البعث والنشور والحساب للمكذبين به.

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧﴾، الواو حرف قسم، والسماء مُقسَمٌ به، وذات الحُبُك صفة للسماء، **أي:** صاحبة الحبك، **والحُبُك له عدة معانٍ**[1]، **منها:** الطرق، والإتقان في الخلق، والجمال، والترابط الدقيق، وكلها معانٍ متناسقة غير متعارضة، فوصف الله خلْق السماء بهذا الوصف الذي يشمل هذه المعاني كلها، فهي ذات طُرق، وهي متقنة الخلق، وهي جميلة المنظر، ومترابطة الأجزاء.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾، هذا جواب القسم، أقسم الله بالسماء المحبوكة المتقنة الخلق على أن المشركين في قول متناقض متعارض، وهذا القول هو قولُهم في محمدٍ وما جاء به، حيث قالوا عنه: ساحر، وكاهن، ومجنون، وكل هذه الأقوال متناقضة ومتعارضة!، **وبسبب هذا التناقض** صرفوا عن الإيمان به، وهناك علاقة كبيرة جدًا بين ما قدّره الله للعبد في اللوح المحفوظ من عدم الهداية وبين ما يفعله العبد ويُمارسه في الواقع، فإن من طلب

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٣٩٥).

الهدى وفقه الله، ومن زاغ أزاغ الله قلبه، **وقيل**: يُصرف عن هذا القول المتناقض المختلف من وفقه الله للهداية والإسلام فيتراجع عنه، والراجح الأول؛ لأن الأصل في استعمال الإفك هو الشر، أو الانتقال من خيرٍ إلى شر، **كما قال**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾[النور: ١١].

ما العلاقة بين القَسَم والمُقسَم عليه؟ الجواب: العلاقة عكسية، حيث أقسم بشيءٍ محبوك مُتقَن على شيء متناقض متضارب.

ثم قال: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾، **قُتِل**: بمعنى لُعن وطُرد وأُهلك، وهو دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله، وليس بالضرورة أن يكون قتلاً حسياً، **فإن القتل المعنوي** أخطر من القتل الحسي، فحينما يُصرف الإنسان عن الطاعة ويموت الإيمان في قلبه، فهذا ميتٌ ولو أكل وشرب كالحيوان، **والخراصون**: هم الكذابون الذي يتعاملون بالخرص وهو الظن، والغَمْرة هي غَمرة الجهل، **أي**: مُنغمسون في لُجة الجهل، **يُقال** غمر الماء الشيء إذا غطاه من كل الجهات، وساهون **أي**: لاهون غافلون بعيدون عن الدار الآخرة، لا يُبالون بالعمل لها ولا الاستعداد لها.

وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، يسألون محمدًا ﷺ عن موعد قيام الساعة سؤال استعجالٍ واستفزاز، ثم أجابهم عن سؤالهم بأن الذي سألتم عنه وهو يوم الحساب، سيكون وستعرضون فيه على النار فتحرقكم، والفتنة هنا بمعنى الاحتراق، فتنت الذهب إذا عرضته للنار حتى تخرج منه الشوائب، **وأتى بحرف (على)**: لبيان أنهم يُعرضون على النار، **أي**:

يُقلَّبون فيها، وتتحرك أجسادُهم على النار فتحرقها من جميع الجهات.

وقوله: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾، يُقال لهم هذا على سبيل التهكم والتوبيخ، فاجتمع عليهم العذاب الحسي بالحرق، والعذاب المعنوي بالتوبيخ، أي: ذوقوا عذابكم جزاء كفركم، فقد كنتم تطلبونه في الدنيا على سبيل الاستعجال له.

ثم انتقل الحديث إلى بيان حال المؤمنين في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ١٦﴾، والمتقون: هم المؤمنون الذين بلغوا درجة التقوى، وهي فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه سبحانه، فجازاهم الله على ذلك بإدخالهم الجنات التي فيها عيون الماء الجارية التي لا تنقطع، يتنعمون فيها بما أعطاهم الله من أنواع النعيم المقيم، بسبب إحسانهم في الدنيا في عبادة الله سبحانه، وإحسانهم في معاملة الخلق.

وقوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾، هذا بيانٌ لبعض أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا، فذكر أنهم كانوا قليلًا من وقت الليل ينامون فيه[1]، وأغلب الليل يقضونه في عبادة الله من صلاة وذكر، فإذا جاء وقت السَّحَر، وهو السدس الأخير من الليل، استغلوه في الاستغفار، وفيه إشارة إلى محاسبة أنفسهم واتهامها بالتقصير، مهما كانت صالحة، وقد شرع الله الاستغفار بعد أداء العبادات؛ لاستكمال النقص والخلل فيها، وحتى لا تُعجب النفس بها وتُصاب بالغرور.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤١٢).

وقوله: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾، **أي:** يجعلون في أموالهم على أنفسهم حقـاً للسائل والمحروم، تقرّبـاً إلى الله، وليست الزكاة الواجبة، لأن السورة مكية، والزكاة لم تفرض إلا بالمدينة[١]، أو الصدقة، **والسائل هو:** الذي يطلب، **والمحروم هو:** المتعفف، الذي حرمه تعففه من السؤال، وقدم السائل بسبب إلحاحه وإن كان المتعفف أولى بالعطاء منه، **وفي الحديث:** "**ليس المسكين الذي يتكفف الناس وترده اللقمة واللقمتان، وإنما المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يُفطَن له**"[٢]، والعطاء للمتعفف غالباً يكون مبنياً على صدق النية، بينما العطاء للسائل ربما يكون بسبب إلحاحه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠﴾، فيها لفتٌ لانتباه الناس إلى ما في هذه الأرض من الآيات، وهي البراهين والأدلة الحسية على وحدانية الله وألوهيته وعظمة قدرته! وهي كثيرة جدًا ومبثوثة في الأشجار والجبال والسهول، وتنوع المخلوقات، وتنوع الأحوال من الحرارة والبرودة والأمطار والجفاف، ونحوها، وخص الموقنين بالذكر، وهم أصحاب اليقين الذين لا يشكون في قدرة الله ولا في وحدانيته، وفيه إشارة إلى أن الذي سيستفيد من الآيات الحسية والمعنوية هو الموقن، وأما من في قلبه مرض الشك والنفاق والغفلة فلن يستفيد منها.

وقوله: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾، وفي أنفسكم آيات أيضاً، فانظروا

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٠١).

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ١٢٥)، برقم: (١٤٧٩).

وتأملوا فيها، فإذا كنت لا تبصر ما في نفسك من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته، فلن تبصر ما في غيرها، فانظر مثلاً في الجهاز البولي كيف يعمل في الإنسان، وإذا أصاب الإنسان فشل كلوي، عرف قيمة هذا الجهاز، وهكذا نعمة البصر لا يعرف قيمتها إلا الأعمى، ومثله يقال في باقي الأجهزة في جسم الإنسان.

وقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾، كل ما فوقك فهو سماء، **والرزق هنا له معنيان**(١)، **الأول:** المطر، فهو ينزل من السحب التي في السماء.

والثاني: ما قدره الله للخلق في اللوح المحفوظ، **والراجح الثاني**، لأنه عام، والعام يدخل تحته الخاص، وما توعدون؛ **فيها قولان**(٢)، **أحدهما:** أنه الخير والشر، **والثاني:** الجنة، والأول أرجح لعمومه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾، أقسم الله بنفسه، فهو رب السماء ورب الأرض، **والضمير في (إنه):** يعود على بعثة محمد ﷺ وما جاء به من القرآن والبعث والنشور مما أنكره كفار قريش، فهو حق لا باطل فيه ولا كذب، كما أنكم تنطقون وتتكلمون ولا ينكر ذلك أحد منكم.

ثم قال: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾، الخطاب لمحمد ﷺ هل جاءك خبر ضيوف إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الملائكة الكرام على الله وعلى خلقه،

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٤١).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٦٩).

قيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، **وقيل**: غيرهم[١]، جاءوه على صورة بشرٍ للسلام عليه، وإبلاغه بأنهم متجهون إلى قوم لوط لإهلاكهم.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فلما دخلوا على إبراهيم في مكانه الذي يسكن، ردوا عليه السلام، فرد عليهم إبراهيم السلام، فكان سلامهم عليه بالجملة الفعلية، ورده عليهم كان بالجملة الإسمية، فكان رده عليهم أحسن من تحيتهم؛ لأن الجملة الإسمية تُفيد الثبوت والاستمرار، فهي أفضل وأرفع من الجملة الفعلية، ومعنى: قومٌ مُنكَرون، **أي**: لا أعرفكم، والظاهر أنه لم يخاطبهم بهذا، لأنه ليس من عادة الكرام قول ذلك مع الضيف، ولو خاطبهم لأجابوه[٢].

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، **أي**: انسلّ خفية من بينهم وذهب إلى زوجته، فأتى لهم بعجل سمين حنيذ، **والحنيذ هو** اللحم المشوي بالحجارة المسخنة[٣]، وهذا من أدبه معهم، وهذه المسألة تخضع اليوم للعُرف، فإذا العُرف يقتضي أن يكون للطعام مكانـًا، وللجلوس مكانـًا فلا حرج، ثم تلطف معهم بقوله ألا تأكلون؟!، وهو أسلوب من أساليب الاستئناس والتكريم للضيف.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾، **أي**: فلما

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٠٤).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢٠/ ٤٥٠).

(٣) ينظر: تاج العروس: (٩/ ٣٩٦).

لم يأكلوا حصل منه التوجس والخوف منهم، وهذه عادة معروفة، بأن من أكل من طعامك فقد أمنت من شره، ومن لم يأكل من طاعمك لم تأمن شره، ولما رأوا علامات الخوف عليه طمأنوه، وقالوا له: لا تخف، ثم أخبروه بأنهم ملائكة، فذهب ما به من خوف، وبشروه أن الله سيرزقه من زوجته سارة غلامًا عليمًا، وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ وسبق أن وُلد له غلام من زوجته هاجر وُصف بالحليم، وهو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أبو العرب، والحلم صفة ظاهرة فيهم، ووصف إسحاق بالعلم وهو أبو بني إسرائيل، والعلم صفة ظاهرة فيهم، ولذلك لما عصوا الله بعلم غضب عليهم.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، فلما سمعت زوجته سارة البشارة بالولد أتت إليهم وهي تصيح وتضرب خديها بيديها وتتعجب من الأمر، وهذه من عادت النساء عندما يستغربن من الشيء، وتساءلت كيف تحمل بعد أن كبر سنها ولم يسبق لها الحمل من قبل، والعقيم من النساء هي التي لا تقبل ماء الفحل[1]، أي: لا تحمل، من أصل الخلقة، والعاقر صفة عارضة للمرأة إذا انقطع حملها[2]، فقد يكون بسبب كِبر السن.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾، أي: ما أخبرناك به هو قول الله، وما أراده الله كائن لا محالة، فهو حكيم في أفعاله وأقواله، عليم بكل شيء، والتعبير بلفظ الرب إشارة إلى أن الذي رباها

(١) ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني: (ص: ٣٤٢).

(٢) ينظر: المصباح المنير: (ص: ٢١٨).

وأوجدها هو من منحها القدرة على الحمل بعد كبر سنها، **وقُدّم حكيمٌ على عليم هنا**: لأن في تأخير مجيء الولد لإبراهيم حكماً عظيمة.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- جمال وإتقان صنع الله في السماء وفي غيرها من المخلوقات.

٢- أن إحسان العمل وإتقانه سبب لدخول الجنة.

٣- فضل قيام الليل، وفضل الاستغفار في آخر الليل.

٤- عناية إبراهيم الخليل بآداب الضيافة وحسن تعامله مع ضيوفه.

تفسير المقطع الثاني من سورة الذاريات

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي
مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ
شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ
(٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ
(٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ
نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا
بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ
الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ
أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) ﴾.

قول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١)﴾، لما علم أنهم ملائكة خاطبهم بوصف الرسالة، لأنهم مرسلون من الله، وسألهم: **ما شأنكم ولماذا جئتم؟**، فردوا عليه بقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾، قالوا: أرسلنا الله إلى قوم قد بلغوا في الإجرام منتهاه، فقد كفروا بالله، وارتكبوا فاحشة إتيان الذكران، وهم قوم لوط، وأن الهدف من الإرسال هو تعذيبهم بإرسال حجارة من الطين المتصلب عليهم، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، فتتبعه حتى تقتله، وقد خُلقت خصيصًا لعذاب المسرفين[1]، وهم المتجاوزون للحد في الفساد وفعل الشر.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦)﴾، اختصر القصة هنا، وفصّلها في مواضع أخرى، واقتصر على النتيجة هنا، حيث نجّى الله لوطًا ومن آمن معه من الهلاك بإخراجهم من القرية قبل تدميرها، وهي قرية من قُرى الشام، تسمى سدوم، ومكانُها يسمى الآن بالبحر الميت؛ لأنه لا يعيش فيه حيوان، ويقع بين فلسطين والأردن، وكان يُطلق عليها سابقًا بُحيرة طبرية، وأخبر بأن أهلها كلهم كافرون غير بيت لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فأهله مسلمون، وعبّر في الموضع الأول بالمؤمنين وفي الموضع الثاني بالمسلمين، وهذا يدل على أن الإيمان والإسلام ليسا بمعنى واحد، عملاً بقاعدة: "**إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا**"، فإذا جاء لفظ الإيمان وحده فمعناه يشمل الإيمان والإسلام، وإذا جاء مع الإسلام؛ فالإيمان هو الاعتقاد والإسلام هو الأعمال

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٢٢).

الظاهرة، والفرق بين التعبيرين: أن النجاة حصلت للمؤمنين، وهم لوط وبنتاه، وعند ذكر سكان البيت عبّر بالمسلمين احترازًا من وجود امرأته بينهم؛ لأن ظاهرها الإسلام وباطنها الكفر.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: جعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وترك فيها علامة وعظة وعبرة لكل من يخاف عذاب الله تعالى الشديد، وهم المؤمنون.

ثم قال: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، أي: ولكم آية، وهي البُرهان والحجة التي يتّعظ بها المتعظون، في موسى حين أرسله الله إلى فرعون، وهو حاكم مصر في زمن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والسلطان هو المعجزات والآيات الواضحات البينات التي تدل على صدقه، فأعرض فرعون عن الإيمان وكفر هو ومن معه من أركان حكمه، وهم وزراؤه وجنوده الذين يركن إليهم ويتقوّى بهم(١)، واعتدادًا بما عنده من الملك، واتهم موسى بأنه ساحر أو مجنون.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، اقتصر هنا على ذكر هلاكه، أي: أخذناه مع جنوده، فطرحناهم محتقرين لهم في البحر، وهو مُلام على كفره وتكذيبه، وسيُعاقب على ذلك في الآخرة، ولم يكتفِ بمعاقبته بالغرق في الدنيا.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٠٨).

ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾، أي: وفي قصة هلاك عاد لكم عظة وعبرة، حين أرسل الله لهلاكهم الريح العقيم، وهي التي لا خير فيها، وتُسمى ريح الدبور، كما في الحديث: "**نُصرتُ بالصبا، وأُهلكت عاد بالدبور**"[1]، هذه الريح إذا أرسلت على شيءٍ أهلكته حتى يصير كالشيء الهالك البالي.

ثم قال: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، أي: وفي قصة هلاك ثمود لكم عظة وعبرة، وهم قوم صالح، ومكانهم في الأحقاف في الربع الخالي بين عُمان وحضرموت والسعودية، حين قال لهم رسولهم هود بعد أن أبلغهم الرسالة، فكذبوه، فقال لهم: انتظروا العذاب إلى زمن قريب، وهو ثلاثة أيام، واليوم الرابع نزل بهم العذاب، كما في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[هود: ٦٥]، فلما نفروا وأعرضوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره؛ أهلكهم الله بالصاعقة، فصاح فيهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ صيحةً من شدتها وقوتها صعقت قلوبهم، وسقطت أجسادهم، وهم منتظرين للعذاب بحسب وعد رسولهم لهم، وحصل بهم العذاب وهم يرونه، أي: وقع العذاب في النهار.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾، أي: فما قدروا أن يقاوموا العذاب، أو يدفعوه عن أنفسهم، ولا استطاعوا أن يقوموا من أماكنهم ليهربوا منه، بل بركوا في أماكنهم، كما قال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، ولا حصل لهم نجاة من العذاب بل هلكوا جميعًا.

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٣٣)، برقم: (١٠٣٥).

ثم قال الله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾، أي: وأهلكنا بالطوفان قومَ نوح من قبل عاد وثمود؛ لأنهم كانوا كافرين وخارجين عن طاعة الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾، ثم أخبر الله عن خلقه للسماء وبنائها بقوة بناءً محكمًا، و(أيدٍ) هنا جمعُ يد، وهي القوة، وليست من آيات الصفات، والوَسْعِ من السِّعة، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي[1]، وجعلنا بينها وبين الأرض مسافة واسعة، وإنا لموسعون أيضًا على عبادنا بالرزق[2].

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾، أي: خلق الأرض ومهّدها وجعلها كالفرش، لتكون صالحة للحياة، ومدح نفسه على هذا الفعل، فهو الذي مهدها.

وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، ومن كل شيء خلق الله صنفين، فيشمل جميع أصناف المخلوقات المتقابلة كالنور والظلام، والذكر والأنثى من كل حيوان، والحكمة من هذا كله حصول الاتعاظ للخلق بقدرته وعظمته، فيدفعهم ذلك للإيمان به سبحانه.

ثم قال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾، أي: فارجعوا إلى الله وتوبوا إليه، وسمى التوبة فرارًا؛ لأنه لا ينبغي للعاصي أن يتأخر عنها، ولا أن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٢٤).

(٢) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨١٢).

يرتاح إلى فعل المعاصي، بل يفر منها كما يفر من الأسد، **وأتى بحرف الجر** (إلى)، لأن الله جلّ وعلا على خلاف غيره، فإن كل من تخاف منه تهرب منه، إلا الله فكلما خفته فررت إليه، وبيّن مهمة الرسول ﷺ بأنه نذير لهم، أرسله إليهم بالبينات والحجج الواضحة ليدلهم على الله ويدعوهم إليه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾، ثم نهاهم عن الشرك مع الله غيره، فلا يستحق العبادة إلا الله وحده، وكرّر ذكر النذارة لهم، لاختلاف الحال، **فالأولى** للأمر **والثانية** للنهي، وفيه إشارة لأهمية الإنذار حين الأمر وحين النهي.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، **أي**: ما قاله لك قومك قد حصل من أقوام الرسل السابقين لأنبيائهم، واتهموهم جميعًا بالسحر أو بالجنون، وكأن المتقدمين من كل أمة كافرة وصّوا بذلك المتأخرين من الأمم، والواقع أنه لا توجد توصية، ولكن السبب في اتفاقهم على التكذيب والتهمة للرسل بالسحر والجنون هو الطغيان، فتجاوزوا الحدود في الباطل وانحرفوا عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

ثم قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾، **أي**: أعرض عن هؤلاء المكذبين، ولا تشغل نفسك بهم، ولا لوم عليك بسبب عدم إيمانهم، لأنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة.

وهذه الآيات وأشباهها قد سبق أن بيّنا أن الصحيح أنها ليست منسوخة بآيات السيف، بل كلاهما مُحكم، وكل نوعٍ من الآيات يُنزّل بحسب الحال،

فآيات الإعراض والصفح تُنزل على حال الاستضعاف، وآيات السيف تنزل على حال القوة، فموقف المسلم مع الكفار في وقت الاستضعاف هو الإعراض، وموقف المسلم القوي القادر مع الكفار هو الجهاد.

وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾، **أي:** لا يمنعُك إعراضُهم وتكذيبُهم من الاستمرار في الدعوة والبلاغ؛ لأنه قد يُؤمن غيرُهم، **ونص هنا** على أن الذي سينتفع بالذكرى، وهي الموعظة، **هو المؤمن** المُصدق، **أما الكافر** الجاحد فلن ينتفع بها، ولا تؤثر فيه.

ثم أخبر الله سبحانه عن الغاية من خلق الجن والإنس فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، **أي:** لم أخلق الجن والإنس إلا لكي أكلفهم بالعبادة، فمنهم فمن يُطيع ويؤمن، ومنهم من يعصي ويكفر، **والمعنى:** جعلت نفوسهم قابلة للخير وقابلة للشر، وخلقت فيهم القدرة على تنفيذ التكاليف ورفضها، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾، فالله خلق العباد وتكفل بأرزاقهم، ولم يطلب منهم أن يرزقوا أنفسهم، ولا غيرهم، ولم يطلب منهم أن يُطعموا غيرهم، بل الطعام خلقه الله وأوجده، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه؛ لأن الخلق عيال الله، فمن أطعم عيال رجلٍ ورزقهم فقد أطعم الله ورزقه[1]، **وفي الحديث:** **"يا ابن آدم؛ استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك، وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم**

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٠/ ٤٦٩).

تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي"[١]، فما طَلب من الخلق أن يُوجدوا الرزق لأنفسهم، ولا أن يُقدموه لغيرهم، ونفي التقديم أسهل من نفي إيجاد الرزق.

ثم علّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾، فهو الرزاق الذي يرزق عباده، فلا يحتاج أن يرزقه أو يطعمه أحد، فهو صاحب القوة المبالغ في شدتها.

ثم خُتمت الآيات ببيان ما أعده الله للكفار، فقال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾، **أي:** فالذين ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب لهم نصيب وحظ من العذاب، مثل نصيب من سبقهم من الكفار، فالصحبة هنا صحبة العقيدة الفاسدة المشتركة بينهم، **والتعبير بالذَنوب** يدل على الاشتراك في أصل الشيء، مأخوذ من ذنوب الماء وهو الدلو العظيمة[٢]، فلا يطلبون منا أن نتعجل في عقوبتهم، بل سيأتيهم العذاب في موعده الذي حدده الله لهم، وهذا العذاب الذي استعجلوه قد يكون دنيويًا، وقد حصل لهم يوم بدر، وقد يكون أخرويًا، وسيكون في جهنم.

ثم قال الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾، **أي:** فهلاك وخسارة لهؤلاء الظالمين أنفسهم، في ذلك اليوم الذي كانوا يكذبون به، فهو كائن لا محالة.

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ١٩٩٠)، برقم: (٢٥٦٩).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ٩٠).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن الإيمان أعلى درجة من الإسلام، فالإيمان أعمال القلوب، والإسلام أعمال الجوارح.

٢ - أن في إهلاك الأمم السابقة عظة وعبرة للناس أجمعين إلى أن تقوم الساعة.

٣- أن الخوف من الله يقتضي الفرار إليه بالتوبة والإيمان والطاعة.

٤ - أن الكفر ملة واحدة، وأن أهله يتشابهون في المواقف ولو لم يكن بينهم تواصٍ واتصال.

٥ - شهادة الله سبحانه لرسوله بأن قد بلّغ، وأنه غير مُلام إن لم يُؤمن به الكفار.

٦ - بيان أن الغاية التي من أجلها خلق الله الجن والإنس هي العبادة.

٧- أن كل كافرٍ وظالم إن لم يتب؛ سينالُه نصيبُه من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

تفسير سورة الطور

تفسير المقطع الأول من سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ
الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ
السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ
يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ
(١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى
سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ
مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ
إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾.

شخصية السورة:

سورة الطور؛ سورة مكية[١]، **ومقصدها العام** بيان الحجج والبراهين والأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ ودفع شبهات المشركين ومجادلتهم بالحجج والبراهين العقلية والشرعية.

ابتدأت بالقسم، قال الله: ﴿وَالطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾، الواو حرف القسم، **والطور** مُقسَمٌ به. **والطورُ في اللغة:** هو الجبل الذي عليه شجر[٢]، **والمقصود به هنا** الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو بمدين من أرض الشام، وقد كان مليئًا بشجر الزيتون، وهي الشجرة المباركة.

والكتاب المسطور: أي المكتوب فيه الكلام في سطور، والمقصود به كتاب العبد الذي تكتب فيه حسناته وسيئاته.

والرق: رقعة الجلد التي يُكتب فيها، مثل الورق ونحوه اليوم.

والمنشور: المبسوط بتباعد أطرافه.

وقوله: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾، ثم أقسم الله بالبيت المعمور، وهو بيتٌ في السماء السابعة في محاذاة الكعبة في الأرض، معمورٌ بعبادة الملائكة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

وقوله: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾، وهو السماء، فإن الله جعل السماء سقفًا

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٢٧).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: (٢/ ٥٧٠).

مرفوعًا كالقبة على الأرض.

وقوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ٦﴾، **البحر** اسم جنس يشمل كل البحار، **والمسجور** المملوء بالماء الآنِ، والموقد بالنار يوم القيامة.

وهذه الأقسام الخمسة التي أقسم الله بها، وهي من مخلوقات الله العظيمة، والله تعالى يُقسم بما شاء من مخلوقاته للتنبيه إلى عظمتها، أما المخلوق فلا يجوز له أن يُقسم إلا بالله، وفي الحديث: "**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**"(١) وقوله: "**من حلف بغير الله فقد أشرك**"(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ٨﴾، هذا جواب القسم، فعذاب الله ﻷ للمشركين الكافرين واقع بهم لا محالة، ما لهذا العذاب من دافع يدفعه ولا مانع يمنعه.

وعلاقة الأقسام الخمسة بجواب القسم؛ أن الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة وأوجدها قادرٌ على أن يبعثكم أيها الكفار وينزل بكم عذابه.

ثم ذكر الله ﻷ متى يكون هذا العذاب الذي لا دافع له، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾، وهذا من علامات قيام الساعة، فإذا تحركت السماء حركة حقيقيّة مضطربة، وحرّك الله الجبال فتركت أماكنها، ففي ذلك الوقت يحل الهلاك والعذاب والخسارة بالمكذبين، الذين أنكروا البعث والنشور وكذبوا الرسل.

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٨٠)، برقم: (٢٦٧٩).

(٢) سنن أبي داود: (٣/ ٢١٧)، برقم: (٣٢٥٣)، وإسناده صحيح.

ثم وصف حال المكذبين في الدنيا مع الحق، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢﴾، الذين هم مشغولون بالكلام والعمل الباطل، والخوض مأخوذٌ من خُضت الماء إذا حركت قدميك داخله[1]، فالماء يتحرك ذهابًا وعودةً حركة غير منضبطة بسبب حركة القدمين، **والمقصود باللعب** اللهو وعدم الجدية في حياتهم، فهم لا يبحثون عن الحق ولا يشتغلون به، بل شغلهم الشاغل لهم هو اللعب واللهو.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾، **أي:** في يوم القيامة يُدفع المكذبون إلى النار دفعًا، ولن يذهبوا إليها بأرجلهم، **كما قال:** ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾[الرحمن:٤١] فتدفعُهم الملائكة إليها دفعًا وتُلقيهم فيها رغم أنوفهم، فإذا أُلقوا فيها، **قال لهم خزنتها:** هذه النار التي كان يُخوفكم بها الرسل وورثتهم من العلماء والدعاة في الدنيا، وكنتم لا تُصدقون بها، فهل ترونها الآن أم هي سحر وخيال كما كنتم تزعمون في الدنيا، أم قد أُصبتم بالعمى عن رؤيتها؟ والواقع أنهم لم يُصابوا بالعمى، بل هم يشاهدونها ببصر قوي النظر.

فتقول لهم الملائكة: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾، **أي:** احترقوا بنارها بدخولكم فيها، فاصبروا على حرها وسعيرها أو لا تصبروا، فالنتيجة واحدة، فما حصل لكم من عذاب النار، إنما هو جزاء عملكم السيء في الدنيا من الكفر والمعاصي، وفيه إشارة إلى عدل الله مع عباده الكافرين.

---

(١) ينظر: المصباح المنير: (١/ ١٨٤).

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾، لما أنهى الحديث عن المكذبين وعذابهم في جهنم، أتبعه بالحديث عن الجنة وأهلها من المتقين، وهذا من طرائق القرآن، وهي المقارنة بين أهل الحق وأهل الباطل، فهو مثانٍ، إذا تحدث عن صنف أتبعه بنقيضه، والمتقون هم المؤمنون الذين بلغوا في التقوى منتهاها، فوصلوا إليها بكثرة اتقائهم لما يُغضب الله ويُسخطه، وقد جازاهم الله على ذلك بإدخالهم جنات متعددة لا ينقطع نعيمها، فهم متنعمون فيها ومتعجبون مما منحهم الله فيها من كثرة النعم التي لا تُعد ولا تُحصى، بعد وقايتهم وإبعادهم من عذاب النار.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، هذا خطاب لهم من ربهم سبحانه، وقد يكون من الملائكة، كلوا مما في الجنة متهنئين بما تأكلون، والهنيء: السائغ من الطعام[1]، الذي لا غصة فيه ولا انقطاع له ولا ألم يتبعه، وأُعطيتم هذا النعيم بسبب ما كنتم تعملون من الصالحات في الدنيا، فالإيمان والعمل الصالح الذي كنتم تعملونه في الدنيا كان سبباً لرحمة الله بكم فأدخلكم الله به الجنة، وفيه إشارة إلى فضل الله وكرمه على عباده الصالحين.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾، أي: يجلسون في الجنة على أسرّتهم جلسة المتكئ، وهي علامة على الاستقرار النفسي والهدوء والطمأنينة لهم، بينما غير المستقر والمطمئن لا يتكئ، بل يجلس جلسة المستفِز المستعد للهرب، والسرر هي الكراسي المرتفعة من الذهب أو الفضة وعليها الستور

---

(١) ينظر: لسان العرب: (١/ ١٨٥).

الحرير وهي مرتبة ومنتظمة، فكل صف مقابل صف، وفي هذا مزيد من الأُنس لأهلها حيث يتقابلون وجهًا لوجه، ويتحدثون مع بعضهم.

وقوله: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ أي: قرناهم بنساءٍ جميلات، واسعات الأعين، وهن خلقٌ أنشأه الله في الجنة، كما قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾ [الواقعة:٣٥]، وأقل أهل الجنة عنده زوجتان من الحور العين(١)، وهما غير زوجته التي كانت معه في الدنيا ولحقت به في الإيمان والطاعة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، ذكر الله سبحانه نعمة أخرى للمؤمنين في الجنة وتُسمى بنعمة لَمّ الشمل، وذلك لأن الأسرة الواحدة قد يتفاوت أفرادُها في العمل الصالح، فربما يكون الأب في درجة، والأم في درجة، والابن في درجة، والبنت في درجة، وبين الدرجة والدرجة ما بين السماء والأرض، فيبقى شيء يحتاجه أهل الجنة، وهو من طبيعة النفس البشرية، وهو أن يلتم شمل الأسرة، فيمنحهم الله ذلك فتجتمع الأسرة كلها عند أعلاهم درجة، وقد ورد في الحديث: "أن الآباء يُرفعون درجات بدعاء الأبناء لهم في الدنيا"، والمعنى: أن أي فرد من أفراد الأسرة يكون في درجة عليا فحقه أن يشفع بباقي أفراد الأسرة في أن يلحق بهم من دونهم في الدرجات، وهذه نعمة عظيمة من الله سبحانه منحها لأهل الجنة حتى يجتمع شملُهم ويتذكروا ما كانوا عليه في الدنيا.

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، أي: وما أنقصناهم من ثواب أعمالهم شيئًا، وهذا النفي جاء به للاحتراز، حتى لا يقول قائل: إن إلحاق الأدنى بالأعلى

(١) ينظر: سنن الدارمي: (٣/ ١٨٧١)، برقم: (٢٨٧٤)، وإسناده صحيح.

سيُؤدي إلى هضم الأعلى، فالأعلى سيضل على ما هو عليه في درجته ومنزلته، والذي رُفع هو الأدنى.

وقوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾، **هذه الجملة للمفسرين فيها أقوال:** فمنهم من يرى أنها جملة اعتراضية، وأنها تعود للتنبيه إلى حال الكفار، فهم محبوسون بأعمالهم في النار، **ومنهم من قال:** إنها تشمل باقي من ليسوا قرابة، **حتى لا يقول قائل:** لماذا رفع فلان من جواري إلى أعلى؟ لأنك محبوس بعملك، ولا يوجد لك قريب يشفع لك، وفيها إشارة إلى أن الله سبحانه حكَمٌ عدلٌ، وأن ما يُعطيه للخلق إنما تفضل منه جل وعلا.

ثم قال: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾، يمدهم الله بكل ما تشتهيه النفس، بواسطة الغلمان الذين يطوفون عليهم بها، والفاكهة تقترب منهم فيأخذون منها ما يريدون، **كما قال:** ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾[الرحمن:٥٤]، وأطلق مما تشتهي النفس؛ لأن الفواكه واللحوم أنواع متعددة.

ثم قال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾، الكأس هو الإناء الذي فيه الشراب، فإذا كان فارغًا فلا يُسمى كأسًا[1]، **أي:** يتعاطون كاسات الخمر، فهذا يأخذ من يد هذا، وهذا يأخذ من يد هذا، فيشربونها فلا تذهب بعقولهم، ولا يقول شاربها الكلام الباطل، ولا يقعون في الإثم بسببها، بل يتمتعون بها وهم في كامل عقولهم.

ثم قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾، **الطواف:** هو كثرة

---

(١) ينظر: لسان العرب: (٣/ ٢٠٦).

التردد، وهو إشعار بمزيد من العناية بخدمتهم، وسُموا غلمانًا؛ لأنهم لا يشيبون ولا يكبرون، وقد خُلقوا لخدمتهم، ومن جمالهم ونظافتهم ومظاهرهم الجميلة يشبهون حبات اللؤلؤ التي في أصدافها، فلم تمسها الأيدي ولم ترها الأعين.

ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾، أي: جلسوا على الأرائك، وأقبل كلٌّ منهم بوجهه على الآخر، فيتذاكرون طرفًا من أخبار حياتهم في الدنيا وما أصابهم فيها من التعب والنصب والخوف، فيقول بعضهم لبعض: لقد كنا نعيش في الدنيا خائفين من الله وعذابه في الآخرة، فمنَّ الله سبحانه علينا بدخول الجنة وأبعدنا عن عذاب النار، وسُمي عذاب النار سمومًا لشدة حره، ولأنه يدخل في مسام البدن بما يوجب ألمه(١).

وفيه بيان أن النجاة من النار مِنَّة وفضل من الله سبحانه، وأن الأعمال الصالحة التي يعملها المؤمنون هي سبب لرحمة الله، وفي الحديث: "**سددوا وقاربوا، واعلموا أن أحدكم لن يدخله الجنة عمله**"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل**"(٢).

وفيه بيان أهمية الخوف من الله في الدنيا وثمرته، كما قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[الرحمن:٤٦]، فالخوف من الله هو الذي يذكر العبد بالاستعداد للآخرة، وفي الحديث القدسي: "**وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا**

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٠/ ٤٩٧).

(٢) صحيح البخاري: (٨/ ٩٨)، برقم: (٦٤٦٧).

خافني في الدنيا، أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا، أخفته يوم القيامة"[١]، وفيه إشارة إلى أهمية الصحبة الصالحة والعمل الجماعي، فقد كانوا مجتمعين على طاعة الله في الدنيا، وكان ذلك سببًا في ثباتهم على الإيمان والطاعة.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾، أي: كنا في الدنيا نلحّ على الله بالدعاء ونطلبه أن يدخلنا الجنة ويباعدنا عن النار، وكان يدفعنا إلى ذلك إيمانُنا أن الله كريم عظيم يمنح ويُعطي من يسأله، ويبر بوعده لعباده، فقد وعد الله عباده المؤمنين أن يدخلهم الجنة وأن يُنجيهم من النار، فهو بَر لا يُخلف وعده، ورحيمٌ يرحم الخلق مع قلة أعمالهم، وهذا يدل على أهمية الدعاء ومكانته، وفي الحديث: **"الدعاء هو العبادة"**[٢]، وهو سلاح المؤمن الذي لا يخيب أبدًا.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- من علامات قيام الساعة تغيّر أحوال الكون، إيذانًا بنهايته.

٢- نعمة لمّ الشمل سواءً في الدنيا أو في الجنة من النعم العظيمة التي تُعاني من فقدها بعض الأسر، بسبب الذنوب والمعاصي، ولو اجتمعت قلوبهم على طاعة الله لسعدوا في الدنيا والآخرة.

٣- أن خمر الآخرة تختلف عن خمر الدنيا، وقد منحها لعباده في الجنة بسبب تركهم لخمر الدنيا.

٤- أن من خاف ربه في الدنيا نجى في الآخرة.

---

(١) صحيح ابن حبان: (٢/ ٤٠٦)، برقم: (٦٤٠).

(٢) سنن أبي داود: (٢/ ٧٦)، برقم: (١٤٧٩)، وإسناده صحيح.

تفسير المقطع الثاني من سورة الطور

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ
عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ
سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ
حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾
وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

قول الله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، هذا خطاب من الله سبحانه لنبيّه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما كذّبه قومه من كفار قريش، أمره الله تعالى أن يستمر في التذكير لهم ودعوتهم إلى الله، وبرّأه مما اتهموه به، فهو بفضل

الله ونعمته عليه ليس بكاهن ولا مجنون، والكاهن هو الذي يدعي معرفة الأسرار ومطالعة علم الغيب[1]، والمجنون هو الذي تخبطته الشياطين فأذهبت عقله.

ثم بدأ بالمحاجة والجدال العقلي لقريش وللكفار عمومًا، **وتكرر السؤال بأداة "أم"** التي تفيد الترقي من الأدنى إلى الأعلى، وجوابها كلها بالنفي، وذلك لإفحامهم وإبطال ادعائهم الشريك لله.

فقال الله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾، **والشاعر** هو الذي يأتي بالكلام موزونًا مُقفىً، والكاهن يأتي بالكلام منثوراً مسجوعًا، **أي:** ننتظر به حوادث الدهر، ونزول الموت به، مثل من كان قبله من شعراء الجاهلية، فاقترحوا ألا يُعاقَب بل يُترك فترة وسيموت، وإذا مات، ماتت معه فكرته ودعوته.

وقوله: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾، قل لهم يا محمد: انتظروا موتي وذهاب دعوتي، وأنا أنتظر موتكم وذهاب شرككم وكفركم بالله وستعلمون لمن تكون العاقبة.

وقوله: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾، هل تأمرهم عقولهم بهذا القول الذي وصفوك به؟ فإنهم لو استخدموا عقولهم لما قالوا هذا الكلام الباطل المتناقض في حقك، لكنهم لم يستخدموا عقولهم، بل استخدموا أهواءهم ورغبات أنفسهم، بل دفعهم إلى ذلك الطغيان، وهو مجاوزة الحد في

---

(١) ينظر: التعريفات: (ص: ١٨٣).

الكفر والعداوة والانحراف.

وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾، هل يقول كفار قريش أن محمدًا ﷺ افترى القرآن وكذَبه من عند نفسه؟، والتقوّل أن تنسب كلامًا إلى غيرك وهو لم يقله[1]، وهو الكذب، كما قال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾[يونس:٣٨]، والافتراء أقبح أنواع الكذب، والواقع أن الذي دفعهم إلى ذلك هو كفرهم وعدم إيمانهم بالله.

وقوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾، ولو كان محمد ﷺ قد قال هذا القرآن من عند نفسه، فأنتم البُلغاء الفُصحاء فلتأتوا بشيء مثل القرآن، سورة، أو آية، بشرط أن تكون مثله في البلاغة والفصاحة إن كنتم صادقين في دعواكم، فلم يستطيعوا أن يأتوا بشيء، وعجزوا كلهم رغم محاولات بعضهم، ومن حاول منهم كمسيلمة الكذاب، فقد أصبح هو وقرآنه مضرب المثل في السخرية عند العرب.

وقوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾، **هل خُلقتم من غير خالق؟**، **الجواب**: لا يوجد أحد يقول إنه خُلق من غير خالق، فكل مخلوق حادث، وكل حادث لا بد له من خالق، **وهل خلقتم أنفسكم؟**، **الجواب**: لا، فالإنسان عاجزٌ عن أن يخلق نفسه، **وهل خلقوا السموات والأرض؟**، **الجواب**: لا، فما قدروا على خلق أنفسهم، فكيف

(١) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (٨/ ٥٦٨٥).

يخلقون السموات والأرض وهي أكبر وأصعب؟! واعترافهم بعجزهم لم يكن عن يقين حتى يستفيدوا منه، بل كان مجرد معلومة توارثوها، ولو كان عن يقين لدفعهم ذلك إلى الإقرار بالألوهية، فإن توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية، فالخالق سبحانه هو المستحق للعبادة وحده.

وقوله: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧ ﴾، هل هؤلاء القوم يملكون خزائن الأرزاق التي يرزقها الله للخلق، **وهل هم المتصرفون في المنع والعطاء في هذا الكون؟**، **والجواب**: لا هذا ولا ذاك.

وقوله: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨ ﴾، هل لهؤلاء المشركين سُلَّم يرتقون به إلى السماء، كي يقتربوا من مصدر الأمر والنهي فيستمعوا إلى الغيب الذي يُقال في السماء؟، **والجواب**: ليس عندهم سُلّم، وليس لديهم قدرة على استراق السمع.

وقوله: ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩ ﴾، هل لله البنات، ولكم البنون؟، لأن المشركين من العرب نسبوا البنات إلى الله، **فقالوا**: الملائكة بناتُ الله، وكان من عاداتهم كراهية الأنثى، واعتبارها عيبًا وعارًا، **كما قال عنهم**: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾[النحل:٥٨، ٥٩]، **والمعنى**: كيف تنسبون لربكم ما لا ترتضونه لأنفسكم؟!!

وقوله: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠ ﴾، الخطاب لمحمد ﷺ هل

طلبت منهم مالًا مقابل دعوتهم إلى الإيمان، فكان هذا الطلب ثقيلًا عليهم، فلا يستطيعون تنفيذه، فمنعهم ذلك من الإيمان بك؟! **والجواب**: لا، فالنبي ﷺ لم يسألهم شيئًا، بل دعوة جميع الرسل مجانية، **كما قال عن عددٍ من الرسل في سورة الشعراء في عددٍ من الآيات، بقوله**: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١﴾، هل اطَّلعوا على الغيب، فهم يكتبون للناس ما اطلعوا عليه من معلومات الغيب؟، **الجواب**: لا، لم يطّلعوا على الغيب، فإن الغيب لم يُعطه الله سبحانه لأحد من خلقه، وإذا أعطى الله بعضه للرسل حماه بحراسة مشددة حتى يبلغه إليه.

وقوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢﴾، **الكيد**: هو المكر الخفي، هل يريد الكفار أن يكيدوا بك يا محمد وبدعوتك؛ ليتخلصوا منك بأي وسيلة؟، **وقد حاولوا فعل ذلك في دار الندوة** وتشاوروا في طريقة للتخلص منه، **فقال بعضُهم**: نحبسه، **وقال بعضُهم**: نتربص به ريب المنون، **وقال بعضهم**: ننفيه، **وقال بعضهم**: نقتله، فأيد الشيطان هذا القول، وكان حاضراً بينهم في صورة رجلٍ من أهل نجد، وأشار عليهم ألا يقتله شخص واحد، وإنما يأخذون من كل قبيلة شابًا فيقتلونه بضربة سيف واحدة، فإذا قُتل تفرّق دمُه بين القبائل، وليس لبني هاشم إلا أن يقبلوا بالدية، وفعلوا خطتهم ليلة الهجرة، ونجاه الله سبحانه منهم[1]، وصار مكرهم وبالاً عليهم، وعبّر بالاسم الظاهر مكان الضمير

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: (٣/ ٦).

المضمَر، وفائدته أن هذا الوصف لا يختص بأولئك القوم أنفسهم، بل يصلُح لكل من اتصف به على مدار الأزمان والأماكن، فكل كافرٍ سيكون كيدُه عليه، كما قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر:٤٣]، وقد حاق بهم مكرهم، وكانت عاقبتهم وخيمة.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾، وهذا هو السؤال الأخير في محاورتهم، والأسئلة السابقة كلها موصلة إليه، هل لكم إلهٌ غير الله؟، فصرّح بتوحيد الألوهية، وما سبق كله كان في بيان توحيد الربوبية، والجواب: من حيث الواقع أن لهم آلهة غير الله يعبدونها ولكنها بباطل، كاللات والعُزى ومناة الثالثة وغيرها، ولا يوجد إلهٌ مستحق للعبادة بحق إلا الله، ثم نزّه نفسه عن كل ما يقول الكافرون من باطل وشرك، فالواجب عليكم كما أقررتم بانفراد الله في الربوبية، أن تقروا له بالألوهية.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، "كسفًا" فيها قراءتان[1]، بتسكين السين على أنه مفرد، وبفتحها على الجمع، والمقصود به قطع العذاب، فلو أنزل الله قطعة عذاب من السماء على هؤلاء القوم ورأوها نازلة فوقهم، لما أقروا بنزولها، بل لعاندوا وقالوا: هذا سحاب تراكم بعضُه فوق بعض وسينزل منه المطر، كما قالت عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾[الأحقاف:٢]، بل هو العذاب الذي طلبتم، وهذه طبيعة المعاندين لا يُقرون ولا يستسلمون للحق،

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٢٣).

وهي صفة سيئة لا تليق بالعبد، وهي سبب لانحراف دينه وفساد خلقه؛ لأنه لا يعترف بالنقص والتقصير، ولا يقبل النصيحة.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ثم أمر الله نبيّه ﷺ أن يتركهم وعنادَهم حتى يأتي يوم هلاكهم، وهو يوم القيامة، وذلك عند النفخة الأولى[1].

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾، والكيد: هو المكر الخفي الذي كان يفعله الكفار في الدنيا في محاربة الإسلام وإيذاء النبي ﷺ فإذا نزل بهم عذاب الآخرة فلا ينفعهم ذلك الكيد في صرفه عن أنفسهم، ولا هم يُنقذون منه.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: الذين كفروا، كما قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة:٢٥٤]، لأنهم وقعوا في الظلم الأكبر وهو الكفر، ولهم في الدنيا عذاب أقلّ من عذاب يوم القيامة، وهو ما أصابهم من الجوع والقحط حينما دعا عليهم النبي ﷺ فقال: "**اللهم اجعل عليهم سنيًّا كسني يوسف**"[2]، وما نزل بهم في يوم بدر وغيرها من الغزوات من القتل والتنكيل[3]، وما أصابهم كان بسبب جهل أكثرهم بسنن الله ﻷ وبطشه بالمكذبين، والقليل منهم من علم بها وآمن، أما الأغلبية فاستمرت في

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٤٨٦).

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ٢٦)، برقم: (١٠٠٦).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٢٣).

طغيانها، وعنادها وكفرها، فأصابهم العذاب الدنيوي والأخروي.

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، أمر الله نبيّه بالصبر، **وقد كان** ﷺ ممتثلًا لأمر الله، فصبر لحكم الله بنوعيه، **الشرعي**: في الصبر على إبلاغ الرسالة والعمل بها، وتنفيذ ما أمره الله تعالى من الأوامر، من الدعوة والبلاغ والإنذار، **والقدري**: بالصبر على الابتلاء، فقد ابتُلي وأُوذي بمكة ثلاث عشرة سنة، فوُضع سلا الجزور على ظهره، والشوك في طريقه، ورُمي من سفهاء أهل الطائف بالحجارة، وفي المدينة ابتلي في نفسه وعرضه كما حصل له في غزوة أُحد، حيث كُسرت رَباعيته وجُحش جنبُه، ودخلت حلقات المِغفر في وجنتيه، وآذاه المنافقون في نفسه وأهله، فكان صابرًا محتسبًا.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، هذه العبارة تمنح من قيلت له الطمأنينة والراحة والسعادة، وهي من العبارات الموجَزة التي تدل على العناية والرعاية والإحاطة، فإذا قالها الله لنبيّه فممن يخاف! فهو برعايته وإحاطته وتحت سمعه وبصره، **كما قال الله لموسى وهارون:** ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، وفي الآية إثبات العين لله تعالى كما يليق به جلّ وعلا، ولا يجوز تأويلها ولا نفيها كما تفعل بعض الفرق، وبهذه العبارة منح الله رسوله الحفظ والطمأنينة، ولذلك لم يفعل به المشركون شيئًا، بل رعاه الله حتى أتم الرسالة وأكمل الأمانة.

وقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾، أمره أن يقرن التسبيح بالتحميد، فيقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أو سبحان ربي الأعلى وبحمده، أو سبحان

ربي العظيم وبحمده، ونحوها، والتسبيح معناه التنزيه والتقديس لله، والحمد معناه الثناء على الله تعالى بالكمال المطلق، تفعل ذلك حين تقوم من مجلسك، أو تقوم إلى الصلاة، أو تقوم من نومك، فليكن التسبيح والتحميد هو ذكرُك.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾، وأمره أيضـًا بالتسبيح إذا قام من الليل لصلاة النافلة، وسبحْه عند إدبار النجوم، وهو اختفاؤها قُبيل الفجر، **أي:** صلاة سنة الفجر، وهي من آكد السنن، **وقد كان النبي** ﷺ كثير التنفل بالصلاة، كثير التسبيح في هذه المواضع كلها ممتثلاً لأمر الله له، وقد أرشد أمته إلى ذلك في أكثر من حديث.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الطغيان سببٌ من أسباب الضلال.

٢- أن الجدال بالحُجج والبراهين العقلية جائز لإثبات حقائق الدين.

٣- أهمية الصبر في إبلاغ الدعوة والصبر على الابتلاء الذي ينزل بالداعية من أجلها.

٤- خطورة العناد، وأنه مرضٌ مزمن في الكفار يُؤدي إلى عدم إيمانهم بالله وقبولهم للدعوة.

تفسير سورة النجم

تفسير المقطع الأول من سورة النجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ (٣) إِنۡ هُوَ
إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ (٩) فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا
رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ (١٣) عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا
جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ (١٥) إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلۡكُبۡرَىٰٓ (١٨) أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ
(٢١) تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ (٢٣) أَمۡ
لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي
شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ (٢٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ
لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي
مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا (٢٨) فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم
مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ (٣٠)﴾.

شخصية السورة:

سورة النجم؛ سورة مكية[١]، وهي أوّل سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهر بقراءتها في الحرم، والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجنّ والإنس غير أبي لهب، فإنّه رفع حفنة من تراب إلى جبهته، **وقال:** يكفيني هذا[٢].

وفي البخاري[٣]، عن ابن مسعود: قال: "**فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلّا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من ترابٍ فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أميّة بن خلف**"، وقد كانت هذه الحادثة سببًا في عودة بعض المهاجرين إلى الحبشة الهجرة الأولى، **حيث قيل لهم:** إن قريشًا قد آمنت فارجعوا، فرجعوا فظهر لهم خلاف ذلك[٤].

والمقصد العام للسورة: هو إثبات نبوة النبي ﷺ وفضله ومكانته عند الله، **وفيها بيان لحادثة المعراج**، وهو صعود رسول الله ﷺ إلى السماء، **وفي سورة الإسراء بيان لحادثة الإسراء**، وهو السفر ليلًا من مكة إلى بيت المقدس في فلسطين.

ابتدأت بالقسم، قال الله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾، الواو أداة القسم، والنجم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: تفسير الثعالبي: (٥/ ٣٢١).

(٣) صحيح البخاري: (٨/ ٤٨٠)، برقم: (٤٨٦٣).

(٤) ينظر: سيرة ابن هشام: (١/ ٤٠٢).

مُقسَمٌ به، وهو النجم المعروف، وأفرده على سبيل الجنس، فأقسم به حين سقوطه يوم القيامة، أو حين يغرُب عن الأعين، أو حين يرمى به الشياطين، **وقيل**(١): المقصود به نُزول القرآن مُفرقًا على ثلاثٍ وعشرين سنة، **وقيل**(٢): المقصود به النبات الذي لا ساق له، **ورجّح الإمام الشنقيطي**(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الثاني، لأنه يتناسق مع **قول**: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾[الواقعة:٧٥-٧٧]،لتشابه القَسمين وتقاربهما والتصريح بالقرآن في ذلك المكان، وأغلب المفسرين رجحوا القول الأول، بناءً على عادة القرآن في مُخاطبة العرب بما يعهدونه وهو النجم المعروف.

وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾، هذا جوابُ القسَم، وفيه نفى الضلالة والغِواية عن نبيّنا محمد ﷺ فما انحرف عن الهداية وما صار غاويًا، **والغواية هي**: الجهل المُركب، وهو علم الشيء على خلاف حقيقته، والجهل البسيط هو عدم العلم، فزكى قلبه وعقله، والخطاب لقريش، فالنبي ﷺ يعيش بينكم وصحبتموه أربعين سنة من عمره قبل النبوة.

وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾، هذا عطف جملة على جملة، وفيها تزكية الله للسانه كما زكّى قلبه وعقله، فهو لا يتكلم من عند نفسه ولا بهواه، وإنما يخبركم بما أوحاه الله إليه بدليل أنه قرأ عليكم آيات

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٨٣).

(٣) ينظر: أضواء البيان: (٧/ ٤٦٣).

العتاب التي نزلت عليه وعاتبه الله فيها، **مثل** ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾[عبس:١]، **وقوله**: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾[الأحزاب:٣٧]، **وقوله**: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة:٤٣]، وغيرها من الآيات التي فيها عتابٌ له من الله تعالى، فالقرآن الذي يتلوه عليكم هو وحيٌ يوحيه الله تعالى إليه بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلفظه ومعناه، والسنة وحيٌ من الله ولكن لفظُها من محمد ﷺ.

وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾، **أي**: علَّم محمدًا ﷺ الوحيَ جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووصفه بأنه شديد القُوة، وذو هيئة حسنة، قد اكتمل في خِلقته وهيئته الحسنة، وظهر على خِلقته الأصلية، وارتفع في الأُفق الأعلى، وهو ما بين المشرق والمغرب من السماء، وهذه إحدى المرات التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل على حقيقته في ليلة المعراج، له ستمائة جناح قد سد بها ما بين المشرق والمغرب.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾، **أي**: أن جبريل بعد أن ظهر له في الأفق الأعلى بصورته الحقيقية بستمائة جناح فرآه النبي ﷺ فعرفه، رجع مرةً أُخرى إلى التشكّل بصورة إنسانٍ، ثم اقترب من النبي ﷺ وكان اقترابُه من النبي ﷺ بمقدار قوسين، وهو مُصطلح تُطلقه العرب على المسافة القصيرة، **والقاب**: طرفا القوس المرتبط به الوتر الذي يُمسَك به السهم، **والمعنى**: قدر ما بين طرفي القوس من المسافة، **أي**: اقترب جبريل من النبي ﷺ عند إبلاغه للوحي إليه حتى يكون بينه وبينه قدر المسافة التي بين طرفي القوس أو أقل، **والمعنى**: تدلى فدنى؛ لأن التدلي النزول من أعلى، **والدنو**: الاقتراب باتجاه النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، **أي:** فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما أوحى إليه، وهو القرآن الكريم، فكله كان بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾، ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه بعينه، فرؤية العين تُصدقها رؤية القلب، وهي رؤيته لجبريل على صورته التي خلقه الله عليها، ورؤيته لباقي الآيات العظام التي رآها في السماء، **وقيل**[(١)]: رؤية محمد ﷺ لربه، **وقد اختلف السلف في هذه الرؤية**، هل هي رؤية عين أو رؤية قلب؟، والخلاف مشهور بين الصحابة في هذه المسألة، **فعائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كانت تنفي أن النبي ﷺ رأى ربه[(٢)]، **وابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يُثبت ذلك[(٣)]، وجمع بينهما بعض العلماء بجمعٍ لطيف[(٤)]، **وهو:** إن الذي نفته عائشة هي الرؤية البصرية، **والذي أثبته ابنُ عباس** هي الرؤية القلبية، فإنه رأى ربه بقلبه، أما بعيني رأسه فلم يره لا في رحلة الإسراء ولا في غيرها، فرؤية الله في الدنيا لم تحصل لأحد، وقد منع الله موسى منها، ولكنها ثابتة للمؤمنين في الآخرة، ويحجب الله تعالى الكفار عن رؤيته، **كما قال:** ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥].

وقوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾، هذا خطاب موجّه لكفار قريش الذين

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٠٧).

(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٤٠)، برقم: (٤٨٥٥).

(٣) مسند أحمد: (٤/ ٣٥٠)، برقم: (٢٥٨٠)، وابن أبي عاصم، برقم: (٤٣٥)، وابن خزيمة، برقم: (٢٧٨)، وابن مندة، برقم: (٧٦٠)، وإسناده صحيح.

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية: (٦/ ٥٠٩-٥١٠).

كذبوا النبي ﷺ فيما أخبرهم به في رحلة الإسراء والمعراج، **وقالوا له**: نحن نضرب أكباد الإبل شهرًا ذهابًا إلى بيت المقدس، وشهرًا إيابًا، وأنت تدعي أنك ذهبت إليها، ثم عرجت إلى السماء في ليلة واحدة، وجادلوه فيما رأى من الآيات، وما أعطاه الله تعالى في تلك الليلة، وجحدوا خبرها.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾، **أي**: رأى جبريل مرة غير هذه، **وقد جاء في الصحيح**[١]: أن النبي ﷺ رأى جبريل على جبل أجياد في مكة، أول ما نزل عليه الوحي، ورآه بستمائة جناح قد سد الأفق، فتكون الرؤية الأخرى في السماء عند سدرة المنتهى، **وهي**: شجرةٌ عظيمة في السماء السابعة ينتهي إليها خبر ما تحتها وخبر ما فوقها، وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهي إليها الخبر، إن أتى من أعلى يتوقف عندها[٢]، وإن أتى من أسفل يتوقف عندها، ولا تتجاوزها الملائكة؛ لأن ما فوقها هو عرش الرحمن، **وقد جاء وصفها في الحديث**: **"أن أوراقها كآذان الفيلة، وأن ثمرتها كقِلال هجَر"**[٣]، **والقِلال** جمعُ قُلّة، وهو الإناء الكبير الذي يوضع فيه الماء، وكان يُصنع في مدينة تُسمى هجَر من بلاد الجزيرة.

وقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾، **أي**: عند السدرة توجد الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء[٤]، فإن الشهداء تُؤخذ أرواحُهم وتُصبح في جوف طيور

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٥٩)، برقم: (١٧٧).

(٢) ينظر: صحيح مسلم (١/ ١٥٧)، برقم: (١٧٣).

(٣) صحيح البخاري: (٥/ ٥٢)، برقم: (٣٨٨٧).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥١٨).

خضر تأوي بهم إلى قناديل تحت العرش(١).

وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾، أي: يغشى هذه الشجرة من أمر الله شيءٌ عظيم، ولم يُبين ما هو تهويلًا وتعظيمًا له، فلا يُمكن وصفُه، وقيل(٢): أن الذي يغشاها هو الملائكة كما تغشى الغربان الأشجار، أي تحط على أوراقها وأغصانها، وقيل: يغشاها فراشٌ من ذهب، والأول أرجح لعمومه.

وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾، الألف واللام في البصر للعهد، والمقصود به بصر النبي ﷺ أي ما زاغ بصرُ محمد وما طغى أثناء رؤيته لتلك الآيات في تلك الرحلة العظيمة السماوية، وزاغ بمعنى اضطرب، وطغى بمعنى تجاوز حده، وقد نفى الله تعالى عن نبيّنا محمد ﷺ زيغان البصر وطغيانه، وهذا من أكمل صفات الأدب التي اتصف بها النبي ﷺ، فهو قوي من حيث رباطة جأشه، فبصرُه لم يضطرب، وإنما يضطرب البصر عند الخوف والفزع، كما قال الله عن المنافقين: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[الأحزاب:١٩]، أي: اضطربت أعينهم من شدة خوفهم وفزعهم، ومن أدبه أن عينه لم تتجاوز المكان الذي أُمر أن ينظر إليه، فمدحه في ثباته وفي أدبه وعدم نظره إلى ما لم يُؤذَن له به، وهذا من كمال أدب النبي ﷺ في حضرة ربه جلّ وعلا.

ثم قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾، لقد رأى الآيات الكبرى في السماء وما حصل منه اضطراب بصره ولا تجاوز للنظر، بل كان ثابتًا مؤدبًا، وفي

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٢)، برقم: (١٨٨٧).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٣٣).

هذه الآية بيان ما منّ الله به على رسول الله ﷺ من رؤية الآيات الكبرى، ولم يُبينها ليُدلل على كثرتها وعظمتها، وقد جاء في السُنّة بعض وصف هذه الآيات مثل رؤيته للأنبياء، ورؤيته للبيت المعمور، ورؤيته للجنة والنار، ونحوها.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾، انتقل الحديث لمحاورة ومجادلة المشركين من أهل مكة بعد أن وصف لنا رحلة المعراج بأقل العبارات، وفيها رأى الآيات الكبرى، التي تدل على أن خالقها هو الله العظيم الكريم القادر سبحانه المستحق للعبادة، وهذه آلهتكم وأصنامُكم ماذا عندها من العظمة والقدرة والمكانة حتى تُعبد من دون الله؟! فما حال وما مكانة اللات والعُزى ومناة، وهي الثلاثة الأصنام التي كانت تعبدها بعض قبائل العرب، **فاللات** لثقيف، **والعُزى** لغطفان، **ومناة** لقبائل من الأنصار في المدينة، **فاللات**: مشتقة من الإله، **وقيل**: نسبة لشخص من ثقيف كان يلتُّ السويق للحجاج، فلما مات اتخذوا صنماً يُعبَدونه وسموه باسمه، **والعُزى**: من العزيز، **ومناة**: من المنان[1]، ووصف مناة بالثالثة لأنه مذكور قبلها صنمان، ووصفها بالأخرى تحقيرًا لها فهي المتأخرة الوضيعة المقدار[2].

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾، هذا سؤال استنكاري لكفار قريش، **أي**: أتنسبون إلى أنفسكم الذكور، وتنسبون البنات إلى الله، **في قولهم**: الملائكة بناتُ الله، والصحيح أن الملائكة لا يُوصفون لا بذكورة ولا

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٢٣).

بأنوثة، ففِعلتكم تلك قسمة جائرة، ودليل على فساد تصوركم.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، أي: هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله، مثل اللات والعزى ومناة وغيرها، هي أسماء اخترعها آباؤكم وصيروها آلهة ثم عبدوها من دون الله، وأنتم سرتم على طريقتهم، بدون علم ولا برهان، وليس معكم أيها المشركون بها دليل ولا حجة على صدق ما تدعونه فيها، بل فعلكم هذا هو محض ظنٍ لا يقين فيه، بل اتبعتم هوى النفوس في عبادتها، وفيها إشارة إلى حال الإنسان إذا انحرف عن الحق، فإنه لا يعرف معروفًا ولا يُنكر مُنكرًا إلا ما وافق هواه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، لقد جاءهم من ربهم الحق البيّن الواضح وهو دين الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ.

وقوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾، ليس لكل إنسانٍ كائنًا من كان تحقيق أمنياته؛ لأن الأمر بيد الله، فقد تتمنى شيئًا ولا يحصل لك، وإنما يحصل لك ما يريده الله تعالى، لأن الله هو الذي يملك الدنيا والآخرة، والمتصرف فيهما، فالعطاء والمنع بيده، وقد كان الكفار يتمنون أن تشفع لهم أصنامهم عند الله، فأبطل الله ذلك؛ لأنها أحجار لا تسمع ولا تعقل ولا تُبصر، ولا مقام لها ولا مكانة عند الله، فأنى لها أن تشفع لكم؟!

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ

لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، كم هنا هي الخبرية التي تُفيد الكثرة، فالملائكة مع كثرتهم وعِظمتهم ومكانتهم وقدرهم عند الله، لا تنفع شفاعتهم **إلا بشرطين: الإذن** للشافع، **والرضى** عن المشفوع، فهل أذن الله لهذه الأصنام أن تشفع؟ وهل رضي الله عنكم أيها المشركون الكفار؟ فانخرم الشرطان فبطلت أمنياتكم.!!

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾﴾، ثم أخبر الله تعالى عن حقيقة ما أطلقه المشركون الكافرون بالآخرة على الملائكة بأنهم بناتُ الله، وبيّن سبب قولهم أن هذا محض افتراء وليس عندهم حجة ولا بيّنة على ذلك، وإنما مُستند قولهم يعود إلى اتباع الظن، وهو التخرص، والظن لا يقوم مقام العلم، ولا يُوصل إلى الحق وخاصة في المسائل العقدية التي تحتاج إلى أن تثبت بالعلم والحجة والبرهان الموصل إلى اليقين.

وقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾، ثم أمر الله نبيّه محمداً ﷺ بالإعراض عن من ابتعد عن قبول الإيمان وكفر به، وترك مجادلتهم، وهذه الآيات كانت في مكة بسبب ضعف المسلمين، ثم جاءت في المدينة آية السيف، فأمرته بالجهاد والقتال لهم.

والمقصود بالذكر هنا عبادةُ الله وطاعته، ويدخل فيه المعنى الخاص للذكر وهو ذكر الله باللسان، ثم بيّن أن اهتمامهم كله منصب على الحياة الدنيا، فهم لا يريدون معرفة الحق الذي ينفعهم في الآخرة، وإنما كل همهم وشغلهم الشاغل

أمور دنياهم الفانية، **كما قال:** ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم:٧]، وهذا حال كل كافر بعيد عن الله، ليلُه ونهارُه في أمور الدنيا، **وفي الحديث:** "**إن الله يبغض كل جعظري جواظ، صخاب بالأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالمٌ بأمر الدنيا جاهلٌ بأمر الآخرة**"(١)، وهذا هو حال الحضارة الغربية اليوم وما فيها من علم واختراعات، فكلها تختص بالدنيا، أمّا في باب الآخرة، فهم من أجهل الناس وأبعدهم عنها، ذلك **أي:** التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مبلغهم من العلم ليس لهم غيره، ولا يلتفتون إلى سواه من أمر الدين(٢)، فمنتهى علمهم هو العناية بالدنيا ونسيان الآخرة، **وقيل**(٣): معناه أنهم لم يبلغوا من العلم إلا ظنهم أن الملائكة بنات الله، وأنهم يشفعون لهم، فاعتمدوا على ذلك، وأعرضوا عن القرآن والإيمان، والراجح الأول لعمومه، وفي هذا إشارة إلى العناية بعلوم الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾، **أي:** فلا تحزن عليهم، ولا تتألم لكفرهم وابتعادهم عن الحق والهدى مع وضوحه، فالله أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلال فيُضله، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

---

(١) صحيح ابن حبان: (١/ ٢٧٤)، برقم: (٧٢)، وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٥٥)، وفتح القدير، للشوكاني: (٥/ ١١٢)، وروح المعاني للألوسي: (٢٧/ ٦٠).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٥١).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- كمال أدب النبي ﷺ بحضرة ربه، فلم يزغ بصره ولم يطغَ.

٢- سفاهة عقول المشركين بابتعادهم عن الحق الواضح، وكفروا به.

٣- أن الشفاعة في الآخرة لا تكون إلا بشرطين: إذن الله للشافع، ورضى الله عن المشفوع.

٤- أن الظن لا يوصل إلى معرفة الحق، وأن طريق معرفته هو العلم.

٥- نعى الله على الكفار عدم اهتمامهم بعلم الآخرة، وانشغالهم بعلم الدنيا الذي ينتهي مع موت أحدهم ولا ينتفع منه شيئًا.

تفسير المقطع الثاني من سورة النجم

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ
أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ
هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ
فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ
ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ
﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ
فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا
مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾
لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قول الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١﴾، هذه كتوطئةٍ لما بعدها، فالله تعالى مالك السموات والأرض والمتصرف فيها، فاللام للتعليل[١]، أي: فهو الذي يُجازي الخلق بأعمالهم، فإن الجزاء لا يكون إلا من المتصرف المالك، وقيل: إن اللام للعاقبة[٢]، والمعنى: أن الله تعالى خلق الناس فجعل منهم صنفين: صنفٌ آمن واتقى، فعاقبته أن يُجازى بالحسنى، وصنفٌ كفر وتولى، فعاقبته أن يُجازى بما يستحقه، وهذه قاعدة أن الجزاء من جنس العمل، وأن كل واحد سيأخذ جزاء عمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وفي الآية بيان عدل الله تعالى وفضله، ففي جزاء العصاة أخبر أنه سيجازيهم بمقدار عملهم، وفي جزاء المحسنين أطلق لهم العطاء، ففضل الله واسع، وفضل الله سبحانه في الجنة، وعدله سبحانه في النار، والحُسنى هي الجنة بما فيها من نعيم مقيم من رضوان الله ورؤية العبد لربه.

ثم ذكر بعض أوصاف المحسنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، أي: يبتعدون عن الوقوع في كبائر الآثام، وهو الشرك ونحوه، والفواحش كالزنا ونحوه[٣]، وقيل: كبائر الإثم هو ما يكبر عقابه، والفواحش ما عظم قبحه من الكبائر[٤]، واستثنى منها اللمم، وهو استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقّرات الأعمال[٥]، ولا يسلم منها

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ١٢٠).

(٢) زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٨٩).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٠٦).

(٤) ينظر: تفسير المراغي: (٢٧/ ٥٨).

(٥) تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٦٠).

أحد إلا من عصمه الله منها، والمقصود بها التي تقع منهم دون إصرار عليها، **ولذلك جاء عن ابن عباس أنه قال:** "لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار"(١)، **والكبائر** هي التي ورد فيها وعيدٌ بالنار أو لعنٌ أو طردٌ من رحمة الله، والصغائر هي ما دون الكبائر.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، **أي:** عظيم المغفرة لمن تاب واستغفر من ذنوبه ومعاصيه.

وقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، فعلْم الله تعالى محيط بالخلق في كل أحوالهم، **ونبّه هنا إلى حالتين للخلق، الأولى:** العلم بهم حين كانوا في عالم الذر وفي صلب أبيهم آدم؛ لأن الذي نشأ من الأرض هو أبونا آدم، فقد خلقه الله من التراب، وأودع ذريته في صلبه.

والثانية: العلم بهم حين كانوا أجنّة في بطون أمهاتهم، ولا يُسمى الجنين جنينًا إلا إذا كان في بطن أمه، وفي كلا الحالتين علِم الله من كل نفسٍ ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة.

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾، فتزكية النفس مذمومة، وخاصةً عند التقصير، والأصل في التعامل مع النفس هو اتهامها وعدم تزكيتها؛ لأنك لو زكيتها؛ أصابها الكِبر والغرور، وأوقعتك في مهاوي الهلاك، فاتهمها بالتقصير حتى تجتهد في الطاعة وتستمر على الاستقامة، ولك أن تمدحها وتثني

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي: (٦/ ١١١٠)، برقم: (١٩١٩)، وشعب الإيمان (٩/ ٤٠٦)، برقم: (٦٨٨٢).

عليها في حال إصابتها بالقُنوط أو قبل الموت وهي مُقبلة على الله فلا تُقنِّطها في هذه الحال، بل ذكّرها بأعمالها الصالحة، حتى لا تُصاب بالإحباط واليأس، حتى تموت على حسن ظنٍ بالله، كما في الحديث: "**لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بربه**"[(١)]، أي: يذكر فضل الله عليه بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، ويستشعر أن الله لن يُضيعه، فيُعيد الأمل إلى نفسه، وهذا التصرف كما تقولُه لنفسك فيحسن بك أن تقوله لغيرك، فلا تمدح الناس في وجوهم إلا حين تشعر أن نفوسهم قد ضعُفت وتعرضت للقنوط، فتذكرهم بما فيها من خير سواءً ذلك عند الموت أو عند إدبارها وكسلها عن الطاعات.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾، أي: أن الله هو الذي يحكم بتزكية عباده، ويعلم من اتقاه وخافه –سبحانه– ظاهراً وباطنًا، لأن الإنسان قد يُظهِر أمام الخلق أنه من الأتقياء، وربما يكون قلبُه خاويًا من التقوى، فمن يعلم ذلك على وجه التفصيل هو الله تعالى.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾، الخطاب لمحمدٍ ﷺ، والاستفهام للتعجب، والرؤية قد تكون بصرية وقد تكون قلبية، فإذا كانت قلبية فالمعنى: أعلمت خبر الذي تولى، وإذا كانت بصرية فالمعنى: أشاهدت الذي تولى، أي: أعرض عن الإسلام وكفر به، والمقصود به أقوال[(٢)]، فقيل: النضر بن الحارث، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: أبو جهل، والأرجح أنها عامة في كل من أعرض

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٥)، برقم: (٢٨٧٧).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٩١).

عن الإسلام، وإن صح سبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ.

وقوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾، أي: أنفق من ماله قليلاً بسبب بخله، ولم يستمر في هذا الإنفاق بل قطعه.

وأصل أكدى من الكُدْيَة، وهي الصخرة الصلبة التي تُدق عليها الفؤوس فلا تنكسر(١)، وهذا يدل على شدة بُخله وقساوة حاله.

وقوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾، هل اطّلع على علم الغيب فهو يرى ماذا أعد الله له وأعد لغيره، فرأى جزاءه فاطمأن واستمر على كفره؟، والجواب: ليس عنده الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾، هل لم يُخبَر بما في صُحف موسى وصُحف إبراهيم، وهي من الكتب السماوية التي أنزلها الله عليهم، وفيها أحكام وعبر، ووصف الله إبراهيم بأنه قد وفّى بما طلب الله منه، كما في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة:١٢٤]، وأتمهن، أي: وفّى بهن، وهي الأحكام والتكاليف التي أمر الله بها إبراهيم فنفذها، مثل ذبح ولده، والهجرة، وبناء البيت، وغيرها من الأوامر.

وقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، هذا النص موجود في صحف موسى وإبراهيم، كما هو في القرآن الكريم، وهي قاعدة شرعية عامة: أن المذنب يتحمل ذنبه، ولا يُؤخذ أحدٌ بجريرة ولا بذنب غيره، لا ولد بوالده ولا والد بولده، ولا أخ

---

(١) ينظر: تاج العروس: (٩/ ٩٥).

بأخيه، كل واحد يتحمل جزاء عمله سواءً كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

وقوله: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾، وهذا أيضاً موجود في صحف إبراهيم وصحف موسى، كما هي مذكورة في القرآن، وهذه قاعدة أخرى مقابلة للقاعدة الأولى، فالقاعدة الأولى في الجزاءات، وهذه في الحسنات، فالحسنات التي تفعلها أو تكون سبباً فيها تُكتب لك، كما في الحديث: "**إذا مات ابن آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث، علمٌ يُنتفَع به، وولد صالح يدعو له، وصدقة جارية**"[(١)]، فهذا كله من عمله ومن سعيه.

وقوله: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، أي: أجر ما فعله من الحسنات سوف يطّلع عليه ويراه بعينيه حينما تُنشَر صحائفُه بين يديه، فيفرح بها ويُطْلِع الناس عليها، كما قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة:١٩]، لأنها كانت مخفية في الدنيا بسبب إخلاصه، فأذن الله له أن يُظهرها في الآخرة.

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾، أي: يعطيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأجر والثواب الكامل الذي فيه تفضل عليه من الله تعالى وزيادة، وهو الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

ثم انتقل الحديث إلى بيان قدرة الله وعظمته في أفعاله، فقال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾، أي: ينتهي كل شيء إلى الله لا إلى غيره، كما قال: ﴿وَإِلَيْهِ

(١) سنن الدارمي (١/ ٤٦٢)، برقم: (٥٧٨)، وسنن الترمذي: (٣/ ٥٣)، برقم: (١٣٧٦)، وإسناده صحيح.

﴿تُرۡجَعُونَ﴾[يونس:٥٦]، فمصير الخلق جميعاً إلى الله، ثم ذكر مجموعة من الأفعال المتقابلة التي تدل على عظمة الله تعالى في خلقه بإيجاد الشيء ونقيضه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣﴾، أي: هو الله الذي خلق الفرح وأسبابه، وخلق الحُزن وأسبابه، فأفرح من شاء وأحزن من شاء، والضحك علامة من علامات الفرح، والبكاء علامة من علامات الحُزن.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ۝٤٤﴾، أي: هو الذي خلق الموت والحياة، كما قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾[الملك:٢]، أي: أمات الأحياء في الدنيا، وأحيا الأموات في الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾، فالزوجين المقصود بهما الذكر والأنثى فيشمل كل الحيوانات التي تتزاوج وتتناسل، كلها خلقها من نطفة حين تُصب من الذكر إلى الأنثى، فيقع التلقيح ثم الخلق.

وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧﴾، أي: كما انفرد بالخلق والإيجاد أول مرة، فهو قادر على أن يخلقكم مرة أخرة في الآخرة، ويبعثكم بعد الموت.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨﴾، أي: هو الذي يغني الخلق ويفقرهم، فهو الذي يعطي بعضهم المال فيغتني، ويمنع بعضهم فيفتقر(١)، أو يجعلك غنيًا في فترة وفقيرًا في فترة أخرى، وهذا كله بيد الله، وهو واقع مشاهد.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩﴾، الشِّعرى هو كوكب كانت تعبده بعض

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٥٠).

القبائل، والمعنى: أن الله هو رب هذا الكوكب الذي تعبدونه وتزعمون أنه إله، وهو مخلوق ومربوب لله سبحانه.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾، عادٍ الأولى: هي قوم هود، أهلكوا بريح صرصر، وكان لهم عقب، وكانوا عادًا الأخرى وهم قوم صالح، حيث أهلكهم بالصيحة جميعًا فلم يبق منهم أحداً.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾، أي: وأهلك قوم نوح قبل عاد وثمود؛ لأنهم كانوا أكثر منهم ظلمًا وطغيانًا، فقد مكث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله فلم يستجب له منهم إلا القليل، وهذا يدل على كثرة ظلمهم وطغيانهم.

وقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾، أي: وأهلك الله المؤتفكة، وهي: قرى قوم لوط، وسُميت بالمؤتفكة؛ لأنها قُلبت عليهم أثناء هلاكهم، والمؤتفك في اللغة المنقلب(١)، فقد رفعها جبريل إلى السماء، ثم قلب عاليها سافلها، ثم أسقطها إلى الأرض وأتبعها بحجارة من سجيل، فغشاها من العذاب الشيء العظيم الذي لا يعلم قدره إلا الله.

ثم قال الله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، الخطاب للإنسان الجاحد، فبأي نعم الله الكثيرة عليك تُجادل وتُناقش وتُماري، وهو استفهام استنكاري تعجبي، لا يحتاج إلى جواب، فما سبق من بيان عظمة الله وقدرته في الخلق، وما فعله الله

(١) ينظر: لسان العرب: (١٠/ ٣٩١).

تعالى بالكفار من قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم لوط كافٍ لوجوب الإيمان به والشكر لنعمه.

ثم قال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾، هذا الرسول وهو محمد ﷺ رسول مثل الرسل الذين سبقوه، فليس بغريب عنهم، كما قال: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٩]، وقد جاء ليُنذركم ويُخوفكم، ويدعوكم إلى الإيمان.

وقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾، أي: اقتربت القيامة، وسماها آزفة لاقترابها ودنوها، ومنه أزف الرحيل، إذا دنا وعجل[(١)]، فلا يدفعها دافع، ولا يرفع ما يصاحب القيامة من أهوال شداد غير الله تعالى، كما قال: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾[الحج:٢]، أي: من شدة أهوالها.

ثم وجّه الخطاب معاتبًا المشركين الذين نزل فيهم القرآن، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾، أي: كيف تتعجبون من القرآن ونزوله على محمد ﷺ؟!، فهذا تعجب في غير محله، بل الواجب عليكم وأنتم البلغاء الفصحاء أن تقروا به، فإن من سنن الله في معجزات الأنبياء أن يُنزلها خارقة لما هو مشهور في قومهم، ولذلك جعل الله معجزة رسوله في فصاحة وبلاغة هذا القرآن، وفي قوم موسى جعل المعجزة في العصى؛ لانتشار السحر فيهم، وفي قوم عيسى جعل معجزته في إبراء الأكمه والأبرص؛ لانتشار الطب فيهم.

وقوله: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾، أي: تضحكون منه استهزاء وسخرية،

---

(١) ينظر: أساس البلاغة: (١/ ٢٦).

والأصل إذا تُلي عليكم القرآن أن تُعملوا فيه أفكاركم وتتدبروا آياته، وسيؤدي ذلك إلى رقة قلوبكم وخشوعكم ودمع عيونكم، وتبكون، فالبكاء علامة من علامات التأثر، فتبكي حسرة على ما فرطت أو خوفًا مما سيأتيك بسبب البعد والإعراض عن الله تعالى، أما أن يحصل منكم العكس فهذه مصيبة، ولذلك من أسوأ مراحل انتكاسة النفس أن تضحك وقت البكاء، فذلك دليل على انتكاستها، وهذا حال كثير من الناس اليوم، ففي مواقف كثيرة يكون فيها أموات وجنائز وأشلاء ودماء وتجد بعضهم يضحك!! غير معتبر ولا متعظ.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾، **أي:** منغمسون في الغفلة، بعيدون عن التأثر بالقرآن حال سماعه.

وقوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، فاخضعوا لله واستسلموا له، فالسجود علامة على الاستسلام والخضوع لله تعالى، **والمعنى:** اقبلوا شرعه وآمنوا به، واخضعوا لأمره، **وقد سجد النبي** ﷺ بعد أن انتهى من قراءة السورة، فسجد المشركون كلهم معه، كما سبق في بداية السورة، وكان سبب سجودهم هو تأثرهم بالقرآن، فإنه أخذ بألبابهم، أما ما يسمى بقصة الغرانيق، التي يوردها بعض المفسرين هنا، فهي قصة مكذوبة لا تصح، **وقد جمع أسانيدها الشيخ الألباني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب صغير وسماه: "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق" وحكم عليها بالبطلان.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر بنص القرآن.

٢ - خطورة مدح النفس وتزكيتها، وجواز مدحها والثناء عليها عند إدبارها أو اقتراب أجلها.

٣- أن عدم التأثر بالقرآن والاستهزاء به عند سماعه دليل على انتكاسة الفطرة.

تفسير سورة القمر

تفسير المقطع الأول من سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ
مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم
مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ
يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ
مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ
السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ
النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾
أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا
مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾

فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة القمر؛ سورة مكية[١]، **ومقصدها العام**: التذكير بنعمة تيسير القرآن للذكر، والتذكير بالآيات والنذر، وبيان مصير المكذبين بها.

ابتدأت بإخبار الله تعالى عن اقتراب الساعة، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾، **والحديث عن اقتراب الساعة هو** أسلوب من أساليب الوعظ والتذكير، يُقصد منه تنبيه الناس أن يستعدوا للرحيل، فالساعة آتية لا محالة، والواو حرف عطف، حيث عطف جملة على جملة، فالأولى تُخبر عن شيءٍ سيكون قريبًا؛ لكي يتم الاستعداد له، والثانية إخبارٌ عن شيءٍ قد حصل فعلًا، وهو انشقاق القمر في مكة قبل الهجرة، حين طلبت قريش من النبي ﷺ آية تدل على نبوته ورسالته، **فقالوا**: إن كنت صادقًا، فشق لنا القمر فرقتين، نصفًا على أبي قبيس ونصفًا على قعيقعان، فقال لهم النبي ﷺ: "**إن فعلت تؤمنوا؟**"، قالوا: نعم، وكان في ليلة القمر فيها بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما سألوا، فانشق القمر نصفين، نصفه على أبي قبيس ونصفه على قعيقعان، وهما جبلان أحدُهما جنوب مكة، والآخر على شمالها، ورسول الله ﷺ يناديهم ويقول: **اشهدوا**"[٢].

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٧٠).

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٧/ ٦٧١).

وأصل الحديث في الصحيح[١]، عن أنس: "أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما"، وذكر اقتراب الساعة مع انشقاق القمر؛ لأن انشقاقه من علامات نبوة محمد ﷺ، ونبوته وزمانه من أشراط اقتراب الساعة.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾، أي: فلما رأوا هذه المعجزة الدالة على صدق نبوته لم يُصدقوا بل أعرضوا عن الإيمان، وقالوا: سحَرَ محمدٌ أعينَنَا بسحر قوي شديد، أو باطل ذاهب[٢]، فقال قائلهم: اسألوا السفّار وهم المسافرون، الذين قدموا من أماكن أخرى، فسألوهم، فقالوا: نعم رأيناه[٣]، فذهب ادعاء الكفار بأنه سحر، لأن الساحر في الغالب يسحر من حوله ولا يستطيع أن يسحر الغائب عنه.

وقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣﴾، أي: رغم بطلان قولهم بأنه سحر، بشهادة المسافرين الذين قدموا من بعيد إلا أنهم استمروا في تكذيب محمد ﷺ ولم يؤمنوا بما جاءهم به من الحق، بل اتبعوا هوى النفوس الفاسدة، التي لا تحب الحق ولا تمتثل له، وكل أمر مستقر بأهله، فالخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر[٤]، فإن الله قدر الأقدار

---

(١) صحيح البخاري: (٥/ ٤٩)، برقم: (٣٨٦٨).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٩٧).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٦٧).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٤٦).

وكتبها في اللوح المحفوظ، وما قدّره كان، لا يتخلف، فهذا إخبارٌ عن أمر الله وأنه لا راد لقضائه، ولا مُعقب لحكمه.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾، ولقد جاء كفار قريش من أخبار الأمم المكذبة وكيف أهلكها الله بسبب تكذيبها للرسل ما يكون في معرفتها عظة وعبرة، تكفي لأن ينزجر ويبتعد بسببها هؤلاء عن الكفر والتكذيب، فما جاءهم من الأنباء والأخبار هو حكمة تامة تقوم بها الحجة على هؤلاء المكذبين؛ فينتهوا عن تكذيبهم، ولكنهم لم يستفيدوا منها؛ فمن كان هذا حالُه، فالنذر لا تنفعه، لأن الله قد ختم على قلوبهم وحرمهم من الهداية.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أمر الله نبيّه ﷺ أن يعرض عنهم ويترك جدالهم، ومثل هذه الآيات التي فيها الأمر بالإعراض والتولي والصفح والصبر، كانت في الفترة المكية بسبب ضعف المسلمين.

ولما شُرِع الجهاد أُمر النبي ﷺ بمجاهدة الكافرين وقتالهم، والصحيح أنه لا نسخ بين آيات الصفح والإعراض، وبين آيات السيف، وأن كلاهما مُحكَم، وأن آيات الصفح يبقى حكمها في حال ضعف المسلمين، وأن آيات السيف يبقى حكمُها في حال قوة المسلمين، جمعًا بين الأدلة.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾، **أي:** انتظر مصيرهم يوم القيامة، **والداعِ:** المقصود به هنا إسرافيل، الموكل بالنفخ بالصور، فقد التقم الصور وحنى جبهته منتظرًا أمر ربه بالنفخة الأولى، فيصعق الناس بها، والنفخة

الثانية تكون بعدها بما شاء الله، فيقوم بها الناس من قبورهم، والأمر النُّكر هو الفظيع ومن فظاعته وشدته تستنكره النفوس، وتستغرب منه الخلائق، فإنهم لم يسمعوا ولم يروا بمثله من قبل، وهذا يدل على شدة يوم الحشر وفظاعته.

وقوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾، هذا وصف لحال الكفار يوم القيامة، فإذا نُفخ في الصور نفخة البعث، خرجوا من قبورهم في حالة من الذل والهوان، ذليلة أبصارهم، والمقصود ذلة الجسد كله، وإنما عبَّر بذلة الأبصار لأنها هي أبرز الجوارح التي تتأثر بالذلة والمهانة، فالشخص الذليل المهين يكون مُطرِقًا بصره إلى الأرض، فيخرجون من قبورهم ينتشرون كالجراد من كثرتهم ويتجهون نحو صوت الداعي.

وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾، أي: مُسرعين باتجاه مكان صوت إسرافيل في أرض المحشر، **يقول كل واحد في نفسه**: هذا يوم شديد على الكافرين؛ لأن وقت البعث والأهوال التي تصحبُه تشغل كل واحد عن غيره.

ثم ذكر بعض أخبار المكذبين قبل قريش لعلهم أن يزدجروا بها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾، قوم نوح هم القوم الذين عاشوا بعد آدم، فإن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول رسل الله إلى الأرض، وقد مكث أهل الأرض على التوحيد عشرة قرون، ثم انحرفوا عنه، فأرسل الله إليهم نوحًا ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد فقابلوه بالتكذيب ووصفوه بأنه مجنون، وزجروه ومنعوه عن الدعوة، **كما قال الله عنهم**: ﴿قَالُوا۟

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[الشعراء:١١٦]، ولو استمر في الدعوة لرجموه بالحجارة ليمنعوه عن إبلاغها.

وقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾، **أي:** بعد أن صبر على دعوتهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وعلم نوح من الله أنه لن يُؤمن له من قومه إلا من قد آمن؛ دعا ربه أن ينصره عليهم، فقد هددوه وهو بمفرده ومعه قلة من المؤمنين، فعلم أنه لو جرت معركة بينه وبينهم فهو مهزوم لا محالة، بناءً على المعطيات المادية البشرية. **فاستجاب الله دعوته، ونصره عليهم، فقال:** ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾، فالهلاك سيكون بإغراقهم بالماء، فأمر اللهُ نوحًا بصناعة السفينة، ثم أمر الله السماء أن تُمطر الماء الكثير المنهمر الذي لا ينقطع نزوله، فكان المطر يصب كما لو فتحت أفواه القرب، وأمر الأرض أن تتفجر بالماء من داخلها بقوة شديدة، فالتقى الماء الذي نزل من السماء بالماء الذي تفجّر من الأرض على شأنٍ قد كتبه الله أن يقع، وهو إغراق قوم نوح، فامتلأت الأرض بالماء حتى غمر الجبال والأودية وحمل الله نوحًا ومن معه من المؤمنين على السفينة التي صنعها نوح من الألواح الخشبية والدسر، وهي المسامير، وكل شيء أدخل في شيء يشده فهو الدسر[1]، وحمل فيها أيضًا من كل زوجين اثنين من الحيوانات ونحوها، حتى تبقى الحياة في الأرض بعد ذهاب الماء الذي أغرقها.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾، **أي:** أن الله حفظ هذه السفينة

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٤٨).

مع شدة الأمواج واضطراب المياه وثقلها بازدحام من ركب فيها **كما قال**: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[يس:٤١]. **أي**: المملوء، فكانت تجري بعناية الله ورعايته وحفظه وتدبيره، وكانت النجاة لنوح ومن معه، جزاءً لإيمانهم، وكان الغرق لقومه بسبب كفرهم.

وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾، **أي**: تركنا السفينة علامة دالة على قدرة الله وعظمته، فقد حفظها الله حتى أدركها بعض كفار قريش ورأوها بأعينهم، **والظاهر** أن المراد من ذلك جنس السفن[1]، **وقيل**: المقصود بالآية الفِعلة، وهي الإغراق[2]، وهذه الفعلة أخبرنا القرآن بها، وأن الله أهلك أهل الأرض كلهم بالطوفان بسبب كفرهم، فهل من متعظ ومعتبر بهذه الآية؟!.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾، سؤال تعجبي، **أي**: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذّب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرتُ لهم، **والمعنى**: أنه لم ينزل العذاب بهم إلا بعد أنذرهم، **ولذا يُقال**: من أنذر فقد أعذر، **أي**: لا عُذر لهم طالما حصل لهم الإنذار.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾، يسّر الله سبحانه القرآن للذكر، **والتيسير يشمل**: تيسير معانيه، وتيسير حفظه، وتيسير فهمه، مع أنه كلام الجبار سبحانه.

قال ابن عباس: "لولا أن الله يسّره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٧٧).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ١٩٩).

الخلق أن يتكلم بكلام الله"[١]، فهو يحتوي على التراكيب البلاغية والمعاني العميقة، ولكنه إذا قُرئ يُستوعَب في الغالب ويفهمه الناس، ولو سمعه الأعجمي غير المسلم لتأثر به، فهل من مُتّعظ بهذا القرآن، وستتكرر هذه الآية بعد كل حادثة، إشارة إلى أن كل قصة مستقلة في القصد والاتعاظ، **والمعنى**: أن معلوماتكم أيها العرب عن الأمم السابقة قليلة، ولكن الله فصلها لكم في القرآن الكريم، ويسّر لكم فهم ما فيه من الأخبار وقصص السابقين لكم، فيحصل لكم بذلك الاتعاظ والتذكر.

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾، عادٌ هم قوم هود، وكانوا يسكنون في الأحقاف وهي منطقة الآن في صحراء الربع الخالي بين عمان والسعودية والإمارات واليمن، وقد أنذرهم رسولُهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يقبلوا إنذاره وكذبوا برسالته، فأهلكهم الله بريح باردة لها صوت شديد، **وهي ما يطلق عليها اليوم**: "بالعاصفة"، وكان هلاكهم في يوم شؤم مستمر عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي[٢]، **وقد بدأت العاصفة** صباح الأربعاء وانتهت يوم الأربعاء قبل أن تغرب شمسه، **وكانت كما قال**: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[الحاقة: ٧]، وهي أطول عاصفة في التاريخ، حيث استمرت مائة وثمانين ساعة، ثم ذكر وصف هلاكهم بهذه الريح العقيم

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٧٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٧/ ٤٧٩).

الشديدة عليهم، بأن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتقطع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس[1]، فتكون أجسادهم كالنخلة المنقعرة، وهي التي قلعت من جذورها ورميت على الأرض لا حياة لها.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١﴾، تكررت هذه الآية مع بعض القصص؛ لبيان أن العذاب لم يقع بهم إلا بعد الإنذار لهم وكفرهم به.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢﴾ سبق معناها وتكررت؛ لأن قصة عاد تختلف عن قصة نوح.

ثم قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾، ثمود هم قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجمع النذر؛ لأن من كذّب برسول واحد، فقد كذّب بباقي الرسل، **وكان سبب تكذيبهم شبهة**: أن الرسول واحد من البشر، وفي هذا إشارة إلى كبرهم وطغيانهم، ولذا تساءلوا بينهم سؤال استنكار وتعجب، كيف نتبع بشراً مثلنا؟! ولو فعلنا ذلك لوقعنا في عناءٍ ومشقةٍ وبُعدٍ عن الصواب، وخبنا وخسرنا إن سلمنا قيادتنا لواحد منا!.

ثم قالوا: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۝٢٥﴾، فظهر من كلامهم هذا سبب آخر لكفرهم، وهو الحسد له، **فحين بطلت شبهتم الأولى**: كيف نتبع بشراً مثلنا؟!، **وقيل لهم**: إن جميع الرسل من البشر، **قالوا**: لماذا يكون له الفضل

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٧٩).

علينا، ويختص هو بالرسالة وإنزال الوحي عليه، واتهموه بأنه كذاب قد بلغ في الكذب مرتبة عليا، ولم يُلق عليه وحيٌ من الله بل هو مدّعٍ للنبوة.

فرد الله عليهم هذه الفرية بقوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦﴾، بل هو نبي مرسل، وستعلمون عند نزول العذاب بكم غدًا من هو الكذاب، أنتم أم هو؟ لأن نزول العذاب بهم قريبًا دليل على أن الله انتصر لرسوله، ولو كان كذابًا لما أهلك قومَه.

ثم قال: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾، **أي:** إنا مخرجو الناقة وباعثوها أمام أعينهم من الصخرة، وسمى الإخراج إرسالًا لبيان أنها معجزة، وجعل هذه الناقة اختباراً لهم؛ لأن الله يعلم مسبقًا أن هؤلاء لن يؤمنوا ولو رأوا المعجزة، وأمر الله نبيّه صالح ' أن ينتظر ما يؤول إليه أمرهم، وأن يصبر عليهم، لأنه سيحصل منهم أذىً وتكذيب له، وأمره أيضًا بأن يُخبرهم أن عين الماء التي يشربون منها قسمة بينهم وبين الناقة، بحيث تشربُ الناقة يومًا من هذه العين وحدها، وهم يشربون منها يومًا آخر وحدهم، وفي اليوم الذي لا يشربون من الماء تحلب لهم الناقة ما يكفيهم من اللبن، فيستغنون بلبنها عن الماء، وكل واحدٍ يحضر إلى مكان الماء فيأخذ نصيبه منه، فأنتم تأخذون نصيبكم منه، والناقة تأخذ نصيبها منه، فلم يُؤمنوا بصالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ولم يمتثلوا أمره، بل اتفقوا على قتل الناقة، ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾، **والمقصود بصاحبهم هو** قُدار بنُ سالف، ويُلقب بأحمر ثمود[1]،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٩٢)، والتحرير والتنوير: (٢٧/ ٢٠١).

وكان رجلًا شجاعًا لا يهاب، فاستغلوا فيه هذه الصفات، وشجعوه على قتل الناقة، فكان أشقى قومه، وعبّر عنه بصاحبهم؛ لأن الأمر تم عن رضى منهم جميعًا، فهم أشاروا عليه وهو نفّذ، فتناول الحربة ليقتل بها الناقة، أو تناول الناقة نفسها ليعقرها. **والعقر**: هو ضرب ساق الناقة حتى تسقط، فإذا سقطت وضع السكين في منحرها فنحرها، ففعل ذلك بكل تعاظمٍ، فكان فعله هذا سببًا لهلاكه وهلاك قومه.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠﴾ سبق معناها، وتكررت مع كل قصة؛ لتحذير قريش وكفارها من التكذيب.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ۝٣١﴾، فأرسل الله عليهم جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فانخلعت قلوبُهم من صدورهم، فماتوا، وأصبح حالُهم كحال ذلك التبن الذي يُداس تحت أقدام الحيوانات في الحظيرة، **والمُحتظر** هو صاحب الحظيرة[1]، **والحضيرة** هي مكان تجمع الحيوانات. **فشبّه حالهم بعد هلاكهم** بعد أن كانوا أشداء أقوياء وأصحاب أجساد كبيرة بالهشيم الذي يداس بأقدم الحيوانات، ولأن الصيحة مزقتها ونثرتها هنا وهناك، وما زالت مدائن صالح موجودة إلى اليوم قريبًا من مدينة تبوك، ومبانيهم وأماكنهم ضخمة جدًا، ومحفورة داخل الجبال.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٣٢﴾، سبق معناها.

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١١٣).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن من أساليب الوعظ؛ الحديث عن اقتراب الساعة لتنبيه الناس أن يستعدوا للرحيل.

٢- أن الخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشر.

٣- أن في أخبار القرآن وأحكامه حكمة تامة تقوم بها الحجة على الناس.

٤- أن يوم القيامة يوم شديد على الكافرين، سهل ميسّر على المؤمنين.

٥- أن تيسير الله للقرآن للذكر يشمل: تيسير معانيه، وتيسير حفظه، وتيسير فهمه للناس.

٦- لا عذر لمن جاءه النذير فكذب به، فعاقبه الله بعد ذلك.

٧- مشروعية الدعاء بالهلاك على الكافر المُصر على كفره.

٨- أن إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين سنة إلهية مُطّردة لا تبديل لها.

٩- أن الراضي بالجريمة الموافق عليها، مشترك مع فاعلها في العذاب.

تفسير المقطع الثاني من سورة القمر

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ
مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ
فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ
لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ
السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي
النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ
كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي
الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ
عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾، **قومُ لوطٍ** هم أصحاب قرية سدوم من أرض الشام، وقد كذبوا رسولهم لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، **والنُّذر**: جمع نذير والمقصود بهم الرسل، فمن كذّب برسول فقد كذّب بالرسل جميعًا، أو أنهم

كذبوا وجحدوا الإنذارات المتكررة التي كان يوجهها إليهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يمتثلوا لها، وامتنعوا عن تنفيذها.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾، فأرسل الله على قوم لوط حاصبًا، وهو الشيء الذي يُرمى به، حيث رفع جبريل قراهم بجناحه ثم قلبها في السماء فجعل عاليها سافلها، ثم رماهم الله سبحانه بحجارةٍ من سجيل، ونجّى الله المؤمنين من آل لوط فقط، وهم لوط وابنتاه، وأهلكَ زوجته مع أنها من ضمن آله في اللغة، إلا أن المعنى الشرعي خص الآل بالأقارب المؤمنين فقط، **ولذلك لم يدخل أبو لهب في معنى آل النبي ﷺ** وهو عمه؛ لأنه ليس بمؤمن، وكانت نجاة المؤمنين من آل لوط في وقت السحر، وهو السدس الأخير من الليل، فقد أمر اللهُ لوطًا أن يخرج بعد مرور شيء من الليل هو وأهله، ولا يلتفت منهم أحد، فالتفتت زوجتُه، فأخذتها الملائكة وهلكت مع قومها، وكان نجاتهم نعمة من الله عليهم بسبب إيمانهم، وعبّر هنا بالشكر عن الإيمان؛ لأن الإيمان أعظم أنواع الشكر، فالشكر نوعان: شكر القلب؛ وهو الإيمان والإذعان والتصديق، وشكر الجوارح؛ وهو النطق باللسان والعمل بالجوارح، والكاف للتشبيه، فكما نجيناهم في الدنيا بسبب شكرهم؛ سننجيهم في الآخرة، فسنة الله جارية لا تتخلف في ذلك.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾، ولقد أنذر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه، وحذرهم من أن يُصيبهم عذاب الله إن استمروا في الكفر وفعل الفاحشة، فجحدوا أمره، ولم يلتفتوا إلى نصحه، وشكوا في تهديده لهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾، وطلبوا منه أن يخلّي بينهم وبين ضيفه من الملائكة الذين جاؤوا في هيئة شبابٍ حسنة صورهم، وحالوا إقناع لوط بأن يسمح لهم بالدخول على أضيافه؛ ليفعلوا بهم الفاحشة، فلما كثر الحوار واشتد الجدال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل ؑ فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم وذهب بصرهم، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الصباح[1].

وعبّر بلفظ (فذوقوا): للتوبيخ والتبكيت لهم، **والمعنى:** فذوقوا عذابي ونتيجة تكذيبكم لإنذار رسلي لكم، وعدم إيمانكم بهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾، **أي:** أصابهم العذاب في الصباح الباكر، **كما قال:** ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود:٨١]، ووصف العذاب بالمستقر، **أي الذي:** يبقى معهم ولا ينفك عنهم حتى يهلكهم، ويستمر معهم إلى أن تقوم الساعة[2]، فهم يذوقون مرارة الحجارة من سجيل التي رُموا بها في البرزخ وأرواحهم تُعذب بها إلى أن يُبعثوا.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾، سبق معناها.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾، سبق معناها.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾، ولقد جاء فرعون وقومه النذر، والمقصود بهم موسى وهارون.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٨١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ٥٩٩).

وقولـه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾، فلـم يؤمنـوا لهمـا، وكذبوا بالآيات التسع كلها[١]، التي أرسلها الله عليهم لتخويفهم بها، فأخذهم الله أخذًا شديدًا فأغرقهم جميعـًا في البحر بسبب كفرهم، وأضاف الأخذ إلى اسم العزيز الذي لا يغلبه أحد، والمقتدر الذي لا يُعجزه شيء، وأشار هنا فقط إلى النهاية التي هلك بها فرعون وقومه، وفصلها في سور أخرى.

ثـم قـال: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾، الخطـاب لكفـار قـريش، والسؤال استنكاري، أي ليس كفاركم خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم[٢]، فإن من المعلوم عند الناس أن الأمم المتقدمة أشد قوة من الأمم المتأخرة، والمعنى: أكفاركم أقوياء وأشداء وأولئك ضعفاء؟!، أو أكفاركم لهم مكانة وحظوة عند الله أفضل من أولئك؟! الجواب: لا، إذن فمن يمنعكم من بطش الله وعذابه؟!.

ثـم سـألهم: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣﴾، هل حصلتم على براءة لكم من عذاب الله رغم كفركم به، وهذه البراءة مكتوبة في الكتب السماوية السابقة أو في اللوح المحفوظ، ويُسمى الكتاب زبورًا؛ لأنه يُزبَر أي: يُكتَب فيه، ومنه زَبره بقلمه أي خطه بقلمه، والجواب: لا هذا ولا ذاك، لا كفاركم خير من أولئك، ولا معكم براءة مسطورة في الزبر.

وقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾، هذه الكلمة قالها بعض كفار قريش

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١١٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٤٥).

في مكة لما هددهم محمد ﷺ بالهزيمة، **قالوا:** نحن شيءٌ واحد نجتمع على عدونا فننتصر عليه، **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾، سيهزم جمعهم ويهربون على أدبارهم بحثًا عن النجاة، وكانت هذه إشارة لهم وهم في مكة -لأن السورة مكية- إلى غزوة بدر، وأن الكفار سيهزمون فيها، وفي الصحيح[1]، **عن** ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: وهو في قبة له يوم بدر: **"أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً"**، فأخذ أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بيده، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك، وهو في الدرع، **فخرج وهو يقول:** ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾".

ثم قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾، وما يحصل لهم من عذاب وهزيمة في الدنيا لا يعفيهم من عذاب يوم القيامة، فهناك سيذوقون العذاب المنكر شديد الفظاعة الذي اشتدت مرارته.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾، **المجرمون هم** المكذبون بالله وبدينه، وإنما عبّر عنهم بالإجرام؛ لأن الشرك بالله والكفر به أعظم الجرائم، فهم بعيدون عن الحق، ضالون عن طريقه، ويعيشون في عناء وعذاب ومشقة في الدنيا، وإذا كان يوم القيامة؛ فإن الملائكة تسحبهم في النار على وجوههم، **وتقول لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت:** ذوقوا ما يمسكم من عذاب جهنم، **فجمع لهم بين نوعي العذاب: العذاب الحسي، وهو:** ما يجده الكافر من سعير النار ولهيبها، **والعذاب**

(١) صحيح البخاري: (٤/ ٤١)، برقم: (٢٩١٥).

المعنوي، وهو: ما يسمعه الكافر من ألفاظ سيئة من الملائكة تجرح مشاعره وتوبخه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، **والمعنى** أن الله سبحانه قدَّر الأشياء قبل خلقها، وكتبها في اللوح المحفوظ، فلا يقع في الكون إلا ما قدره الله من الخير والشر والطاعة والمعصية، فالخير والشر مخلوقان ومُقدران على العبد، ولكن الله سبحانه أخفى ذلك عن العبد وأمره بالخير ونهاه عن الشر، فإذا فعل الخير أُجِر على فعله، وإذا فعل الشر عُوقِب على فعله، ولا يكون شيء في الكون كله إلا بتقدير سابق[1]، **وفق مراتب القدر الأربعة، وهي**: **العلم**، ثم **الكتابة**، ثم **المشيئة**، ثم **الخلق**، وأن كل شيءٍ خلقه الله فقد خلقه وفق تقدير مناسب له، فالإنسان خُلق بهيئة مناسبة، والحيوان بهيئة مناسبة، والسماء بهيئة مناسبة، كل إنسان خلقه الله على وفق الهيئة والصورة والشكل والحال الذي يصلح له[2]، ولا تعارض بين المعنين، فكلاهما مراد من الآية.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾، إذا أراد الله شيئًا قال له: كن فيكون، **فالواحدة، هي**: كلمة كن، فالعطاء بكلمة، والمنع بكلمة، والإيجاد بكلمة، والإهلاك بكلمة، وهذه الكلمة إذا قالها الله سبحانه للشيء، كان ذلك الشيء في الحال دون تأخر، كما تكون حركة جفن العين وارتفاعه وانخفاضه بلحظة!

---

(١) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٣٢٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١٢٣).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١﴾، رجع الخطاب مرة أخرى إلى كفار مكة على سبيل التهديد والوعيد لهم في حالة استمرارهم على كفرهم، فقد أهلكنا ودمرنا أمثالكم من الكفار والمكذبين برسلي، وقصّينا عليكم خبر إهلاكهم، فهل من مُتعظ منكم بحالهم؟!، فما زلتم في وقت الاتعاظ والاعتبار والإيمان، فإن أبيتم إلا الكفر، فإن مصيركم سيكون كمصيرهم.

ثم قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾، هذا إخبار عن قدر الله سبحانه المكتوب، وأن كل شيء يفعله العباد، فهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ الذي كُتبت فيه مقادير الخلق، ويكتب في صحائف أعمال العباد عند فعلهم لها، فكل الأعمال مُسطرةٌ صغيرها وكبيرها في اللوح المحفوظ، ومُسطرة في صحائف أعمال العباد، فلا يسقط منها شيء، وستُجازَون عليها يوم القيامة.

ثم ختم الله تعالى السورة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾، فأخبر عن جزاء المتقين في الآخرة، وهم الذين اتقوا غضب الله وسخطه في الدنيا، وفعلوا ما أمرهم به واجتنبوا ما نهاهم عنه، فالتقوى مرتبة عالية جدًا، لا يصل إليها العبد إلا بالمحافظة على الأعمال الصالحة، والابتعاد عن المعاصي والمنكرات، وجزاؤهم في الآخرة الجنة، فقد أعدها وهيأها لهم، كما قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]، يدخلونها فيتنعمون بما فيها من نعيم مقيم وأنهار متعددة، وقد ذكر الله لنا أربعة أنواع من الأنهار

فيها: وهي نهر العسل، ونهر اللبن، ونهر الماء، ونهر الخمر، وأعد الله لهم فيها المجلس الحسن، فالعرب كانت إذا أرادت أن تصف شيئًا بالحُسن الزائد نسبته إلى الصدق، والله سبحانه خاطب العرب على وفق معهودهم، وذكر أنهم عند الله سبحانه في الفردوس الأعلى، وفي الحديث: **"إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وسقفها عرش الرحمن"**[1]، والمليك الذي يملك كل شيء، والمُقتدر الذي لا يُعجِزُه شيءٌ، فلا تسأل بعد ذلك عن سعادتهم ونعيمهم المقيم ورضى الله عنهم، نسأل الله من فضله.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن شكر الله بالقلب واللسان من أسباب النجاة من العذاب.

٢- أن الله طمأن رسوله ﷺ وهو في مكة بأن الله سينصره قريبًا.

٣- وجوب الإيمان بالقدر، وأنه ركنٌ من أركان الإيمان، وأن الله سبحانه ما خلق شيئًا إلا بعد أن قدره وكتبه في اللوح المحفوظ.

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١٦)، برقم: (٢٧٩٠).

تفسير سورة الرحمن

تفسير المقطع الأول من سورة الرحمن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾
ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ
﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو
ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ
كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا
بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾
سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ
ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الرحمن؛ سورةٌ مختَلَفٌ في مكّيّتها ومدنيّتها، **فالجمهور من المفسرين** على أنها مكية[1]، **والبعض يرون** أنها مدنية[2]، **ورجح بعض المحققين** أنها مكية[3]، **والمقصد العام لهذه السورة** هو تذكير الإنس والجن بنعم الله الكثيرة عليهم.

وابتدأت باسمٍ من أسماء الله، هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهو الاسم الذي يُمكن أن يحل محل اسم الذات، (الله)، **كما قال:** ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء:١١٠]، فهما الاسمان البارزان اللذان يُطلقان على الذات الإلهية، وبدأت السورة باسم الرحمن إشارة إلى أن كل النعم التي ستُذكر في السورة هي من آثار رحمته -سبحانه- في الخلق.

وأول نعمة من نعمه عليهم هي في قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾﴾، فعلّمه جبريل، ثم جبريل علّمه محمدًا ﷺ **كما في قوله:** ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[النجم:٥]،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٠٥)، وتفسير الرازي: (٢٩/ ٣٣٥)، وتفسير الخازن: (٤/ ٢٢٥)، وتفسير ابن كثير: (٧/ ٤٨٨)، وتفسير السعدي: (ص: ٨٢٨).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٤٢)، وتفسير ابن جزي: (٢/ ٣٢٧)، والمختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٣١).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٥٧).

أي: جبريل، ثم محمد ﷺ قرأه وعلّمه لأصحابه، ثم تتابع التعليم فيمن بعدهم، فالعلم والتعليم من الله، والمعلّمون سبب لتحصيله، فالله هو مصدر العلم، فهو الذي خلق في الإنسان القدرة على العلم والتعلم، ولذا نسب التعليم إليه، ويشمل تعليم القرآن: حفظه وتلاوته، وفهمه وتدبره، والعمل به.

ثم ذكر النعمة الثانية والثالثة، فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾، فخلْقُ الإنسان بهذه الصورة نعمة عليه، والمقصود بالإنسان الجنس، وأول ما يُطلق على آدم لأنه أبو البشر، وعلمه البيان، وهو النطق فيُبين به عما في نفسه، باختلاف اللغات، وهو أعظمها بيانًا، ويلحق به الكتابة والإشارة وغيرها من وسائل البيان، وفيه إشارة إلى النعمة التي يتميز بها الإنسان عن باقي الحيوان، لذا يقال: الإنسان حيوانٌ ناطق، بخلاف باقي الحيوانات فلا تنطق، فالنطق أعظم وسيلة للبيان والتفاهم.

ثم قال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾، أي: خلقهما وقدّر سيرهما بحساب دقيق، فلا هذه تتقدم ولا تلك تتأخر، كما قال: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[يس:٤٠]، فالشمس والقمر يسيران وفق تقدير محدد مُنذ خلقهما الله إلى أن يُنهيهما في آخر الزمان، وبهذا السير المتقن لهما يتم من خلاله حساب الأيام والليالي والشهور والسنين.

ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾، الشجر هو الذي له ساقٌ من النبات، والنجم اختلف المفسرون فيه على قولين[1]، القول الأول: الشجر

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٠٦).

الذي لا ساق له، مثل الحشائش ونحوها.

والقول الثاني: النجوم الموجودة في السماء، **والقول الأول** رجحه ابنُ جرير[(١)]، **والقول الثاني رجّحه ابن كثير**[(٢)]، وسجودهما بحسب حالهما، فما من مخلوق إلا ويسجد لله، والله سبحانه يعلم كيفية ذلك منه، **كما قال**: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤٩].

ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾، **أي**: خلق السماء مرتفعة بغير أعمدة وجعلها قبة للأرض.

والميزان هو الآلة التي يُوزن بها الأشياء[(٣)]، **والمقصود به هنا** العدل، **أي**: أثبت العدل وأمر به، وأقام الكون كله على العدل والقسط من أجل أن لا يُظلَم أحد فيه، ثم أمر الخلق به ونهاهم عن الطغيان فيه، وهو تجاوز الحد المشروع بالزيادة عليه أو النقصان منه، وأمرهم بالقسط وهو العدل، ونهاهم عن إنقاص الوزن، ويدخل فيه الكيل والعد ونحوها، ويشمل الوزن الجانب الحسي، والجانب المعنوي، **كما في قوله**: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[الشعراء: ١٨٣]، فليس المطلوب فقط من المسلم أن يكون عادلًا في الكيل والوزن ونحوها، بل

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ١٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١٣٧).

يكون عادلًا في الكلام والاحترام والتقدير وسائر الحقوق المعنوية، ويعطِ كل ذي حق حقه من الحقوق المعنوية أو الحسية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾، وخلق الأرض ومهدها وجعلها صالحة للحياة والاستقرار عليها للخلق أجمعين مما له روح وحياة، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن[1]، فهي صالحة للإنس والجن وصالحة لغيرهم من المخلوقات، بخلاف غيرها من الكواكب كالمريخ والقمر ونحوهما، فلا يوجد فيها مقومات للحياة عليها.

وقوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١﴾، أي: أوجد في هذه الأرض الفواكه المتعددة والمتنوعة، وهي ما يتفكه به الإنسان ويتلذذ بأكله، وأوجد معها النخل، وهو من حيث العموم يدخل ضمن الفواكه، لكنه أفردها لمكانتها عند العرب فهي قوتُهم الأساسي، وهي فاكهة عندما تكون رُطبًا، وقوتًا حينما تكون تمرًا، وذكر هنا شجرة النخل ولم يذكر ثمرتها؛ لأن الشجرة فيها نعم متعددة غير الثمرة، وقد ضرب النبي ﷺ مثل المؤمن كمثل النخلة، كل ما فيها يُستفاد منها، فالسعف والأوراق يصنعون منها الحصير، وجذوعها تكون خشبًا، والنواة التي تخرج من التمرة يُستفاد منها وتُطحن وتكون طعامًا للحيوان وعلاجًا وغير ذلك، فهي شجرةٌ مباركة، والأكمام المقصود بها الوعاء الذي يطلُع منه زهر التمر قبل أن تصير رطبًا، ومنها يخرج عِذق التمر.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٥٩).

ثم قال: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾، **الحَب:** هو ثمرة الشجرة التي تكون ذات أوراق وأغصان[1]، **وقيل: العصف** التبن، وهو الغطاء الذي يكون حول الثمرة، فإذا أخرج منه الحب يُصبح تبنًا للماشية[2]، وكأنه أشار بهذه الآية إلى طعام الإنسان وهو الحَب، وطعام الحيوان وهو العصف الذي هو الأرواق، سواءً كانت خضراء أو قد أصبحت يابسةً وتبنًا.

والريحان للمفسرين فيها قولان[3]، القول الأول: أنها الأشجار التي تُؤكل ولا ثمر لها، مثل الخس والجرجير والبصل ونحوها.

والقول الثاني: أن الريحان هو الأشجار المعروفة اليوم التي يستخرج منها الطيب، **والمعنى:** أن الله أنبت في الأرض أنواع الأشجار التي فيها أكل للإنسان وأكل للحيوان، وأشجار يستُخرج منها الطيب والرائحة الطيبة، وهذا كله تعداد لنعم الله سبحانه على الخلق.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾، الخطاب موجّه للجن والإنس، فهما المكلفان بشكر هذه النعم، **وفي الحديث** عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: **"لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا**

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٢/ ١٩).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٦٠).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير. (٤/ ٢٠٧).

نكذب، فلك الحمد"(١).

آلاء، أي: نعم، جمع نعمة، وستتكرر هذه الآية في هذه السورة واحداً وثلاثين مرة، والتكرار ليس للتوكيد وإنما للتأسيس، فلو تأملت في المعنى السابق للآية ستجد أنه يحتوي على نعمة، وأن هذه النعمة قد تكون ظاهرة، وقد تكون خفية تحتاج إلى استنباط، فكان السؤال بعد هذه النعمة للجن والإنس: كيف تُكذبون بنعم الله؟.

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾، **المقصود بالإنسان هنا** آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فهو الذي خُلق من التراب الذي عُجن وتُرك حتى يخمر فصار صلصالًا، ثم يبس فصار فخارًا.

وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾، **المقصود** أبو الجن الأول، **والمارج** هو طرفُ اللهب الأصفر من النار، **أي:** من لهب صافٍ نقيّ لا دخان فيه(٢).

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾، **والنعمة هنا** هي نعمة الخلق للجن والإنس.

ثم قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾، ذكر هنا المشرق والمغرب على

---

(١) سنن الترمذي: (٥/ ٣٩٩)، برقم: (٣٢٩١)، والحاكم في المستدرك: (٢/ ٥٥٨)، برقم: (٣٨٢٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥١٣٨).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٤٥).

التثنية، **وقد ذُكرت في آية أخرى على الجمع، كما في قوله:** ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[المعارج:٤٠]، **وفي آية ثالثة على الإفراد، كما في قوله:** ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[المزمل: ٩]، **فالمفرد** على الجنس، **والمثنى** على مشرق الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف، ومغربها في الشتاء ومغربها في الصيف، **والجمع** على تعدد المشارق ابتداءً من نقطة بداية المشرق في الصيف إلى نهايته في الشتاء، ومثله المغرب.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾، وهي نعمة تعدد المشارق والمغارب واختلاف المناخ، وفيه مصالح للخلق كثيرة.

ثم قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾، **مرَج في اللغة:** معناها الإرسال، بمعنى أرسل البحرين فجعلهما يتجاوران ولا يختلط أحدُهما بالآخر[١]، وهما البحر الحلو التي هي الأنهار، والبحر المالح التي هي البحار، وجعل بينهما حاجزاً من قدرة الله تعالى، فلا يبغِ الملح على العذب فيفسده، ولا يبغِ العذب على الملح فيختلط به، وهذا ما تُثبته الدراسات الحديثة، فإنهم نظروا في مصبات الأنهار في البحر، فإنها تتجاور ولا يختلط بعضُها ببعض.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾، وهذه لا شك نعمة عظيمة من النعم التي امتن الله بها على عباده، فلا يطغى الماء المالح على الماء العذب، بل يبقى العذب عذبًا والمالح مالحًا.

---

(١) ينظر: تاج العروس: (٦/ ٢٠٧).

قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾، **أي:** من مجموع البحرين الحلو والمالح، فإذا وجد من أحدهما كفى[١]، وهو المالح، ولكن لما كان الماء العذب كاللقاح للماء المالح في إخراج اللؤلؤ، قال: يخرج منهما[٢]، **وقال ابن عباس:** **"ما من قطرة تنزل من السماء فتقع في فم صدفةٍ من صدف البحر إلا تكونت لؤلؤة"**[٣].

اللؤلؤ هو كِبار الدُّر، **والمرجان** صغارُه.

قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾، وهي نعمة استخراج اللؤلؤ والمرجان، وانتفاع الخلق بهما.

ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾، **أي:** لله سبحانه يعود فضل تسيير السفن الجارية الضخمة التي تشبه الجبال العظيمة على سطح الماء عن طريق الأشرعة والرياح، ونحوها، قبل أن تأتي السفن الحديثة التي تسير عن طريق المُولدات الحديثة، هذا إشارة إلى أن نعم الله على الإنسان عظيمة، وأنه سيجعله يُفكر في صناعات عملاقة من هذه السفن.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾، وهي نعمة جريان السفن على البحر، وانتفاع الخلق بها.

ثم قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾، **بيان** بأن

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٩٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٧/ ٢٥٠).

(٣) زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٠٩).

الخلق جميعًا يهلكون ويموتون، وبقاء الخالق وحده سبحانه، وإنما عبّر بالوجه؛ لأنه أعظم شيء في الذات، ووصف وجهه بأنه ذو العظمة والإكرام، والإحسان والتفضل على عباده، فهو الذي يُكرم خلقه، ولا يُقال فيه ما لا يليق به.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾، فالموت وفناء الخلق نعمة، ولو ترك الناس دون موت؛ لما حصل للمظلوم إنصاف من ظالمه، لأن الدنيا ليست دار جزاء، ولذلك تجدون الناس إذا يئسوا من حقوقهم تركوها ليوم الحساب، فكان الموت نعمة للمظلوم ليأخذ حقه، ونعمة للظالم من أجل أن ينتهي ظلمُه!!.

ثم قال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾، **أي:** يسأله الخلق جميعًا احتياجاتهم، حتى النملة تسأل ربها ما تحتاج إليه من طعام وشراب وشفاء وغير ذلك، وكل مخلوق له لسان بحسب حاله، ويسأل الله، والله يعلم ما تنطق به هذه الألسن، وهو يُقدر الأقدار في كل يوم، فيشفي هذا ويُمرض هذا، ويرزق هذا ويمنع هذا، ويُحيي هذا ويُميت هذا، ويعز هذا ويُذل هذا، ونحوها، فالأحداث اليومية كلها من فعل الله، وبتقديره.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾، وهي نعمة عطاء السائلين وتقدير الأقدار اليومية.

ثم قال سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾، هذه عبارة جاءت على وفق ما اعتادت عليه العرب من الأساليب البلاغية على سبيل التهديد[1]، **فإذا أردت**

---

(١) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٣٢٩).

أن تُهدد شخصًا قلت له: سأتفرغ لك، لتُشعِره أنك ستقصده بكل كيانك وقوتك، ولا يعني ذلك أن الله مشغول، تعالى الله عن ذلك، فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، **والمعنى:** إن الله سبحانه وعد على التقوى وأوعد على المعصية، فإذا كان يوم القيامة، أعطى الله كل ذي حق حقه.

والثقلان هما الجن والإنس وهما المُكلفان بالعبادة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾، **والنعمة هنا** أن تسمع تهديدًا فيردعُك وتتوب من ذنوبك وتفيق من غفلتك.

ثم قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾، **وهذه مرتبطة بالتهديد في قوله:** ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، **أي:** فمن استطاع منكم أن يهرب من عقوبتنا وبطشنا يوم القيامة، فليهرب، فالآيات تتحدث عن سياق يوم القيامة، فإن الله إذا أراد أن يُحاسب الخلق يجمعهم في المحشر، وتنزل ملائكة كل سماء وتصف خلف الخلق من الجن والإنس صفًا.

ثم يأتي الله تعالى للفصل بين القضاء، كما قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[الفجر: ٢٢]، **ثم يخاطبهم:** من استطاع منكم أن يهرب الآن من ساحة المحشر، فليهرب، وأنى له ذلك.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾، وهي نعمة جمعهم لتحقيق العدل بينهم.

وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾، ولو حصل أن حاولتم الهروب فسوف ترسل الملائكة عليكم لهب النار شديدة الاشتعال، والنحاس الذائب، فلا يحصل لكم النجاة، ولا الفرار من العذاب في الآخرة[(١)].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾، وهي نعمة إحاطة الله بالخلق حتى لا يهرب الظالم من المظلوم، فإن الناس يبقون بين يدي الله سواسية، ويقوم عليهم حكم الله، فينتصر للمظلوم من ظالمه.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن من النعم التي يتميز بها الإنسان عن باقي الحيوان؛ نعمة النطق.

٢- أن الله أثبت العدل وأمر به، وأقام الكون كله عليه من أجل أن لا يُظلَم أحد فيه.

٣- أن المطلوب من المسلم أن يكون عادلًا في تعامله مع الآخرين، في سائر الحقوق الحسية.

٤- أن الله يحيط بالخلق يوم القيامة، فلا يهرب الظالم من المظلوم، بل يبقون بين يدي الله جميعًا، فينتصر للمظلوم من ظالمه.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٩٨).

تفسير المقطع الثاني من سورة الرحمن

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)
فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعۡرَفُ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنۡ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٤٩) فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ (٥٤) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ (٥٦) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلۡ
جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ
(٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدۡهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا
عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ (٦٨) فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٞ
مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ

﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾، هذه علامة من علامات قيام الساعة، حيث تتشقق وتتمزق السماء حتى تصير في حمرة الورد، وجريان الدهن، أي: تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من شدة حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها[1]، فتغيّر لونها المعروف للناس، وصارت ضعيفة كضعف الوردة، وهي زهرةٌ لطيفة بمجرد أن تتعرض للشمس أو للريح أو لأي شيءٍ من عوامل التعرية تذبل وتضعُف، وأصبحت سائلًا مذابًا كالزيت الذي يُدهن به، وفي هذا إشارة إلى عظمة وشدة هول يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾، والنعمة المشار إليها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر[2].

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾، وفي هذا الوقت أي: عند البعث لا يُسأل أحد من الإنس والجن عن ذنبه، ولكنهم يسألون في موقف الحساب، **جمعًا بينها وبين النصوص التي تثبت السؤال**، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]. أي: أن الأحوال والمواقف تتنوع يوم القيامة، فهناك مواقف يمنع فيها الكلام والسؤال من شدة وهول ذلك الموقف، وهناك مواقف

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ١٧٣).
(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٦٦).

يُسمح فيه بعد ذلك بالسؤال ويجري فيه الاستفهام، وذكر هنا الإنس والجان فقط؛ لأنهما المُكلفان، والسؤال عن التكاليف، لم فعلت، ولم لم تفعل؟!!.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠﴾، **والنعمة المشار إليها** ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر.

وقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾: **أي**: في يوم القيامة تظهر علامات الإجرام على وجوه المجرمين، وهو ما يعلوهم من الحزن والكآبة وسواد الوجه ونحوها، فتعرفهم الملائكة، فتأخذهم بنواصيهم وأقدامهم، **والنواصي**: جمع ناصية وهي مُقدمة شعر الرأس، والأقدام: جمع قدم، وهي أطراف القدمين، فيجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة واحدة، وتسحبهم الملائكة على وجوههم، ثم يُرمَون في جهنم، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾، والنعمة المشار إليها ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر، إضافة إلى أن المؤمنين بعيدون عن هذا الموقف، حيث يتميز عنهم المجرمون ويُؤخذون بطريقة لا تُزعج المؤمنين، وهذه نعمة خاصة بهم!.

وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣﴾، **المخاطب بهذا الكلام هم** المجرمون الذين قُذفوا فيها؛ لأنهم كانوا في الدنيا يُكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار، فهذه جهنم هل ترونها بأعينكم؟!! وقد كنتم تُنكرونها في الدنيا، فهل تستطيعون إنكارها الآن؟! وهو خطاب تبكيت وتأنيب لهم.

وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤)﴾، أي: يترددون بينها وبين الماء الحار، أي: فترة تشتعل أجسادهم بالحريق، وفترة يُصب عليهم الماء شديد الحرارة، وهو بيان لتعدد أنواع العذاب عليهم في النار، ليشمل الألم الحسي والألم النفسي، فإنهم يُحرقون بالنار المشتعلة، فيتمنون الماء ليطفئوا به حريقهم، فيغمسون في ماء شديد الحرارة؛ فيصيبهم من الألم النفسي والحسي ما الله به عليم!!.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾، والنعمة المشار إليها هنا ما في هذا التهديد والتخويف من حسن العاقبة بالإقبال على الخير والإعراض عن الشر.

وبعد أن انتهى من الحديث عن المجرمين وأحوالهم في النار بإيجاز؛ انتقل الحديث إلى بيان جزاء المؤمنين في الآخرة، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾، أي: خاف قيام ربه عليه، وهو إشرافه على أحواله واطلاعه على أفعاله وأقواله[1]، كما قال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[الرعد:٣٣]، فإن من أهم صفات المؤمنين الخوف من الله تعالى في الدنيا، والخوف من الوقوف بين يديه في الآخرة، وفي الحديث: **"من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"**[2]، فمن ترقت نفسُه إلى مقام الخوف والخشية والمراقبة لله سبحانه وتعالى، منحُه الله في الآخرة جنتين،

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٦٨).

(٢) مسند أحمد: (٣٥/ ١٦٦)، برقم: (٢١٢٤٢)، وسنن الترمذي: (٤/ ٢١٤)، برقم: (٢٤٥٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٦٢٢٢).

جنة من ذهب آنيتها وما فيها، وجنة من فضة آنيتُها وما فيها، **وهاتان الجنتان**: هل هما عامتان، أم خاصتان بكل شخص؟ **ممكن هذا** وممكن هذا، **وممكن الأمران معًا**، فهما جنتان جنة من ذهب وجنة من فضة لعموم المؤمنين في الجنة، ويمكن أن يُعطى لكل واحد ممن يدخل الجنة قصرًا وبجواره جنة يمين وجنة شمال، **هذا إذا قلنا** أن المثنى جاء هنا على أصله، **أما إذا قلنا** أن أقل الجمع اثنان، فالمقصود بها جنان، ولمن خاف مقام ربه جنان، وإنما ذكر هنا بالمثنى، من أجل انتظام الفواصل، فإن هذه السورة فواصلها تنتهي بالألف والنون أو الألف والميم.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾، ومن جملتها هذه النعمة العظيمة، وهي إعطاء الخائف من مقام ربه جنتين متصفتين بالصفات الجليلة العظيمة.

وقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾، هذا وصفٌ للجنتين، **أي**: صاحبتا أغصان، والمقصود بالغصن هنا الذي فيه الأوراق والثمار، وفي كل غصن أنواع من الفاكهة، **وقيل**: ذواتا فضل وسعة على ما سواهما[1].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾، **والنعمة هنا** واضحة.

وقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾، **أي**: **في كل واحدة منهما عين جارية**، **إحداهما** السلسبيل، **والأخرى** التسنيم.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾، **والنعمة هنا** واضحة.

وقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾، **أي**: في الجنتين، من كل نوع من

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٦٩).

الفاكهة صنفان متفقان في الاسم ومختلفان في المذاق والوصف.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾، **الاتكاء** هو جلسة الإنسان الآمن المسرور الذي لا يوجد ما يشغله ولا ما يفزعه، وهو غالبًا جلسة بين الرقود والقعود، **أي:** يجلس مائلاً بأحد شقيه إلى شيءٍ يسنده، ومنه جلسة التربع[1]، ولا يجلسها إلا الشخص المطمئن، أما الخائف فيجلس مستوفزاً مستعداً للهروب، **والمعنى:** أن أهل الجنة يجلسون متكئين على فُرش، وهي جمع فراش.

والبطائن: جمع بطانة، وهي ما يلي الأرض، **والإستبرق:** ما غلظ من الديباج[2]، وإذا كانت البطائن من إستبرق، فكيف تكون الظهائر؟!

ومن عادة العرب والبشرية عمومًا أن تجعل ظاهر الفرش هو الأجمل والأحسن منظراً.

وهذه الفُرُش لا بد أن تكون على الأسرّة، كما قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[الواقعة: ١٥]، فهم متكئون على الفُرُش الجميلة الوثيرة، والأشجار المثمرة قريبة منهم، فيقطفون منها الثمرة دون الحاجة إلى القيام من متكئهم.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: (ص: ٥٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١٨٧).

وقولـــــه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٥٦﴾، أي: في الجنات أو في القصور توجد الزوجات الجميلات الحسناوات اللاتي يقصُرن نظرهن على أزواجهن، ولا ينظرن إلى غيره، وهو دليل على العفة، ووصفهن بأنه لم يسبق أن نكحهن أحد من قبل، لا من الإنس ولا من الجن، وهذا دليل على أنهن من الحور العين، وأنهن أُنشئن في الجنة، فإن نساء الدنيا من الإنس والجن قد سبق للكثير منهن الزواج، وهذا يدل أيضًا أن الجن يدخلون الجنة كالإنس، وأنه ليس كل الجن شياطين، فالشياطين هم بعض من الجن الذين ابتعدوا عن الخير وكفروا بالله وازداد شرهم، فهؤلاء من أهل النار، كحال كفار وشياطين الإنس.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٧﴾، النعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨﴾، هذا وصف لنساء الجنة من الحور العين، فهن يشبهن الياقوت في الجمال والمرجان في الصفاء.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩﴾، النعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾، سؤال تقريري، ومعناه: أن الإحسان يُقابَل بالإحسان.

وفي الآية لفظان للإحسان، فالإحسان الأول، بمعنى: العمل الحسن في الدنيا، والإحسان الثاني، بمعنى: الجزاء الحسن في الآخرة.

والمعنى: أن من أحسن العمل في الدنيا، أحسن الله له الجزاء في الآخرة،

وهو أن يدخله الله الجنات ويمنحه ما فيها من نعيم مقيم، **وهاتان الجنتان جزاء الفريق الأول من أهل الجنة**، وهم السابقون المذكورة قصتهم في سورة الواقعة، **كما قال:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة:١٠-١١].

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾، **والنعمة واضحة هنا** في عطاء الله وفضله لأهل الجنة.

ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾، **دون: هنا لها معنيان عند أهل التفسير**[١]، **المعنى الأول:** بمعنى أقل، **والمعنى:** أن أصحاب الجنتين السابقتين، هم السابقون، وهم أعلى رتبة ممن بعدهم، وأن هاتين الجنتين لأصحاب اليمين الذين هم بعدهم في الرتبة.

والمعنى الثاني: أن دون بمعنى غير، **أي:** ولمن خاف مقام ربه جنتان غيرهما، فيكون لكل مؤمن أربع جنات، والقول الأول أرجح؛ وهو قول أكثر المفسرين[٢].

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣﴾، **والنعمة هنا** واضحة.

وقوله: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾، **أي:** خضراوان من الريّ، ومن شدة الخضرة فيهما تحولت إلى السواد[٣]، **وفيه إشارة** إلى كثافة الأشجار حتى مال لونها إلى

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٧/ ٢٧١).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ١٩٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٧١).

السواد من كثرة أشجارها، وكثرة الأشجار في الجنة جيد، ولكن اعتدال عددها أجود، ومظهرها سيكون أجمل، وهذا يدل على أن رتبة هاتين الجنتين أدنى من اللتين قبلهما.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾، أي: في كل جنة منهما عين يفور منها الماء، ولكنه لا يجري.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾، أي: في هاتين الجنتين عموم الفاكهة، ثم خص النخل والرمان بالذكر؛ لمزيد حسنهما وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه[1]، واعتناء العرب بهما أكثر من غيرهما من أنواع الفواكه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾، خيراتٌ جمعُ خيرَة، وهي المرأة حسنة الأخلاق وحسنة المنظر والشكل والقوام، أي: اجتمع فيها جمال الخلق والخُلُق.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾، حور بدل من خيرات، **وما الفرق بين قوله (قاصرات الطرف)، في وصف الحور في الجنتين السابقتين، وقوله هنا: (حورٌ**

---

(١) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٣٣٢).

مقصورات)؟ الفرق: أن معنى قاصرات، أي: قصرن أنفسهن، ومعنى مقصورات، أي: قصرهن غيرُهن، فقدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة[١].

والخيام جمع خيمة، وهي الخباء الذي ينصب بجوار قصور الجنة، وفي الحديث: **"إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون"**[٢].

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾، والنعمة هنا واضحة.

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾، سبق تفسرها.

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾، نُصبت متكئين على الحال، والاتكاء سبق بيانُه، والرفرف هي الوسائد، وخُضر وصف للونها، وقيل: إن الوسائد مطروحة على رياض خضراء، ووُصفت الوسائد بعبقري لجمالها، قيل: إن عبقري، اسم موضع من أرض الجن عند العرب، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجَّبوا من حِذقه أو جودة صنعته وقوته[٣]، وفي الحديث: **"فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه فنزع حتى ضرب الناس بعطن"**، والعطن: مبرك الإبل، أي: رويت الإبل فأناخت[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي: (٢٩/ ٣٧٦).

(٢) صحيح البخاري: (٦/ ١٤٥)، برقم: (٤٨٧٩).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (٢/ ٧٣٤).

(٤) صحيح البخاري: (٥/ ٩)، برقم: (٣٦٧٦).

فوصف النبي ﷺ، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في إدارته لشؤون الخلافة بالعبقري، لجودة أدائه، ثم صار هذا اللفظ يطلق على الشخص الذكي، فيقال: فلان عبقري لذكائه وفطنته.

ثم ختم الله السورة، بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٧٨﴾، فما سبق ذكره من نعم عظيمة في هذه السورة، فالفضل فيها إلى الله وحده.

ومعنى تبارك، أي: تعاظَم وكثُر خيره، ولفظ تبارك لا يُطلق إلا على الله سبحانه، ولا يُطلق على غيره، فهو ذو العظَمة والإحسان والتفضل على خلقه، وهو الذي يُكرِم أولياءه ولا يُهينهم، ويُكرَم سبحانه فلا يقال فيه ما لا يليق به.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- بيان علامات الساعة الكبرى، ومنها تشقق السماء وضعفها.

٢- تنوّع عذاب الكفار في جهنم وتعدده.

٣- فضيلة وأهمية الخوف من الله سبحانه وتعالى ومراقبته في السر والعلن، وأن جزاء ذلك يوم القيامة دخول الجنات التي فيها النعيم المقيم.

٤- مدحُ نساء أهل الجنة بالعفة والحشمة، لتقتدي بهن نساء الدنيا.

٥- الجزاء من جنس العمل، سواء كان ذلك في الخير أو في الشر.

تفسير سورة الواقعة

تفسير المقطع الأول من سورة الواقعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ
رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧
فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩
وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣
وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ
وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩
وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ
٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦
وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠
وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ
أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾.

شخصية السورة:

سورة الواقعة: سورة مكية[١]، نزلت قبل الهجرة، **والمقصد العام لهذه السورة،** هو بيان أحوال يوم القيامة وانقسام الخلق فيها ثلاثة أصناف: صنفان من أهل الجنة، وصنفٌ من أهل النار.

ابتدأت بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١﴾، **إذا:** ظرف زمان، تشبه حروف الشرط، وقعت، **أي:** قامت القيامة، وتاء التأنيث ساكنة وكُسرتْ لالتقاء الساكنين، وجوابُ الشرط محذوف للتعظيم والتهويل لأهوالها، دل عليه ما بعده، وتقديره إذا وقعت بانت أحوال الناس فيها.

ثم قال سبحانه: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢﴾، **أي:** لا يوجد دافع ولا مانع يمنع من قيام الساعة، **أي:** أنها تقع صدقًا وحقًا[٢]، ولا يوجد نفسٌ تُكذب بها بعد وقوعها كما كانت تُكذب بها في الدنيا[٣].

ثم قال في وصف يوم القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ٣﴾، **أي:** تخفضُ أقوامًا ارتفعوا في الدنيا، وترفع أقوامًا انخفضوا في الدنيا[٤]، **فالكافر يوم القيامة** وضيع محتقر يلقى في النار، **والمؤمن يوم القيامة** مرفوعٌ شأنُه، يدخل الجنة، **وفي الحديث:** "**يحشر المتكبرون يوم القيامة، أمثال الذر، في صور الناس، يعلوهم**

---

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٥١٢).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: ٢٢٨١).

(٣) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم: (١/ ٥٣٤).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٥١٤).

كل شيء من الصغار"[(١)]، وهذه صورة من صور خفض المرتفعين في الدنيا، بتكبرهم، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة والعز والإهانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه[(٢)].

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾، **أي:** حركت حركة شديدة وزلزلت، **مثل قوله:** ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾[الزلزلة: ١]، وأكد الفعل بالمصدر لإثبات حقيقة الفعل.

وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾، **أي:** قُطعت ومُزقت وفُتّت تفتيتًا، حتى صارت كالدقيق والسويق المبسوس.

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾، **أي:** صارت كذرات الغبار المنتشر في الهواء.

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾، **أي:** فيُحشر الناس يوم القيامة وينقسمون إلى أصناف ثلاثة، ثم بدأ ببيان هذه الأصناف، فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، هذا الصنف الأول من الناس.

وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾، التكرار للجملة إشارة إلى تعظيم أمرهم، وما: هي التعجبية التي تجعل السامع يُفكر ويتعجب من شأن هؤلاء

(١) مسند أحمد: (١١/ ٢٦٠)، برقم: (٦٦٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد: (ص: ١٩٦)، برقم: (٥٥٧)، وإسناده حسن.

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٧٧).

المذكورين، وهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، ويأخذون كُتبهم بأيمانهم[1].

ثم قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾، نفس ما قيل في تعظيم وتهويل حال الأوائل، هناك عُظم حال أصحاب الجنة بجزائهم وعطائهم وأجرهم، وهنا عُظم حال أصحاب النار بعذابهم وسعيرهم ونكالهم، فالتعظيم للفريقين، لكن شتان بين تعظيم الخير وتعظيم الشر، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم، وهم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾، **هذا الصنف الثالث**، وكرر اللفظ للتعظيم، **والمعنى**: والسابقون في الدنيا إلى الطاعات والعبادات، هم السابقون في الآخرة إلى درجات الجنة، فهنا سبْق عمل، وهناك سبق عطاء وجزاء من الله سبحانه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾، فهم مقربون من الله لمكانتهم ومنزلتهم عنده، ومكانهم في الفردوس الأعلى من الجنة وسقفها عرش الرحمن، ويتنعمون بأصناف النعيم في درجات الجنة.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾، **هذا وصف للصنف الثالث وهم السابقون**، ثم بدأ في بيان جزاء الأصناف الثلاثة على طريقة النشر بعد اللف، وهو أسلوب من أساليب البلاغة، حيث بدأ بالذكر الإجمالي بأصحاب اليمين ثم أصحاب الشمال ثم السابقين، فلما أراد تفصيل حالهم بدأ

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلام: (٧/ ٥١٥).

بآخرهم ذكراً، وهم السابقون، ونصيب جنات النعيم منهم جماعة كبيرة من الأولين وجماعة قليلة من الآخرين، وقد اختلف المفسرون في المقصود بالأولين والآخرين على أقوال متعددة(١).

والراجح: أن المقصود بالأولين هم القرون الأولى من كل أمة، وبالمتأخرين هم القرون المتأخرة من كل أمة، فيشمل ذلك جميع الرسل وأتباعهم؛ لأن النصوص الشرعية أثبتت أن القرون الأولى من كل أمة هم خيار الأمة، **كما في الحديث**: **"خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"**(٢)، وهذا الترجيح يتوافق مع الأحاديث التي جاءت في فضل أمة محمد ﷺ، وأنهم أكثر أهل الجنة، **ومنها حديث**: **"إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة"**(٣)، **وما ذكره بعض المفسرين**(٤): من أن ثلة من الأولين المقصود بها من الأمم السابقة، وأن القلة من الآخرين، **المقصود بها** من أمة محمد ﷺ فيه هضم لأمة محمد ﷺ، وفيه مخالفة للنصوص الواردة في أن أكثر أهل الجنة من أمة محمد ﷺ، **وفي الآية إشارة إلى** فضل من صاحب النبي وعاش معه وجاهد معه فلهم أفضلية على من بعدهم.

ثم وصف حالهم في الجنة، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٢٠).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ١٧١)، برقم: (٢٦٥٢)، وصحيح مسلم: (٤/ ١٩٦٣)، برقم: (٢٥٣٣).

(٣) صحيح البخاري: (٦/ ٩٧)، برقم: (٤٧٤١)، وصحيح مسلم: (١/ ٢٠٠)، برقم: (٢٢١).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٠٠).

مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾، السرر جمع سرير، وهو كرسي مرتفع طويل متسع يجلس عليه المتكئ والمضطجع، وموضونة، أي: منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد[1]، ومُتناسقة ومرتبة وجميلة المظهر، وأهل الجنة يجلسون عليها جلسة المتكئ، التي تدل على أمانهم وراحتهم وسعادتهم، ويُقابل بعضُهم بعضًا في المجلس، وهذا يدل على سعة المكان، والأخوة والحب بينهم، فقد نزع الله من قلوبهم الغِل، كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

ثم قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾، الطواف: المشي المكرر حول شيء، وهو يقتضي الملازمة للشيء[2]، ومعناه هنا كثرة التردد عليهم من الغلمان الصغار الذين خلقهم الله في الجنة فلا يهرمون ولا يموتون، لسقيهم الخمر بأنواع من الأواني المخصصة للشراب، وذكر منها: الأكواب والأباريق والكؤوس المليئة بالخمر، ووصفت الخمر بالمعين؛ لكثرتها وأنها تجري كما يجري الماء، فليست قليلة كما كانت في الدنيا، بل هي أنهار، كما قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد:١٥]، ثم وصف الخمر التي يشربها أهل الجنة بأنها ليست كخمر الدنيا التي كانت تصيب من شربها بالصداع ووجع الرأس، واختلاط العقل، بل يشربونها على سبيل التلذذ بها، ولا يُصيبُهم شيءٌ من آثار خمر الدنيا.

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٢٢١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٧/ ٢٩٣).

وقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة من ثمار الجنة من الجنس الذي يختارونه ويشتهونه، ويطوفون عليهم أيضاً بلحم طير، هو أرفع أنواع اللحوم وأشهاها وأطيبها، فكيف بلحم طير نشأ في الجنة وترعرع فيها؟، فلا تسأل عن لذة طعمه ونعومة لحمه!!.

وفي الفاكهة، قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، أي: تنظر في أنواعها وتختار ما تريده نفسك منها؛ لكثرة تعدد أصنافها.

وفي اللحم، قال: ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾، أي: أن ما تتمناه النفس وترغب فيه قبل أن تراه يأتي إليها؛ لأن الاشتهاء متعلق بالطعام أكثر من تعلقه بالفواكه، وكل ذلك لبيان كثرة نعم الله تعالى لأهل الجنة، نسأل الله من فضله.

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾﴾، حور، خبر لمبتدأ محذوف، أي: وعندهم حورٌ عين، وهن نساء خلقهن الله في الجنة لأهل الجنة، ووصفن بالحُور، أي: بيض، وعِين، أي: واسعات الأعين، وحتى يحصل للناس تصور جمالهن؛ مثّلهن بالدر المخزون المخبأ في صدفه لنفاسته، ولم تُغير شكله ولا لونه شمس ولا ريح ولا غبار، وفي هذا إشارة إلى جمالهن وعفتهن.

وقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾، أي: ما سبق ذكره من نعيم للسابقين في الجنة هو ثواب من الله سبحانه لهم بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يعملونها في الدنيا، ثم وصف

حالهم في الجنة وهم يتنعمون بهذه النعم العظيمة الحسية بأنهم أيضاً في نعمة روحية، فنفوسهم في سلامة من سماع ما لا يُحب سماعه، من اللغو والإثم، ومشغولة بسماع المحبوب لهم، فاللغو، هو: الكلام الذي لا فائدة منه، والتأثيم، هو: اللوم والإنكار على الكلام الذي فيه إثم، مثل السب والشتم واللعن وغيرها من الألفاظ.

و﴿إِلَّا﴾، هنا بمعنى لكن، والاستثناء مُنقطع؛ لأن السلام ليس من اللغو ولا من الإثم، والمعنى: لكن يسمعون في الجنة قول السلام، وهو سلام الملائكة عليهم، كما قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[الرعد:٢٣-٢٤]، أو تسليم بعضُهم على بعض في الجنة.

وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾، انتقل الحديث عن الصنف الثاني من أهل الجنة، وهم أصحاب اليمين، وبدأ بذكر حالهم قبل أصحاب الشمال لمجاورتهم في المكان للسابقين، وكرر العبارة لتعظيم شأنهم، ثم بيّن بعض ما لهم في الجنة، فقال: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾، أي: يكون في الجنة وحولهم شجرة السدر، وهي معروفة ومرغوبٌ بها عند العرب خاصة، وفيها أشواك تنغص من استخدامه، فنفى ذلك عن سدر الجنة، فجعله لا شوك فيه، وحولهم شجر الطلح، وفيه قولان للمفسرين[1]، قيل: هو الطلح المعروف، ويكون منضوداً أي: المتراص المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة، وليس فيه شوك، وقيل: هو الموز، وهو من أسمائه،

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٢٣).

والمقصود به هنا ثمرته، وظهورها مُرتبة ومصفوف بعضها جوار بعض يزيد من جمالها، والظل الممدود هو الذي لا ينقطع كظل الدنيا، فالجنة مُنارة بنور خلقه الله فيها، وأشجار الجنة وارفة الظلال، **وفي الحديث**: **"إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة"**[١]، والمقصود اعتدال جو الجنة.

وقولـــه: ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٍ وَلَا مَمۡنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾، **الماء المسكوب هو** النهر الجاري المستمر في الجنة الذي لا ينقطع[٢]، ويدخل فيه ما يُسكب بالأقداح ويوزع من قِبل الولدان المخلدون لأهل الجنة، والفاكهة كثيرة ومتنوعة ومستمرة لا تنقطع ولا تنتهي، ولا يوجد مانع من أكلها، ولهم في الجنة فرش على أسرة مرتفعة، يجلسون وينامون عليها.

ثـــم قـــال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾، لم يذكر اسماً من قبل حتى يعود عليه الضمير، ولكن السياق يدل على المراد منه، فالفرش لا تكتمل السعادة عليه إلا مع زوجة، والإنشاء هو الخلق والإيجاد والإعادة، فيشمل الحور العين اللاتي خلقهن الله في الجنة، ويشمل نساء الدنيا وإعادتهن بخلق جديد، وفائدة التوكيد بالمصدر بيان الحقيقة.

وجعل من خصائص نساء الجنة: أنه كلما جامعها زوجها عادت بكرًا مرةً أخرى. **والعُرب**: جمع عروب بفتح العين، وهي المرأة المتحببة إلى الرجل،

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١١٩)، برقم: (٣٢٥٢)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٧٥)، برقم: (٢٨٢٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٥٢٩).

والأتراب: المتساويات في السن، فهن جميعًا في سن الشباب، ومحاسنهن غير متفاوتة، لإبعاد سبب الشحناء بينهن أو سبب الميل من الرجل لهذه دون هذه، فهن على وصف واحد في الجمال والعمر والوصف والتحبب والتجمل للزوج، واللام للاختصاص، **أي**: كل ما سبق من نعمٍ خصص لأصحاب اليمين، وهم الصنف الثاني من أهل الجنة.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، **أي**: أن عدد أصحاب اليمين في الجنة من الرعيل الأول من القرون الأولى من كل أمة متساوٍ مع من أتى بعدهم من القرون المتأخرة، بخلاف السابقين المقربين، فأكثرهم يكونون من الرعيل الأول من كل أمة.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- بيان فضل من صاحب الأنبياء وجاهد معهم، وعظمة منزلتهم في الدنيا والآخرة.

٢- العمل الصالح سببٌ لدخول الجنة.

٣- تعدد وتنوع نعم أهل الجنة، ففيها ما تشتهيه الأنفسُ وتلذ الأعين.

٤- تفاوت درجات أهل الجنة بتفاوت أعمالهم.

٥- إبعاد أسباب الشحناء في الجنة، بتساوي نساء أهل الجنة في الوصف والصفات.

تفسير المقطع الثاني من سورة الواقعة

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾
وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾
قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾
فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا
تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ
﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ
حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ
﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾
أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا
تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾، **هذا هو الصنف الثالث من أصناف الناس يوم**

القيامة، وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم، وهم أهل النار، وكرر العبارة للتعجب من حالهم، أي: ما هو جزاؤُهم وما عاقبتُهم وإلى أين مصيرُهم؟!.

والسَّموم هو الريح شديدة الحرارة التي تدخل إلى مسام البدن[١]، وهي الفتحات التي تكون في الجلد.

والحميم هو الماء الحار شديد الحرارة، وفي ذلك إشارة إلى تنوع عذابهم، فأحيانًا يُعذبون بالهواء الحار، وأحيانًا يُعذبون بالماء الحار.

وذكر الظل هنا من باب المقابلة، فقد سبق بيان أن أهل اليمين في ظلٍ ممدود، وسماه ظلًا، من باب التقريع والتوبيخ لهم، أو بناءً على ظنهم، وهو دخانٌ كثيف شديد السواد[٢]، شديد الحرارة، يخرج من النار فيتراكم فوق رؤوس أهل النار، وعند اشتداد حرارتُهم في النار، يبحثون عن مكان يهربون إليه، فيرون هذا الدخان الذي يظنونه ظلاً، فإذا به أشد حرارة مما كانوا فيه، ووصفه هنا بعدم البرودة؛ لأن الظِل في العادة يكون أبرد من المكان المشمس، ونفى عنه حسن المنظر والرائحة الطيبة، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم[٣]؛ لأنه دخان ناتج عن احتراق أهل النار، فلم يجدوا فيه راحة حسية ولا راحة معنوية.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، بيّن سبحانه سبب هذا العذاب الذين جازاهم الله به، بأنهم كانوا في الدنيا يعيشون

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٨٤).

(٢) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٢٣٨).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٨٥).

حياة المُنعَّمين الذين لا همّ لهم إلا بطونهم وفروجهم، وكانوا يكفرون بالله سبحانه، ويستخدمون نعمه في معصيته، فالتمتع بالنعمة بالحلال واستخدامها في طاعة الله ليس ممنوعاً ولا سبباً للعذاب، ولكن هؤلاء استخدموا نعم الله في المعاصي وألهتهم عن طاعة الله، مع إصراراهم واستمرارهم على الذنب العظيم، وهو الشرك بالله وما يصاحبه من كبائر المعاصي.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾، وكانوا ينكرون البعث والنشور في الدنيا، فيقول بعضهم لبعض: هل يعقل أن نموت وتتحول لحومُنا إلى تراب، ويذهب اللحم والعصب من أجسادنا ويبقى منا العظم البالي في القبور ثم نبعث بعد ذلك؟! كانوا يستغربون أن يُقال لهم أنهم سيُبعثون بعد أن يُصبحوا ترابًا في قبورهم، وكذلك هل يبعث آباؤنا الأولون وهم من سبقونا إلى القبور قبل مدة؟!، **فجاءهم الجواب من الله تعالى، بقوله:** ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾، قل لهم يا محمد: نعم سيبعث الله الأولين والآخرين مُنذ آدم إلى قيام الساعة ويحشرُهم إلى اليوم الذي يعلم وقته الله سبحانه، وهو يوم القيامة.

ثم أخبر عن حالهم بعد البعث، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾، وصفهم بضلالهم عن الحق وعدم معرفة الهدى، وبجحودهم للحق وعدم الامتثال له، والضلال سبب للتكذيب وثمرة له، فإذا أُلقوا في النار جزاءً لضلالهم وتكذيبهم كان طعامُهم فيها ثمرة شجرة الزقوم، وهو شر الثمار

وأخبثُها، **كما قال الله عنها:** ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾[الصافات: ٦٤-٦٥]، **أي:** من شدة قُبح صورتها، فما بالك بقبح الطعم والرائحة؟!!، **ويُرغَمون على الأكل منها** حتى تمتلئ بطونهم؛ ليزداد أثرها عليهم، فإنه كلما أكثر الإنسان الأكل من شيء خبيث؛ كلما كان ألمُه منه كثيرًا، وهذا هو السر في التعبير بامتلاء بطونهم من هذه الشجرة الخبيثة، بل إن الإكثار من أكل الشيء الطيب يتعب صاحبه، **فكيف بالشيء الخبيث السام؟!**.

ثم بعد ذلك يُصابون بالعطش الشديد، فيبحثون عن الماء البارد لإذهاب ظمأهم، فيستغيثون بطلبه، **كما قال:** ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[الكهف: ٢٩]، **أي:** يشوي بخار ذلك الماء الحار وجوه من أراد أن يشرب منه، فيشربون منه على ذلك الطعام الذي ملأ بطونهم من شجرة الزقوم كما تشرب **الهيم، وهي** الإبل العِطاش المصابة بمرض الهيم(١)، وهو مرض يُصيب أمعاء الإبل بالحرارة فتبحث عما يُبردها من الماء فتظل تشرب من الماء حتى تموت.

وقوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾، **أي:** شجرة الزقوم والشراب الحار هذا أول ما يقدم لهم في النار، **والنُزُل هو:** أول ما يُقدم للضيف عند دخوله، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾، الخطاب للمشركين المنكرين للبعث، حيث جادلهم بمجموعة من الأدلة والحجج والبراهين العقلية، **تدل على أن الله قادر على بعثهم، ومنها:** دليل الخلق لهم، فلا أحد منهم ينكر ذلك،

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٤٧).

والمعنى: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكوراً، أليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة؟!! وهم مقرون بقدرة الله على الخلق، ألا يكفي هذا دليل لكم للتصديق بالبعث والنشور كما صدقتم بالخلْق؟!!.

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾، وهذا هو المثال الأول لبيان قدرة الله في الخلق والإيجاد، أعلمتم كيف يخلق الله الخلق من نطفة المني التي تخرج من الذكر إلى رحم المرأة، ثم يتخلق الجنين من هذه النطفة بعد أن تطعم بويضة المرأة به؟!.

فإن الإنسان لا يدري كيف يتخلّق ولدُه في بطن أمه، وكل ما يفعله الزوج هو أن يقذف المني في رحم زوجته وينتظر الحمل والولادة له، والله هو الذي يخلق الأجنة في الأرحام.

ويتضح لكم اليوم من حال من يُصابون بمرض العقم، فإنهم يلفّون العالم بحثًا عن الدواء، وقد يجرون عمليات ما يُسمى: بـ(طفل الأنابيب)، بآلاف الدولارات، وقد تنجح وقد تفشل، فلفت الله انتباه الخلق بهذه الآية إلى قدرته العظيمة في خلق الأجنة!.

ثم قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾، **والتقدير معناه**: أن كل شخص يموت في موعده المحدد له في اللوح المحفوظ، **فمنكم** من يموت كبيرًا، **ومنكم** من يموت صغيرًا، **ومنكم** من يموت شابًا، **ومنكم** من يموت شيخًا[١]،

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٨٨).

وقدرتنا على الخلق والإيجاد تدل على قدرتنا على الإماتة، وما نحن بمغلوبين، لأن الأصل في السبق أن السابق يغلب المسبوق، فلا يغلبنا أحد ولا يمنعنا أحد من أن نُبدلكم بغيركم من بني آدم، ولو نشاء لمسخناكم في صور غير صوركم، وما نحن بمسبوقين على أن ننشئكم في وقت لا تعلمونه، وهو وقت البعث، ولقد علمتم ابتداء الخلق حين خُلق من نطفة ثم علقة ثم مضغة، فلِمَ تنكرون البعث؟!!

ألا يكفي هذا العلم للاتعاظ، والإيمان بأن الله قادر على بعثكم ونشركم وإعادة خلقكم من جديد؟! بلى.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وهذا هو المثال الثاني، لبيان قدرة الله في الخلق والإيجاد، هل علمتم كيف ينبت الزرع؟، والحرث هو شق الأرض وإلقاء البذرة فيها وتغطيتها بالتراب، وهذا هو عمل المزارع، أما ما يجري للبذرة بعد وضعها في التراب وتغطيتها فلا تدرون عنه شيئًا، فالزارع الحقيقي هو الله، فهو الذي يُنبتُه ويرعاه حتى يثمر وتحصدون ثمرته، وهو القادر على إهلاكه، وكان بالإمكان أن يقول: لو نشاء لما أنبتناه، لكن الله سبحانه أراد أن يبيّن لنا قدرته على الإيجاد ثم قدرته على الإهلاك، وذكر التحطيم للزرع عند بدو ثمرته؛ لأنها أشد حسرة وندمًا على المزارع من عدم نباته أو هلاكه قبل أن يثمر، ولو حصل ذلك للزرع؛ لبقي المزارع حزينًا نادمًا على ثمرة زرعه التي هلكت، وهو ينتظر حصادها، فالتفكّه من ألفاظ الأضداد، فيأتي بمعنى الفرح،

ويأتي بمعنى الندم[١]، والسياق هو الذي يحدد معناه، **وقيل**: معناه محاولة الفرح وإدخال السرور على أنفسكم في وقت المصيبة لعل ذلك يُخفف عنكم؛ لأن السكوت والصمت المُطبِق قد يُؤدي إلى زيادة الحزن!!، **ويقول بعضكم لبعض**: لقد خسرنا بذهاب هذا الزرع، وحرمنا الله ثمرته؛ وهو تقريب لوصف حالهم الحزين بعد ذهاب ثمرة الزرع الذي كانوا ينتظرون حصاده.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾، **وهذا هو المثال الثالث**، لبيان قدرة الله على الخلق والإيجاد، **والمقصود به هنا** الماء العذب، فهو الذي يُشرب.

والمُزْن، هي: السحب، **أي**: أعلمتم كيف يتكوّن ماء المطر الذي ينزل من السحاب، ويسلكه الله في الأرض، ويخرج منه بعد ذلك الينابيع والأنهار، وهي نعم تُشاهدونها بأعينكم وتدلكم على قدرة الله تعالى.

وقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾، وهذه أيضًا مثل التي قبلها، **وكان بالإمكان أن يقول**: لو نشاء لجعلناه غائرًا أو معدومًا، **كما قال**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[الملك:٣٠]، ولكنه عبّر هنا بجعله أُجاجًا، **أي**: شديد الملوحة[٢]، لأن وجود الماء مع صعوبة تذوقه وشربه، أشد حسرة وندامة لدى الشخص من عدم وجوده أصلاً، فهلّا شكرتم الله على هذه النعمة.

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾، **وهذا هو المثال الرابع** لبيان قدرة الله على الخلق والإيجاد، أعلمتم بهذه النار

(١) ينظر: مختار الصحاح: (ص: ٢٤٢).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: ٢٣٠١).

التي توقدونها وتُشعلونها، هل أنتم من خلق الشجرة التي بها تشعلون النار؟، فقد كان العرب يبحثون عنها في الصحراء ويستخدمونها قبل أن يُكتشف الكبريت، **وهما شجرتان من أشجار البادية** وكانت معروفة عند العرب، **أحدهما تسمى** المَرْخ، **والأُخرى تُسمى** العَفار، يُؤخذ غصن من أحدها **وغصن من** الأخرى ويُدَق أحدُهما بالآخر؛ فتنقدح منهما النار[١]، مع أنهما أخضران ومليئان بالماء، **والمعروف** أن النار تطفأ بالماء، فسبحان الخالق العظيم! الذي أوجد هذه الشجرة العجيبة.

وقوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾، **أي**: جعلنا نار الدنيا تُذكركم بنار الآخرة، **كما في الحديث**: **"ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم"**[٢]، فاحذروا أن تقعوا فيما يُغضب الله؛ فتقعوا في نار الآخرة.

والفائدة الثانية لكم من هذه النار: أن جعلها متاعاً يستمتع بها ويستفيد منها المقوون، وهم المسافرون الذين ينزلون **القواء** وهي القفار، أو الذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام[٣]، فيحتاجون إلى النار يستضيئون بها وتدلهم على الطريق، ويستخدمونها في طبخ طعامهم وإنضاجه.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٧٤﴾، **أي**: نزّه الله جل وعلا عما يقوله فيه المشركون والكافرون، وعظم اسمه، **والباء** للمصاحَبَة، **أي**: اصطحب تسبيحك

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة: (٢/ ٣٥١).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١٢١)، برقم: (٣٢٦٥).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٤٦٧).

بذكر اسم الله معه، وهذا يُخرج التسبيح والتعظيم القلبي، فإن الذكر من أعمال اللسان، **ولما نزلت هذه الآية، قال** ﷺ: **"اجعلوها في ركوعكم"، ولما نزل قوله:** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[الأعلى:١] **قال: "اجعلوها في سجودكم"**[(١)].

والعظيم والأعلى: من أسماء الله الحسنى، **فالركوع معناه** التذلل، فكلما تذلل العبد تذكر عظمة الله سبحانه، **والسجود** أكثر نزولاً وهبوطاً وتذللاً من الركوع، فكلما نزل العبد في السجود تذكر علوّ الله.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الترف والتنعم من أسباب الوقوع في المعاصي، فالمُترَفون غالباً هم أكثر من يعصي الله سبحانه.

٢- خطر الإصرار على الذنب، فلا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

٣- القدرة على الخلق الأول دلالة ظاهرة على البعث.

٤- ضرب الأمثلة من وسائل الإقناع، وكلها تقتضي التأمل والتفكر في قدرة الله وعظمته.

---

(١) سنن الدارمي: (٢/ ٨٢٥)، برقم: (١٣٤٤)، وإسناده صحيح.

تفسير المقطع الثالث من سورة الواقعة

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ
لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا
بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾
فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾
فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، **الفاء** عاطفة، **ولا**: صلة عند جمهور المفسرين، وتفيد التوكيد، **وقيل**: إنها لام التوكيد ولكن أُشبِعت الحركة فيها حتى صارت ألفًا، **وقيل**: إنها لا النافية التي تنفي ما قبلها وتُثبت ما بعدها[(١)]، **والقول الأول هو الراجح**.

وأُقسِم هو فعل القَسَم، وغالبًا ما يُحذف ويُؤتى بأداته، **والمُقسَم به هو**

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ١٩٢).

مواقع النجوم، **وفي معناها قولان للمفسرين**(١):

الأول: أن المقصود بمواقع النجوم **أي**: أماكن هذه النجوم السيّارة التي خلقها الله في المجموعة الشمسية، وقد جاء العلم الحديث واكتشف هذه المواقع العظيمة وأنها كبيرة وعظيمة جداً، فأقسم الله بأماكنها.

والقول الثاني: أن المقصود بمواقع النجوم تنزيلات القرآن على نجومٍ متفرقة حيث استمر ينزل على النبي ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة، من بداية البِعثة حتى توفاه الله، ورجح هذا بعض المفسرين(٢)، ورجح بعضهم الأول(٣)؛ لأن الله سبحانه وتعالى خاطب العرب بالمعهود لديهم، فإذا ذُكر النجم فالمقصود به النجم المعروف.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾، **أي**: القسَم الذي أقسم الله سبحانه وتعالى به عظيم، **سواء قلنا**: إنه مواقع النجوم في المجرات، وتنوعها وكِبرها وعِظمها، أو نزول القرآن منجماً على رسوله ﷺ، فكلاهما عظيم، ولو تعلمون عظمته لانتفعتم بذلك؛ ولكنكم لا تدركون ذلك، فحصل منكم التكذيب به، وهي جملة اعتراضية تصف حال المكذبين بالقرآن عند نزوله ومن شابههم في موقفهم ممن أتى بعدهم.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٥٤٤).

(٢) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٧/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٤٨)، وتفسير السعدي: (ص: ٨٣٦).

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾، **هذا جواب القسم السابق**، فالقرآن كلام الله، كرّمه الله وأعزّه؛ لأنه كلامه، ولما فيه من المنافع العظيمة للناس، فإن الله يُكرم حامله وقارئه وحافظه، والعامل به، **وفي الحديث**: **"إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين"**[1]، فمن حمل القرآن وحفظه وعمل به صار كريمًا على الله في الدنيا والآخرة، وسُمي كلام الله قرآنًا؛ لأنه يُقرأ ويُتلى على الناس.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾، **أي**: في كتاب مَصون، ومخفى عن أعين الناس، والمقصود به اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾، **أي**: لا يمس اللوح المحفوظ، أو الصحف التي تكتب منه إلا الملائكة المُطهرون من الذنب والمعصية لله، **كما قال**: ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾[عبس: ١٤-١٦]، **وإن قيل**: إن المقصود به القرآن الذي تلاه النبي ﷺ على أصحابه وكُتب في صحائفهم المُعظمة؛ **فالمطهرون**: هم المسلمون الذين تطهروا من الحدث، فمن كان محدِثًا حدثًا أكبر أو أصغر فلا يمس القرآن، ومن باب أولى لا يمسه الكافر المشرك؛ لأن المشرك نجس نجاسة معنوية، والراجح الأول؛ لأنه جاء على صيغة الخبر، ولأن الملائكة يصدق عليهم وصف المطهرين؛ حيث طهرهم الله من المعاصي، **أما الإنسان فمهما تطهر** فسيبقى عنده شيء من الدنس بفعل المعصية؛ لأنه مجبولٌ عليها.

وقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾، **أي**: نزله الله على نبيّه محمد ﷺ

---

(١) سنن الدارمي: (٢/ ٥٣٦)، برقم: (٣٣٦٥)، وإسناده صحيح.

بواسطة جبريل الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي ذلك رد على الكفار الذين كانوا يتهمون محمدًا ﷺ بأنه افتراه على الله أو تعلمه من شخصٍ آخر.

ثم قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾، **الخطاب للمشركين** من كفار قريش، **والمقصود بالحديث** القرآن، **ومدهنون** معناها: يلاين بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر(١)، حتى وقع منكم التكذيب بالقرآن ومن جاء به.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، **فيها تفسيران مشهوران**(٢):

الأول: وتجعلون شكر الله على أن رزقكم المطر، هو التكذيب، وهذا يدل على سفاهة في العقل، فقد كان بعض العرب ينسب المطر إلى الكواكب، **وفي الحديث القدسي:** **"أصبح اليوم مؤمن بي وكافر، من قال: مُطرنا بفضل الله فهو مؤمن بي، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافرٌ بي"**(٣).

والقول الثاني: أن المقصود بالرزق هنا الحظ، وأن الله أرسل إليكم الرسول ومعه القرآن الكريم، فكان حظكم منه هو التكذيب له، وكلا المعنيين ينطبق على كفار قريش، ولا تعارض بينهما، فهناك من لا يشكر الله سبحانه وتعالى على الرزق ويستخدم رزق الله في معصيته، وهناك من الكفار من لم يُؤمن بهذا الرسول وكفر به.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾، **انتقل الحديث**

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٢٥٢).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٢٩).
(٣) صحيح البخاري: (٢/ ٣٣)، برقم: (١٠٣٨)، وصحيح مسلم: (١/ ٨٣)، برقم: (٧١).

إلى موضوع آخر، بيان ضعف وعجز المخلوق وعظمة الخالق وقدرته، فهلّا إذا بلغت الروح أو النفس الحلقوم عند الموت، ولم يأت ذكر للروح من قبل حتى يعود الضمير إليها، لكنها تُعرف من السياق، فإن الذي يبلغ الحلقوم هي النفس أو الروح حينما يُصاب الإنسان بالنزع ويقترب أجله، فإن نفسه تصعد حتى تصل إلى الحلقوم، وهو القصبة الهوائية التي تكون في الرقبة، **فللإنسان قصبتان: قصبة** خاصة بالطعام والشراب، وتُسمى المريء، **وقصبة** خاصة بالهواء، وتُسمى الحلقوم، وفيها حويصلات هوائية على شكل حِلق مفتوحة من أجل أن يخرج الهواء ويدخل، ويتنفس الشخص بسهولة، بينما المريء يُشبه الأمعاء، والطعام يفتحه إذا دخل أو خرج منه، وهما يلتقيان في رقبة الإنسان في نهاية حلقه، وهناك حارس بينهما يُسمى باللهاة، تنظم دخول الطعام والهواء، وهي تعمل لا إراديًا ولكن أحيانًا بسبب تصرفات الإنسان يحصل فيها خلل وربما دخل قطعة من الطعام إلى القصبة الهوائية، فيُشرغ الإنسان، وربما يموت، والروح تخرج من قصبة الهواء لأنها مُلتصقة بالرئتين، ومنها يتم التنفس والهواء، والخطاب موجه إلى الميت نفسه أو إلى أهل الميت وأقاربه الذين حوله.

فعلى الأول: فالميت ينظر نظراً حقيقياً إلى الملائكة التي تنزل لأخذ روحُه وهو ينظر إليها نظرة عاجز عن ردها، ولذلك يلحق البصر بالروح، ويُشرع أن يُغطي بصر الميت بعد وفاته، لأنه يظل مفتوحاً باتجاه السماء.

وعلى الثاني: فالذين حول الميت ينظرون إلى الميت وهم عاجزون عن فعل أي شيء لإنقاذه.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾، ونحن، أي: الله سبحانه وتعالى قريب بعلمه وإحاطته وإدراكه من الشخص الذي يُحتضَر، أو أن المقصود بها الملائكة، أي: وملائكتنا بجواركم أقرب إلى هذا الميت من قربكم منه، ولكن الناس لا يرونهم بأبصارهم[(١)].

وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾، فهلّا إن كنتم غير مصدقين أنكم تحاسبون وتبعثون وتجزون؛ فردوا هذه النفس إلى الجسد إذا بلغت الحلقوم؛ أو إن كنتم غير مربوبين ومقهورين، فافعلوا ذلك إن كنتم صادقين في كفركم، والحال أنكم محاسبون ومملوكون لله وعاجزون عن فعل ذلك.

ثم قال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾، انتقل الحديث إلى بيان أقسام الناس يوم الحشر، وذكر ثلاثة أصناف وهم:

الصنف الأول: المقربون، وهم يقابلون صنف السابقين الذين سبق بيانهم في أول السورة، وهم الذين يعلمون الفرائض والمستحبات ويبتعدون عن المحرمات والمكروهات، فهؤلاء جزاؤهم في الآخرة أن تُبشرهم الملائكة حينما تخرج روحُهم من أجسادهم بالراحة والريح الطيبة، وفي حديث البراء بن عازب يُقال لروح المؤمن: **"اخرجي إلى رَوحٍ وريحان وربٍ غير غضبان"**[(٢)]، ثم تُؤخذ وتُوضَع في كفن مُحنط بحنوط أهل الجنة، فتخرج منه رائحة طيبة،

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٥).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي: (١/ ٣٥٥)، برقم: (٣٩٥).

ويبشر بالجنة، وينظر إلى مقعده فيها، ويأتيه من روحها وريحانها ونسيمها، فيقول: "رب أقم الساعة"[(١)].

وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١﴾، وهذا هو الصنف الثاني، وهم أدنى رتبة من المقربين، وهم أصحاب اليمين، فيُقال له: سلامٌ لك. أي: أنت في سلامة من العذاب؛ لأنك من صنف أصحاب اليمين، أو سلامٌ عليك، فأنت من أصحاب اليمين، فتُبلغه الملائكة السلام من أصحابه السابقين الذين دخلوا الجنة قبله[(٢)]، ولا تعارض بين هذه المعاني، وكلها واردة، وتدل على البشارات التي تحصل لهم عند قبض أرواحهم.

وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾، وهذا هو الصنف الثالث، وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ۝٥١﴾، فبدأ هناك بالضلال ثم بالتكذيب؛ لأن ضياع الهدى وضلال الطريق يُوصل إلى التكذيب، وهنا بدأ بالتكذيب وعطف عليه الضلال أي: إن ضلالهم كان بسبب تكذيبهم، فالأولى: فيها ضلالهم عن طريق الحق في الدنيا، والثانية: فيها ضلالهم طريق الجنة، والسير في طريق جهنم، والنزل هو ما يُقدم للضيف، وهو هنا الحميم، وهو الماء شديد الحرارة، ثم يُدخل في عمق الجحيم بحيث يحترق فيها.

---

(١) ينظر: الحديث بطوله في مصنف ابن أبي شيبة: (٣/ ٣٨٠)، برقم: (١٢١٨٥)، ومسند أحمد: (٣٠/ ٤٩٩)، برقم: (١٨٥٣٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٥٥٠).

ثم ختم الله هذه السورة، بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾، هذا يعود إلى ما سبق في السورة كاملة، أو ما وُصف لنا من حال الأصناف الثلاثة في الآخرة، فهو حق اليقين، وهذا أعلى درجات العلم، وهو اليقين بعينه، والحق الكامل، واليقين هو الحق، وهو من إضافة الشيء إلى نفسه، **فدرجات العلم على الترتيب ثلاث درجات: علم** اليقين، **وعين** اليقين، **وحق** اليقين.

ولتوضيح ذلك نضرب مثالًا: أن يقول لك شخصٌ ثقة: عندي عسل درجة أولى سأعطيك منه، **فهذا علم اليقين**، فإذا ذهب وأتى به وأراك العسل، فهذا عين اليقين، فإذا أخذ ملعقة وأعطاك منه فطعمته، فهذا حق اليقين، وهذا كله ذكره الله تعالى في جهنم، والعياذ بالله، لإثباتها، فأخبرنا الله بجهنم عن طريق الوحي، فهذا علم اليقين، فإذا بعث الناس ورأوها أمامهم، **فهذا عين اليقين**، فإذا رمي الكافر فيها، فأحرقته صار علمُه بها **حق اليقين**، نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾، **أي:** نزّه الله عن كل ما لا يليق به من النقائص، وعظّمه في نفسك، ولسانك.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن من حمل القرآن وحفظه وعمل به صار كريمًا على الله في الدنيا والآخرة.

٢- أن من يستخدم رزق الله في معصيته، لم يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك.

٣- أن أقسام الناس يوم الحشر ثلاثة أصناف: مقربون، وأصحاب اليمين، وهما من أهل الجنة، وأصحاب الشمال، وهم من أصحاب النار.

٤- أن درجات العلم على الترتيب ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

تفسير سورة الحديد

تفسير المقطع الأول من سورة الحديد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ
وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ
(٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ (٤) لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم
مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ (٧) وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ
يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٨) هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ
بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٩) وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ
أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ
(١٠) مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ (١١)﴾.

شخصية السورة:

سورة الحديد؛ سورة مدنية[١]، **ومقصدها العام**: بناء الإيمان في النفوس، والحث على النفقة في سبيل الله ﴿.

ابتدأت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾، والتسبيح معناه: تنزيه الله عن النقائص وما يقوله المشركون مما لا يليق به سبحانه، فله الكمال المطلق، وقد جاء لفظ التسبيح هنا بصيغة الفعل الماضي، وفي غيرها جاء بصيغة الفعل المضارع، وفعل الأمر، والمصدر، ليشمل التسبيح جميع الأحوال والأزمنة، وهذا من تنوع الخطاب القرآني، والتعبير بما يشمل ما في الكون كله، فالملائكة والإنس والجن يُسبحون الله، وكذلك الشجر والحجر وسائر المخلوقات تُسبح الله، **كما قال**: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[الإسراء:٤٤]، ولكن الله يعلم ما تنطقه الألسن بلغاتها المختلفة، **والتذييل لآيات التسبيح بالاسمين**: العزيز الحكيم للإشارة إلى أن الله غني عن تسبيح مخلوقاتُه له، **فهو العزيز** القوي الذي لا يحتاج إلى غيره، **والحكيم الذي** ليس في خلقه ولا أمره ولا شرعه خلل؛ فالتنزيه غالبًا يكون من الضعف، أو من الخلل، والله عزيز حكيم.

وقوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾، فهو المالك المتصرف في السموات وما فيها والأرض وما فيها، وهو الحي سبحانه الذي

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٧/ ٥).

يُحيي الموتى، ويميت الأحياء، ولا يُعجزُه شيء، فقدرته نافذة في كل شيء.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣﴾، هذه أسماءٌ حسنى لله تعالى، **وقد جاء تفسيرها في الحديث:** "**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**"(١) وهذه الأسماء اشتملت على الزمان في الأول والآخر، والمكان في الظاهر والباطن، فالله مُحيط بكل شيءٍ علمًا، لا يغيب عن علمه شيء في كل زمان ومكان وحال.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وذكر السماء قبل الأرض تشريفًا لها، فقد بدأ بخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء في يومين، ثم عاد إلى الأرض فقدّر فيها أقواتها في يومين، فصار المجموع ستة أيام، وهي الأيام المعهودة للناس؛ لأن الله خاطب الناس بما يعهدون، والعرش هو أعظم المخلوقات.

والاستواء في اللغة: العلو والارتفاع(٢)، فإن الله من صفاته أنه عالٍ على خلقه، **ومن أسمائه** العلي العظيم، **والعلو**: علو الذات وعلو المكانة له سبحانه، واستواؤه على عرشه علوّه عليه كما يليق بجلاله، ولا يشبه المخلوقين في شيء من أسمائه وصفاته، **كما قال:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولا يعني ذلك أنه مُحتاج إلى العرش، فالله لا يحتاج إلى شيءٍ من خلقه.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٤)، برقم: (٢٧١٣).

(٢) ينظر: لسان العرب: (٣/ ٢١٦٤).

وقولــــه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وهذا وصف لإحاطة علم الله بكل شيء، فهو يعلم بما يدخل إلى الأرض، من الماء والأموات ومن أي شيءٍ يسلُك داخل طبقات الأرض، ويعلم ما يخرج من الأرض من النبات والمياه والمعادن ومن كل ما يخرج من طبقاتها، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمر الشرعي والأمر الكوني والملائكة والمطر ونحوها، ويعلم ما يصعد إلى السماء، ويتجاوز حدودها حتى يصل إلى داخلها، من أعمال العباد وأرواحهم ونحوها.

وقولـه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾، وهو مع الخلق بعلمه وإحاطته وتدبيره، ويعلم تفاصيل أعمالهم، فالبصير العالم بجزئيات الأشياء ودقائقها، وأين: تعم الزمان والمكان، وفي الآية بيانٌ لسعة علم الله، وأحاطته بالخلق، وعلمه بجزئيات أعمالهم الخفية.

وقولـه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾، وقد سبق أن ذكرها في الآية الثانية، وكرر ذكرها هنا لمقصد وحكمة، وهي أن من يملك السموات والأرض ويتصرف فيها، فأمور الخلق كلها ترجع إلى الله سبحانه، سواءً في تدبيرها أو في الحكم والمجازاة عليها.

وقولــــه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾، يُدخل الليل في النهار، وعبّر بالإيلاج؛ لأن الليل يأت بالتدرج، أي: يأخذ من ساعات الليل إلى ساعات النهار، ويأخذ من ساعات النهار إلى ساعات الليل،

فأحيانًا الليل يزيد، وأحيانًا يزيد النهار، وأحيانًا يصيران متساويين، وأحاط علمًا بكل شيءٍ، فهو يعلم خواطر النفوس ووساوسها، وسُميت خواطر النفس بذات الصدور؛ لأنها لا تخرج منها، بل تضل مخفية داخل الصدر، ولا يعلمها إلا الله سبحانه.

ثم قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧﴾، بعد أن عرّف الخلق بنفسه، وذكر لهم بعضًا من أسماءه وصفاته وأفعاله سبحانه، أمرهم بالإيمان به سبحانه الإله العظيم الكريم المالك، الذي سبقت أوصافُه، وأمرهم بالإيمان برسوله محمد ﷺ، الذي أرسله إليهم، والإيمان: معناه التصديق والإقرار والإذعان والامتثال للأمر واجتناب النهي، ثم أمرهم بالإنفاق من المال الذي أعطاهم ويتملكونه، وصيرهم مستخلفين فيه، **أي**: يخلفُ بعضُهم بعضًا فيه، فالمال ينتقل من شخص لآخر بالبيع والشراء والصدقة والهبة والوصية والتركة ونحوها، فالمال لن يبقى في يد صاحبه مهما حاول التمسك به والبخل به، وسيتركه رغمًا عن أنفه بالموت أو بغيره، فخيرٌ له أن يُنفق منه لله حتى يُؤجر عليه، **وفي الحديث**: **"يقول ابن آدم: مالي، مالي، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت"**(١)، **فالمال الباقي للعبد في الآخرة، هو** ما أنفقه في سبيل الله، وحثهم ورغبهم بالإيمان بالله ورسوله والإنفاق من أموالهم، ووعدهم بالأجر الكريم من الله الكريم سبحانه، فلا تسأل بعد ذلك عن مقداره ووصفه وعظمته،

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٧٣)، برقم: (٢٩٥٨).

فهو أجر كريم من الله الكريم سبحانه.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾، ما الذي يمنعكم من الإيمان بالله وقد عرفتم استحقاقه سبحانه للعبادة بالحجج والبراهين والأدلة العقلية والشرعية، والرسول موجود بين أيديكم يُناديكم ويدعوكم ويحثُكم على ذلك، ومعه أدلة وبراهين ومعجزات تدل على صدق ما جاء به، وفي الحديث: "أن النبي ﷺ قال ذات يومٍ لأصحابه: أي الخلق أعجبُ إيمانًا؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يُؤمنون وهم عند ربهم، قالوا: الرسل والأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟!، قالوا: نحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!"، فلمّا لم يستطيعوا جوابًا؛ قال النبي ﷺ: "أعجب الخلق إيمانًا قومٌ يأتون بعدكم فيجدون كتابًا من الوحي فيؤمنون به ويتبعونه، فهم أعجب الخلق إيمانًا"[(١)]، والمقصود بهم الذين يأتون من هذه الأمة بعد وفاة رسول الله ﷺ فيؤمنون به، وهذا يدل على أن وجود النبي ﷺ بين من بُعث فيهم حجة عليهم.

والميثاق: هو الميثاق الأول الذي أخذه الله على آدم وذريته في عالم الذر، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[الأعراف:١٧٢]، إن كنتم مصدقين بما أعطاكم الله من المعجزات والبراهين.

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٢/ ٨٧)، برقم: (١٢٥٦٠)، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم: (٣٢١٥).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾، هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات القرآن الواضحات، ووصفه هنا بالعبودية لأن المقام مقام تشريف له، وهو مقام إنزال الوحي عليه، كما قال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[النجم:١٠]، ومرتبة العبودية أعلى مراتب الوصف للمخلوق، فإذا أردت أن تصف مخلوقًا بصفةٍ عظيمة لا مثيل لها فصفْهُ بأنه عبدٌ لله، واللام في يخرجكم لام التعليل، فالحكمة من إنزال الآيات وإرسال الرسل هو إخراج الناس من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان والمعرفة، وهذه من آثار رحمة الله في الخلق، وجمع بين الرأفة والرحمة؛ لتشمل رفع الضرر عن الخلق وإيصال الخير إليهم، لأن الرأفة هي رفع الضرر، والرحمة إيصال الخير.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ما الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وأنتم ميتون وتاركون أموالكم وراءكم، والله يرث ما في السموات والأرض إذا مات أهلها، وفي ذلك تحريض لهم على الإنفاق وتزهيد لهم في الدنيا، وأمرُه لكم بالإنفاق ليس لأن الله محتاج بل هو مالك السموات والأرض وما فيهما من خزائن ووارثها. ولكن الله سبحانه أراد أن يُحببكم إلى ذلك ويخلف عليكم، كما قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ:٣٩]، وفي الحديث: "يا ابن آدم، أَنفق، أُنفق عليك"(١).

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ٦٢)، برقم: (٥٣٥٢).

وقولـه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾، الفـتح هـو فـتح مكـة، والآيـة تثبـت التفـاوت في الأجـر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة، وبين مـن أنفـق وقاتـل بعد ذلك، فإن الإسلام قبل الفتح كـان ضـعيفـاً، والحاجة إلى الإنفـاق والقتـال كانت أشد، وكان الناس محتاجين ويخـافون مـن قـريش وبطـشها، فلـما فتحـت مكة أسلم الناس، وذهبت غطرسة قريش، فلم يعد هناك ما يمنعهم من الإنفـاق، واليوم يوجد حصار من دول الكفر على الدعوة والدعاة، ويُخوّف من ينفق مالـه في الدعوة والخير وإصلاح المجتمعات، من قبل بعض الأنظمة، فيفكّر صاحب المال في مصيره لو تبرع بمبلغ لتحفيظ القرآن الكريم، أو لبناء مسجد، أو لكفالـة داعية، ويخاف أن يُتهم بدعم الإرهاب، فهذا الحال الذي نعيشه اليوم يشابه حال المسلمين قبل فتح مكة، وفيه إشارة إلى أن الإنفـاق في وقـت الـشدة والقهـر مـن الأعداء، أعظم أجراً من وقت الرخاء، ومثل ذلك يقال في حكم الجهاد في سـبيل الله، فمن فعل ذلك فهو أعظم درجة عند الله، ممن أنفق وجاهد بعد فتح مكة.

ونفْي التسوية في وصفٍ يقتضي ثبوت أصل ذلك الوصف لجميع من نفيـت عـنهم التـسوية[1]، ولـذا قـال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، أي: مـن آمـن وأنفـق قبـل الفتح وبعده فهو موعود بدخول الجنة، وأتى بهذه الجملة، وهي جُملة احترازية، ليُذهب المعنى الذي يتبادر إلى الذهن، لو لم تذكر، وهو: أنـه لا أجـر ولا ثـواب لمن يُنفق ويُقاتل بعد الفتح، فأثبت بها أن من أنفق قبل الفتح وقاتل أعظم درجـة

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٧٥).

ممن أنفق بعد الفتح، والجميع من أهل الجنة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾، أي: أن الله يعلم أسباب الإنفاق وأوقاته وأعذاره، ويعلم أحوال الجهاد ونوايا المجاهدين، فيعطي كل عامل على نية عمله.

ثم قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، مثَّل المنفق في سبيل الله كالذي يقرض الله، ووصف هذا القرض بالحُسن، والقرض الحسن هو الذي يتوفر فيه شرطان:

الأول: ألا يوجد من ورائه فائدة لا حسية ولا معنوية للمقرض.

والثاني: ألا يتبعه منٌّ ولا أذى، فإن تخلف أحدهما لم يكن قرضًا حسنًا.

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾، وهذه ثمرة القرض الحسن عند الله، وهي المضاعفة، وأطلق هنا المضاعفة، ووصفها في آية أخرى بالكثيرة، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾[البقرة:٢٤٥].

والمضاعفة قد تكون مرتين، وقد تكون عشر مرات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة يعلمها الله، وتعدد المضاعَفة يكون بحسب صدق وإخلاص المُنفق، ووصف الأجر بالكريم حتى يطمئن المعطي أنه سيُعطيه الكريم أجرًا كريمًا.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- من نعم الله على الخلق أن يعرّفهم بأسمائه الحسنى ليدعوه بها.

٢- أن المال مال الله، وأن الخلق مستخلفون فيه.

٣- تفاوت درجات المؤمنين وأجرهم بحسب سبقهم إلى الإيمان والنفقة في سبيل الله وقت الحاجة.

٤- أن الإنفاق في سبيل الله سببٌ من أسباب بركة المال ونمائه.

تفسير المقطع الثاني من سورة الحديد

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾، يُخبر الله سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين يوم القيامة، حيث يمنحُ الله سبحانه وتعالى المؤمنين

نورًا يستضيئون به طريقهم، والخطاب لكل من يصلح له[1]، **فمن ينظر في حال الناس يوم القيامة** فسيجد المؤمنين والمؤمنات يسعون ونورُهم يسعى معهم على الصراط يوم القيامة، وهو دليلهم إلى الجنة، وجعل الله محل النور بين اليدين وعن جنبيه اليمين والشمال، وإنما ذكر اليمين هنا للتشريف، **وقيل**: إن المقصود بأيمانهم كتبهم، **أي**: يسعى نورُهم بين أيديهم، وكتبُهم قد أخذوها بأيمانهم، **والأول أرجح**[2]، ويختلف حجم هذا النور باختلاف درجات الإنسان في الأعمال الصالحة في الدنيا، فمن كان إيمانُه قويًا وأعمالُه كثيرة، كان نورُه ساطعًا، ومن كان إيمانه ضعيفًا، ضعف نوره[3]، فالنور وسرعة تجاوز الصراط، تكونان بحسب قوة الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، وتبشرُهم الملائكة بدخول الجنات، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار المتنوعة، من العسل والماء واللبن والخمر، ويبشّرون بالخلود في الجنة، فلا يخرجون منها أبداً، وذلك الجزاء الذي حصلوا عليه، هو الفوز العظيم الذي لا يُقابله فوز!.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾، وهذا يدل على أن المنافقين يحشرون مع المؤمنين؛ لأنهم كانوا في الدنيا يظهرون الإسلام، وأنهم يعطون شيئاً ضعيفاً من النور، فيسيرون به قليلاً ثم ينطفئ

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٠٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٧٩).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٥).

عليهم، **وحينها يقولون للمؤمنين:** انتظرونا حتى نمشي معكم ونستضيء بنوركم، وهو طلب غير متحقق، لأن النور يوم القيامة مثل نور البصر في الدنيا، فلا يستفيد الأعمى من نور المبصر لو مشى بجواره، **فتقول لهم الملائكة أو المؤمنون:** ارجعوا إلى الخلف، فهناك مكان يُوزع فيه النور، أو ارجعوا إلى الدنيا، فهناك مكان تحصيل النور بالإيمان والعمل الصالح[(١)]، فينصرف المنافقون لطلب النور فلا يجدونه، فيعودون إلى المؤمنين ليلحقوا بهم؛ فيفصل بينهم وبين المؤمنين بسور يحجز بينهم، خلقه الله في تلك اللحظة؛ قطعًا لأطماعهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون[(٢)]، وجعل عذاب جهنم بظاهره من جهة المنافقين، ونعيم الجنة بباطنه من جهة المؤمنين، جزاءً وفاقًا؛ لأن المنافقين كانوا يعيشون في الدنيا على المكر والخداع، فعاقبهم الله في الآخرة من جنس عملهم، وجعل على هذا السور بابًا خاصًا للمؤمنين يدخلون منه، بمرأى من المنافقين المحبوسين وراء ذلك السور؛ تنكيلاً بهم وحسرة لهم حين يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب ليجتازوا منه إلى نعيم الجنة الذي بباطنه.

وقوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾، فلما ضُرب السور بينهم وانقطعوا عن المؤمنين استخدموا المناداة لهم، **فيصيح المنافقون للمؤمنين، قائلين لهم:** ألم نكن معكم في الدنيا، نحضر معكم المساجد ونصوم معكم، ونقول: لا إله إلا الله كما تقولون؟! **فيرد عليهم المؤمنون:** بلى، كنتم معنا،

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: ٢٣٢٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٨٣).

ولكن شتان بين حالنا وحالكم، **ثم ذكروا لهم أربعة أسباب كافية في هلاكهم:**

الأول: أنكم شُغلتم بالأموال والأولاد وسائر الشهوات عن الإيمان بالله والعمل الصالح، وهذه من أعظم الفتن للنفس.

والثاني: أنكم كنتم تنتظرون أن يُهزم الإسلام أو أن يموت الرسول.

والثالث: أنكم كنتم في شك من الإيمان وصدق محمد ﷺ.

والرابع: غرتكم تصوراتكم وتصرفاتكم واجتهاداتكم الباطلة التي ليس عليها حجة ولا برهان، بل كلها أماني، واستمر بكم الحال وعشتم حياتكم على هذه الصفات السيئة حتى فاجأكم الموت، وزادكم تغريرًا وإلهاءً الشيطان؛ لأنكم ركنتم إليه، وصرتم من حزبه، وسُمي الشيطان بالغَرور؛ لكثرة تغريره بالخلق حتى يتبعوه، ثم يتبرأ منهم يوم القيامة!.

وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾، **أي:** في يوم القيامة لا تقبل من المنافقين ولا الكفار الفدية، **وهي:** ما يفتدي به الإنسان نفسه من العذاب، من مال ونحوه، ومن أين له يوم القيامة فدية وقد ترك أمواله وأولاده في الدنيا؟!، ولو قدر على الحصول عليها فهي مرفوضة وغير مقبولة منه، لأنه قد طُلب منه في الدنيا أقل من ذلك، وهو أن يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، **وهذا يدل** على أن قيمة كلمة التوحيد، تساوي ملء الأرض ذهبًا، وذكر هنا الذين كفروا حتى يُشعِر السامع أن المنافقين والكفار شيءٌ واحد، وأن المكان الذي سيؤوون إليه ويرجعون إليه

هو النار، فهي أولى بهم، وهي من يحتضنهم، وبئس المصيرُ مصيرُ أهل النار، والعياذ بالله.!

ثم قال: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾، ألم يحن الوقت أن تلين قلوب الذين آمنوا وتطمئن لمواعظ الله فيهم، وما نزل عليهم من آيات القرآن، وما فيها من الوعد والوعيد التي تورثهم الخشوع، والاستفهام استنكاري، يقصد به العتاب لهم، وفي حديث ابن مسعود أنه قال: "**ما كان بين إيماننا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين**"[1]، وهذا يدل على أن الآية مكية، والسورة مدنية، لأن ابن مسعود من المؤمنين الأوائل في مكة.

والمقصود بالذين آمنوا: إما بعضاً منهم ممن كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذ بمكة، فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام ليلحقوا بمرتبة من سبقهم بالطاعة، وإما أن يكون تحريضاً للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير[2]، ونهاهم أن يكون حالهم كحال اليهود والنصارى، الذين أرسل فيهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، فأحبوا الدنيا ومالوا إليها، وأعرضوا عن مواعظ الله لهم في كتبهم، وطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، فوقعوا في الغفلة، وتركوا العمل بما في كتبهم والاستقامة على دينهم، فأصيبت قلوبهم بالقسوة، وفسق كثير

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٣١٩)، برقم: (٣٠٢٧).

(٢) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٣٩٠).

منهم عن طاعة الله وشرعه، وهم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد، ولم يقل: وكلهم فاسقون، لوجود قليل منهم، آمن بهما، وهذا من عدل الله في الحكم عليهم.

ثم قال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾، **التعبير بـ(اعلموا):** للفت الانتباه، والتذكير بنعم الله سبحانه، وعلاقة هذه الآية بالتي قبلها علاقة تبشير للذين قست قلوبُهم، أن لا ييأسوا من صلاحها، فالله تعالى يرحم خلقه بعودة الإيمان إلى قلوبهم وإحيائها، كما يرحم عباده بعودة الحياة إلى الأرض بعد نزول المطر، والمطلوب منكم استمطار الهداية لقلوبكم بسقيها بماء الوحي، كما تُسقى الأرض بماء المطر، فالله قادر على إحياء القلوب بعد موتها وقسوتها، كما يحيي الأرض بعد موتها، وقد بيّن الله الآيات الشرعية والكونية ووضحها لكم كي تعقلوا أمر الله وشرعه الذي أنزله إليكم وتعملوا به.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾، **عاد الحديث مرة أخرى** عن فضل الإنفاق في سبيل الله، والمُصّدقين هم الذين يتصدقون بأموالهم، وإنما أُدغمت الدال في التاء تخفيفًا، وذكر المُصّدقات تنويهًا بشأن المرأة المسلمة وصدقتها، وأنها يجب أن تُعطي كما يُعطي الرجل، وسمّى الصدقة في سبيل الله قرضًا حسنًا مع الله؛ تحبيبًا وتشجيعًا لفاعله، وبيّن أن أجر ذلك القرض الحسن يُضاعف لأصحابه، والمقصود بالأجر الكريم هنا: الجنة التي فيها جميع النعم، وأعلاها حلول رضوان الله تعالى عليهم، ونظرهم إلى وجهه الكريم سبحانه.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن حجم نور العبد يوم القيامة سيكون بناءً على حجم عمله الصالح في الدنيا، فليستكثر الإنسان من النور من الآن.

٢- أن الكفر والنفاق ظلمة في الدنيا وفي الآخرة.

٣- أن من أسباب النفاق: الافتتان بالدنيا، وانتظار هلاك المؤمنين، والشك والريب في دين الله، والغرور بالتصورات الخاطئة، وتغرير الشيطان للعبد.

٤- خطر الغفلة على القلب، فإنها تُقسي القلوب، وإذا قسى القلب انحرف عن دين الله.

تفسير المقطع الثالث من سورة الحديد

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (١٩) ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ
ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ
عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ
مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٢١) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا
فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٢٢) لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا
فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ
يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٢٤)﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾، **الـواو** حـرف عطـف، وهـو مـن عطـف الجملـة علـى الجملة، **والإيمان هو** التصديق والإقرار بالله وبجميع رسله، **كما قـال:** ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥]، ولـذلك لا يُقبـل إيمـان اليهـود؛ لأنهـم لـم

يؤمنوا بعيسى ومحمد، ولا إيمان النصارى؛ لأنهم لم يؤمنون بمحمد ﷺ، والصِّديق صيغة مبالغة من الصدق، أي: كثير الصدق، وفي الحديث: **"وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا"**(١).

فالصّديق هو: الذي يتحرى الصدق في أقواله وأفعاله، وهم أعلى مرتبة من الشهداء، فترتيبهم في الفضل عند الله، **كما ذكرهم في قوله**: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النساء:٦٩]، **فذكرهم بالترتيب**: الأنبياء، ثم الصديقين، ثم الشهداء، ثم الصالحين، **والواو** عاطفة أو استئنافية(٢)، **فعلى العطف يكون المعنى**: أن من آمن بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء، **وعلى الاستئناف يكون المعنى**: أن الشهداء لهم عند ربهم ثواب خاص بهم، هو ثوابُ الشهادة، وفي الحديث: **"إن للشهيد عند الله خصالاً، يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه"**(٣).

والمقصود بالشهداء؛ من جاهد وقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقُتل

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٠١٣)، برقم: (٢٦٠٧).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٢٩٨).

(٣) مسند أحمد: (٢٨/ ٤١٩)، برقم: (١٧١٨٢)، وسنن الترمذي: (٣/ ٢٣٩)، برقم: (١٦٦٣)، وإسناده صحيح.

بيد الكفار، فهذا هو الشهيد شرعًا الذي تتعلق به أحكام الشهادة في الدنيا والآخرة، بخلاف غيرهم ممن يُمكن أن يُطلق عليهم شهداء من حيث الأجر في الآخرة، لكن لا تنطبق عليهم أحكام الشهادة في الدنيا، مثل الغريق والمبطون والمحروق ونحوهم.

أما اليوم فقد صار إطلاق لفظ الشهيد على كل من قُتل ولو لم يكن في سبيل الله، مثل: شهيد الديمقراطية، وشهيد الحرية، وشهيد الخبز، وشهيد الوطن، ونحوها من المسميات، فهؤلاء شهداء ما أُضيفوا إليه، وليس بالضرورة أن يكونوا شهداء عند الله، والنور هو ما سبق ذكرُه، وهو الذي يُعطى للمؤمنين عند المحشر، حيث تتحول حسناتهم إلى أنوار تُضيء لهم الصراط.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٩﴾، وهذا من طريقة القرآن المعهودة، أنه إذا حدثنا عن المؤمنين وأجرهم؛ قرن خبرهم بحال الكافرين وعقابهم، فذكر هنا جزاء الذين جحدوا ولم يُصدقوا بآيات الله الشرعية والكونية، واكتفى بوصفهم بأنهم مُلازمون للنار لا يخرجون منها.

ثم قال: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾، الخطاب عام للناس جميعًا، والهدف منه تنبيه الخلق إلى حقيقة الدنيا، **و(أنما)**: أداة حصر وقصر، فوصْف الدنيا لا يخرج عن هذه القضايا الخمس، **وهي**: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر، فهي التي ينشغل الناس بها في الدنيا،

فاللعب هو: ما تفعله الجوارح وهو غالبًا يكون في مرحلة الطفولة، فالأطفال مشغولون باللعب، فإذا كبُروا وصاروا في مرحلة المراهقة انشغلوا باللهو.

والزينة هي: ما يتزين به الإنسان، وهي غالبًا تكون في مرحلة الشباب، فالشاب مشغول جدًا بشكله ولبسه وطريقة عيشه، وأكثر ما يكون التزين والتجمل عند النساء.

وأما التفاخر: فيكون غالباً في مرحلة الكهولة، فكل واحد من كبار السن يُفاخر غيره بما قدمه في حياته.

وأما التكاثر فهو طلبُ الكثرة، وهذه طبيعة عامة في الإنسان في جميع مراحل حياته، **وفي الحديث**: **"لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"**[1]، فابن آدم يُحب التكاثر في المال والولد، فهذه الأمور من طبيعة الحياة الدنيا، وأغلب الخلق مشغولون بها، ولتقريب حالها إلى أذهان السامعين؛ ضرب لها مثالًا بالمطر حينما ينزل إلى الأرض فينبت به الزرع وينمو ويكبُر، ثم بعد دورة حياته المعروفة بثلاثة أشهر أو أربعة أشهر، يبدأ بالاصفرار ثم يكون يابسًا متكسراً، ثم تنتهي حياته، ولو قارن الإنسان حاله بحال الزرع، لوجده شبيهاً به، يعيش نفس الدورة الحياتية التي يعيشها الزرع تمامًا، والفرق في المدة الزمنية، وأن الزرع يُحصد فتأكله المواشي ويذهب، بينما الإنسان يموت فيبعث ويحاسب، وهذا الزرع الذي نبت ونما بالغيث؛ يُعجب الزراع، وكذلك الحياة الدنيا تعجب الكفار،

(١) صحيح البخاري: (٨/ ٩٢)، برقم: (٦٤٣٦).

فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها[1]، فهذا مثال حال الزرع الذي يشبه حال الخلق في الدنيا، أما الحال في الآخرة فيختلف تماماً، ففيها: عذاب شديد لمن كفر وعصى ربه، ومغفرة من الله ورضوان لمن آمن وأطاع ربه، وثمرة المغفرة تكون بدخول الجنة للمؤمنين، وإحلال رضوان الله تعالى عليهم فيها، والعذاب الشديد يكون بدخول النار للكافرين، والعياذ بالله، والحياة في الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة، وفي الحديث: **"موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها"**[2].

أما الحياة الدنيا فمهما تمتع فيها الخلق بالنعم الكثيرة فهي لا تُساوي شيئًا من متاع ونعم الآخرة، بل هي متاع يغر صاحبه ويلهيه عن ما هو أعظم منه؛ ولذلك أطلق عليها متاع الغرور؛ لأنها تغر الناس وتشغلهم عن الآخرة.

ثم قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾، أمر الله عباده بالمسابقة، والمقصود بها هنا المنافسة على فعل الطاعات والمبادرة إلى الخيرات، وترك الذنوب والمحرمات، فيغفر له الذنوب والزلات، ويرتقي في الدرجات، **كما قال الله:** ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، لأن المغفرة والجنة لا ينالان إلا بالانتهاء عن جميع المعاصي والاشتغال بكل الطاعات، وضرب لنا مثلًا تقريبيًا لسعة الجنة بما يعقله الناس،

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٤).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١١٩)، برقم: (٣٢٥٠).

وأعظم شيء سعة السموات والأرض لديهم، **ومن طبيعة القرآن** أنه خاطب العرب بما اعتادوا عليه، فإنهم إذا أرادوا وصف شيء بالعظمة شبهوه بالسماء والأرض، وإلا فسعت الجنة لا يُحاطُ بها، وذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك، وأن هذه الجنة قد أعدت وجهزت لأهلها من الآن، وأخبر أن دخول الجنة ومغفرته سبحانه لخلقه هو فضلٌ من الله على من يشاء من عباده، ومشيئة الله تعالى مرتبطة بحكمته، والحكيم العليم يضع الشيء في مكانه، فمن شاء هداه الله وأدخله الجنة بفضله، وفضله على عباده المؤمنين كبير وعظيم.

ثم قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾، هذا إخبار عن قدر الله سبحانه، وأن كل ما قدره الله من الخير والشر فهو مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن يوجد، **وفي الحديث:** **"أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة"**[(١)].

وأراد بالمصيبة هنا ما تعارف الناس عليها، وهي الشر مما يصيب الأرض من القحط والزلازل ونحوها، وفي الأنفس من الموت والمرض ونحوها، وأن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل خلق المصيبة وخلق النفس.

والقدَر: تقدير الشيء وكتابته في اللوح المحفوظ، فإذا تحقق ووقع، سُمي بالقضاء، وهو: الشيء المُنفذ في الواقع، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره

(١) سنن أبي داود: (٧/ ٨٦)، برقم: (٤٧٠٠)، وسنن الترمذي: (٥/ ٤٢٤)، برقم: (٣٣١٩) وإسناده حسن.

ركن من أركان الإيمان لا يتم إيمان العبد إلا به، وأن كتابة المقادير وتنفيذها وإحاطة علمه سبحانه بها على الله يسير، فلا شيء يُعجزه سبحانه.

ثم قال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾، ثم بيّن لنا علة هذا الإخبار، حتى لا نحزن على ما فاتنا من أمور الدنيا، ولا نفرح بما أصبنا منها، وطبيعة الإنسان أنه يفرح بالخير إذا جاءه، ويحزن إذا ذهب عنه.

فالفرح المنضبط بالشرع مباح، كما قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]، والمنهي عنه هو الفرح الذي يُؤدي إلى الأشر والبطر، كما قال في قصة قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[القصص:٧٦]، ومثله الحُزن المنضبط بالشرع، فهو مباح.

وأما الحزن الذي يكون تسخطًا على أقدار الله، فهو محرم، وأخبر بأنه لا يحب الاختيال والفخر، وهما من آثار النعمة، والمعنى: ولا تفرحوا فرحًا يُؤدي بكم إلى الفخر والخُيلاء.

والاختيال: حركة مرئية تدل على الكِبر والغطرسة.

والفخر: حركة مسموعة يذكر فيها محاسن نفسه ويمجدها بما يشعرها بالعظمة، والله لا يُحب هذا ولا هذا.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾، المقصود بالبخل هنا: البخل بكل نعمة وكل خير، وفي

الحديث: "البخيل من ذكرت عنده فلم يُصل عليّ"[١]، فجعل ترك الصلاة على النبي ﷺ بعد سماع اسمه بخلًا، والمقصود بالآية اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ وبخلوا ببيان نعته[٢]، وهذا من معنى البخل، فهو أوسع من مُجرد التقتير في المال وعدم إنفاقه، بل يشمل كل من يبخل في فعل خيرٍ وهو قادر عليه، ويشمل كل من يأمر الآخرين بعدم فعل الخير، وكان حجر عثرة في طريق فعل الخير ونشره، فصار مغلاقًا للخير مفتاحًا للشر.

ومن يُعرض ويبتعد عن الإيمان وفعل الخير ولا يدل الآخرين عليه، فقد ضر نفسه؛ لأن الله غنيٌ عن خلقه، حميد على فعله، **وفي الحديث: "إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"**[٣].

وجمع بين اسميه الغني والحميد؛ لأن الغنى في عرف البشر يرتبط به غالبًا الأشَر والبطَر، **كما قال:** ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾[العلق:٦-٧]، وتصرفات الأغنياء فيها ما يُنتقَد غالبًا، وفيها ما لا يُحمَد، بسبب أثر الغنى عليهم، فنفى الله سبحانه ذلك عن نفسه، فهو الغني المحمود عند خلقه بكل حال وعلى كل لسان.

---

(١) مسند أحمد: (٣/ ٢٥٧)، برقم: (١٧٣٦)، ومسند أبي يعلي: (١٢/ ١٤٧)، برقم: (٦٧٧٦)، وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٣٠٨).

(٣) صحيح مسلم: (٤/ ١٩٩٤)، برقم: (٢٥٧٧).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- بيان حقارة الدنيا، وأنها لا تُساوي شيئًا عند الله، وأن الانشغال بها مضيَعة للآخرة.

٢- وجوب الإيمان بالقضاء والقدَر، وهو ركنٌ من أركان الإيمان.

٣- من ثمار الإيمان بالقضاء والقدر؛ الرضى بما قدر الله من خيرٍ أو شر.

٤- من صفات المؤمن أن لا يحزن حزن تسخط على ما فاته، ولا يفرح فرح بطر وأشَر بما أعطاه الله من النعم، بل يكون معتدلًا في هذا وذاك.

٥- البُخل والأمر به صفتان قبيحتان يجب على المسلم أن يبتعد عنها، ولا يوجد داء أخطر منه.

تفسير المقطع الرابع من سورة الحديد

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا
وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ
رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ
اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قـــــول الله تعـــــــالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾، أخبر الله سبحانه أنه أرسل الرسل ببيناتٍ تدل على صدقهم، وهذه البينات قد تكون حسية وقد تكون معنوية،

والمقصود بالبينات الحجج والبراهين والمعجزات، وتنتهي بموت الرسول، كما حصل لسائر الأنبياء، **إلا معجزة نبيّنا محمد** ﷺ، فإنها استمرت بعد وفاته، وستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي معجزة القرآن الذي تحدى الله العرب والعجم أن يأتوا بجزءٍ من سورةٍ من سوره، فلم يستطيعوا، والكتاب هنا اسم جنس، والمقصود به الكتب السماوية التي أوحاها الله سبحانه إلى الأنبياء، وفيها الشرائع والأحكام.

وقد جمع الله للنبيّ محمد ﷺ بين الكتاب والمعجزة، فكان القرآن كتابًا يُهتدى به ومُعجزة تحدى بها قومه، والمقصود بالميزان هنا العدل، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة(١)، حيث أنزلنا أسبابه وموجباته، وأمرناهم به، ليقوم الناس بالقسط، وهو أعم من الميزان المذكور، وهو إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق الذي جاءت به الرسل، فيُنفذونه ويُطبقونه في أحوالهم كلها، فلا يظلم أحدٌ أحدًا.

والإنزال هنا بمعنى الخلق والإيجاد للحديد، **أي**: وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه؛ **فمن فوائده**: أنه يستخدم للردع والتأديب للمخالفين، فعموم الأسلحة تصنع منه، وخاصة الأسلحة القديمة كالسيف والرمح والحربة ونحوها، وبها يكون القتال والمقاتلة، ودفع أهل الباطل، وفيه منافع للناس الموافقين الذين ينصرون الحق وأهله، فيحصل لهم به النصر والغنيمة، وتصنع من الحديد الآلات والأواني الأخرى التي ينتفع بها الخلق، كأدوات الحراثة وأدوات

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧).

الطعام والشراب ونحوها، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس إنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق ويوضع نفعه حيث يليق به[1].

ثم ذكر الحكمة والغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإنزال العدل والحديد وهي أن يظهر في الواقع من ينصر دين الله ورسله وشرائعه، ولفظ (ليعلم الله): في آيات القرآن، كقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٢]، **وقوله:** ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾[آل عمران:١٦٧]، ونحوها، **ومعناها:** تحقق العلم الذي لا يعرفه الخلق ويعلمه الله في الأزل في الواقع؛ لأن الله ﻷ لا يحاسب الناس على ما سيفعلون في علم الله الأزلي، إنما يُحاسبهم على ما عملوه في الواقع، والله ليس بحاجة إلى نصر الخلق، فلا بد أن يكون المعنى من ينصر دينه وشرعه.

وأما نصر الرسول فمتعلق به أمران: نصرُه كشخص بالدفاع عنه وحراسته وحمايته، **ونصر شريعته** في حياته وبعد وفاته، والغيب متعلق بالنصر، **ومعناه:** أن يدافع العبد عن شرع الله ودينه دون رقيب يرقبه من الخلق، بل يفعل ذلك إخلاصاً لله، ودون غرض دنيوي، وهذا يدل عل كمال المراقبة لله سبحانه، لأن بعض الناس قد يظهر للآخرين أنه يُدافع عن الإسلام، وهي في الحقيقة شعارات لهدف دنيوي كجمع الناس حوله، بينما هو في الواقع يحارب المسلمين، فهذا أخطر من المحاربين للإسلام من أعدائه، ثم عقّب على ما سبق بذكر اسمين من أسمائه هما القوي والعزيز، فالله قويّ على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالف أمره ونهيه،

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٤١٧).

وعزيز في انتقامه منهم، فلا يقدر أحد على الانتصار منه مما أحلّ به من العقوبة، وفيه إشارة إلى أنه غني عن نصرتهم، وأنه أراد بأوامره تلك اختبارهم بها.

ثم أخبر سبحانه فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾، أخبر الله بأنه أرسل رسله إلى الخلق، وأولهم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجعل في ذريتهما النبوة، فجميع الأنبياء والرسل من ذرية نوح وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والمقصود بالنبوة هنا: النبوة والرسالة، والفرق بين الرسول والنبيّ؛ أن الرسول معه كتاب، والنبيّ لا كتاب له، والجميع مطالب بالبلاغ، والكتاب اسم جنس، والمقصود به الكتب السماوية التي أنزلت على الرسل، فمن هؤلاء الذرية من آمن واستقام على شرع الله، وهم القلة، وكثير من الذرية كفر وخرج عن الطاعة والإيمان، وهذا أمر واضح في البشرية حتى اليوم، فلو حصرنا سكان الأرض لوجدنا أن القلة منهم مؤمنة، والأغلبية كافرة، فسكان الأرض اليوم حوالي ثمانية مليار نسمة، منهم مليارا مسلمٍ ينتسبون للإسلام، والباقي ستة مليار نسمةٍ كفار يعبدون غير الله.

ثم قال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾، **ثم:** للتراخي والترتيب الرتبي، **فالأنبياء والرسل** لم يكن الواحد منهم يأتي بعد موت الآخر مباشرة، بل يكون بينهم فترة من الزمن، فمثلاً: بين

عيسى ومحمد حوالي سبعة قرون.

والتقفية: إتباع الرسول برسول آخر، مشتقة من القفا لأنه يأتي بعده، فكأنه يمشي عن جهة قفاه[١]، والضمير في آثارهم عائد إلى نوح وإبراهيم وذريتهما، وذكر عيسى ابن مريم استقلالًا بعد ذكره للرسل إجمالاً؛ لأنه آخر الرسل قبل محمد ﷺ، **أي**: أتبعنا جميع الرسل برسالة عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبعدها مباشرةً جاءت رسالة محمد ﷺ، **والإنجيل** هو كتاب عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأوجد في قلوب النصارى الذين آمنوا بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الرحمة والرأفة، وجمع بينهما من باب عطف العام على الخاص، **وقيل**[٢]: الرأفة دفع الأذى وما يضر الإنسان، **والرحمة إيصال الخير إليه بدون ألم، كما قال**: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ [النور:٢]، **ولم يقل**: ولا تأخذكم بهما رحمة، لأن الرحمة مطلوبة في إقامة الحد، فالحد ذاته رحمة، ونهاهم عن الرأفة؛ لأنها دفع الأذى والضرر عنه، والمطلوب هنا أذيته حتى ينزجر ويتوب، وهؤلاء الذين جعل الله في قلوبهم الرأفة والرحمة هم النصارى المؤمنون بعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والباقون على دينهم ولو كان محرّفًا، فهم أرق قلوبًا من الملحدين واليهود، والرهبانية لم يجعلها الله في قلوبهم، وإنما هم ابتدعوها، وبهذا يظهر قُبح البدعة والنهي عنها؛ لأن البدعة مذمومة في كل الشرائع، فهؤلاء القوم النصارى هم الذين ابتدعوا الرهبانية، وسبب ابتداعهم لها أنهم ابتلوا باليهود الحاقدين الذين أذاقوهم سوء العذاب فهربوا

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٧/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: معجم الفروق اللغوية: (ص: ٢٤٦).

منهم إلى رؤوس الجبال وتركوا مخالطة الناس ودعوتهم رهبة وخوفًا من اليهود الذين كانوا يبحثون عنهم، فانزووا في الأديرة والصوامع يتعبدون الله[١]، وهذا الفعل لم يأمرهم الله به ولا شرعه لهم، بل أمرهم بالدعوة والبلاغ ومخالطة الناس، وفي هذا إشارة إلى أن المُتعبد لله بعبادة لم يأمره الله بها ليس بمأجور عليها، والاستثناء منقطع، **وإلا هنا بمعنى**: لكن، **أي**: ما شرعنا لهم الرهبانية، ولكن شرعنا لهم أن يبتغوا رضوان الله بكل عمل صالح، وأنهم هم من شرّعوها لأنفسهم وابتغوا بفعلهم هذا رضوان الله، ولكن كم من مريدٍ للخير لا يُؤجر عليه، وخاصة في باب العبادات التي مبناها على التوقف والاتباع، فكم أُحدث من بدع وخرافات في دين الله، قصد بها محدثوها الأجر والثواب؟!!

والعبادة المشروعة هي التي أمرنا الله بها فلا نزيد ولا ننقص منها، ثم بيّن أن هذه البدعة التي ابتدعها النصارى لم ينضبطوا بها ويأتوا بها كما أرادوا في بدايتها، وظاهر الآية أن جميعهم قصروا في أداء حقها تقصيراً متفاوتًا، **فذمّهم الله من وجهين، الأول**: أنهم ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به الله، **والثاني**: عدم قيامهم بما التزموا به وزعموا أنه قربة يقربهم إلى الله سبحانه[٢]، وهذا يدلك على أن تكليف الإنسان لنفسه بأعمال لم يأمره الله به مكروه، كالنذر، وأن الله حكيم فيما شرع لعباده، وأنه لا يشق عليهم.

ومن آثار هذه البدعة عند النصارى؛ أنهم ألزموا أنفسهم بعدم الزواج، وتفرغوا

(١) ينظر: تفسير القاسمي: (٩/ ١٥٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٩).

للعبادة في الأديرة، فلم يستطيعوا أن يكبتوا شهواتهم، بل فرغوها في الحرام.

وفي الحرب العالمية الثانية لما دمر الحلفاء الكنائس وجدوا في جدران الكنائس أجنة مدفونة فيها، فقد كان الراهب يزني بالراهبة، فتحمل منه فيقتلون الجنين ويدفنونه في جدار الكنيسة؛ خوفًا من الفضيحة!!.

ومع هذا بقي قلة قليلة من النصارى ثبتوا على دينهم الصحيح، واتبعوا الرسول فيما جاءهم به، فأعطاهم الله أجرهم، وأما أكثر النصارى فقد كفروا وخرجوا عن طاعة الله ورسوله، فعقوبتهم في الآخرة تنتظرهم.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٢٨)﴾، **والمقصود بالخطاب في هذه الآية قولان للمفسرين**(١):

الأول أنه لمؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين.

والثاني: أنه للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، وهو الراجح(٢)، لأنه الأصل في خطابات القرآن، **والمعنى**: استمروا على الإيمان بالله ورسوله وتزودوا منه، وحققوا التقوى؛ فإن فعلتم ذلك أعطاكم الله أجراً مضاعفًا.

وأصل الكفل: الحظ والنصيب، **أي**: نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل(٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠٨)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: ٢٣٣٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٢).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢١٤).

والمقصود بالرحمة هنا دخول الجنة في الآخرة، وفيها عظيم الثواب.

وفي الدنيا يرزقكم الله نور العلم، وهو أثر من آثار الإيمان والتقوى، كما قال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[الأنفال:٢٩]، أي: علمًا تُفرّقون به بين الحق والباطل، وتعرفون به الهدى من الضلال، والمقصود المشي المعنوي، أي: يكون العلم وسيلة لسيركم على الحق في الدنيا، فتعيشون به في سعادة واستقامة بعيدين عن كل ما يُخالف شرع الله، فمن أراد الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، فعليه بتقوى الله والإيمان بالله ورسوله، فهو سبب للمغفرة والرحمة ودخول الجنة، ثم ختم الله الآية باسمين من أسمائه هما الغفور والرحيم؛ فمن آثارهما المغفرة لذنوب من أذنب من العباد، والرحمة لمن قصّر منهم.

وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾، (لا): هنا زائدة، أي: صلة، والعرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد، فهذا مما جعل في آخره جحد(١)، واللام هنا لام التعليل، والمعنى: لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على منع غيرهم شيئًا من فضل الله، لأنهم حسدوا العرب أن بُعث فيهم محمد ﷺ، وكانوا يرغبون أن يكون منهم، فحسدهم هذا وغيظهم على المؤمنين لم يمنع الخير عن غيرهم(٢)؛ لأن الفضل والخير بيد الله، يُعطيه من يشاء، ومن فضل الله النبوة التي أعطاها محمداً ﷺ، وفضّل أمته على غيرها

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٢٣٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٦٨).

من الأمم، فهم أقلّ الناس فترة وعملًا وأكثرهم أجرًا، **كما في الحديث**: "إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم؛ كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى؛ كمثل رجلٍ استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط، فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر على قيراط، فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حقكم؟ قالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيه من شئت"[١]، فهذا فضل الله منحه لأمة محمد ﷺ، وفضل الله عظيم مهما أعطى منه فإنه لا ينتهي.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الحق لا بد له من قوة تحميه، حتى يمتثل له الناس؛ لأن بعض الناس لا يمتنع عن الذنب والمعصية بمجرد الموعظة.

٢- بيان مكانة العدل في الشرائع السماوية كلها، فهو أُسها، وبه قامت السموات والأرض.

٣- بيان خطورة الابتداع في الدين، وأن البدعة مذمومة.

٤- بيان حسد اليهود والنصارى لمحمد ﷺ ولأمته، وأن حسدهم وغيظهم على المؤمنين لم يمنع الخير عنهم؛ لأن الفضل والخير بيد الله، يُعطيه من يشاء.

---

(١) صحيح البخاري: (٦/ ١٩١)، برقم: (٥٠٢١).

تفسير جزء المجادلة

(٢٨)

تفسير سورة المجادلة

تفسير المقطع الأول من سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ
يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ
اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾.

شخصية السورة:

سورة المجادَلة؛ بالفتح: اسم للقصة أو الحادثة، أو المجادِلة بالكسر: اسم للمرأة التي جاءت تُجادل[١]، وهي سورة مدنية[٢]، **والمقصد العام لهذه السورة**

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي: (١٤/ ١٩٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٤).

هو: بيان علم الله الشامل وإحاطته بالخلق وما يجري في هذا الكون، وتحذير الناس من مخالفته، وتربيتُهم على مراقبته والخوف منه تعالى.

وقد ورد في سبب نزولها(١)، أنها نزلت في رجلٍ من الأنصار وزوجته، أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وزوجته خولة بنت ثعلبة، وذلك أن أوسًا كان رجلًا قد كبُر سنُه وأصابه شيء من اللمم وهو سرعة الغضب والحنق، فدخل ذات يومٍ على زوجته فطلب منها شيئًا فلم يجد، فغضب فقال: أنتِ عليّ كظهر أمي، ثم بعد لحظاتٍ أراد أن يستمتع بها، فقالت: والله لا تقربني حتى يحكم الله بيني وبينك. فذهبت إلى رسول الله ﷺ، فوجدته في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: يا رسول الله! إن أوسًا قد ظاهر مني، وإن لي منه عيالاً صغاراً، فإن تركتُهم إليه ضاعوا وإن أخذتهم معي جاعوا، وكان في بداية الإسلام الظهار تحريمًا، وكان في الجاهلية طلاقًا، فقال لها النبي ﷺ: **"ما أراك إلا قد حرُمتِ عليه"**، فقالت: إني أشكو إلى الله حالي وضعف قوتي، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تغسلُ شق رأس رسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه الوحي ثقُل، فأشارت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى المرأة أن اسكتي، ثم أفاق النبي ﷺ، فقال: **"أبشري يا خولة! فقد جاءك خيرٌ من الله"**، ثم تلى عليها هذه الآيات، ثم دعا الرجل، فقال له: **هل تستطيع أن تعتق رقبة**، فلم يقدر، فقال له: **هل تستطيع الصوم**، فلم يقدر، فقال له: **أطعم ستين مسكينًا**، قال: والله لا أستطيع، إلا أن تُساعدني، فأعطاه النبي ﷺ شطر وسق، **أي**: ثلاثون صاعًا من التمر، فقال: **"أطعم بهذا"**، فقال: والله

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢١٩)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٨/ ٧٧).

إني فقيرٌ، فقال له: "**كُلْهُ أنت وأهلك**"، فسقطت عنه الكفارة لعجزه، وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.

وبدأت السورة بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾، قد للتحقيق، **بمعنى**: قد تحقق سماع الله جلّ وعلا لشكوى المرأة ومحاورتها لرسول الله ﷺ، وهي خولة بنتُ ثعلبة، في شأن المشكلة التي حصلت من زوجها، وهو أوس ابنُ الصامت، ولمّا لم تجد جوابًا من رسول الله ﷺ، بل كان يُردد عليها: "**ما أراك إلا قد حرُمتِ عليه**"، شكت أمرها وحالها إلى الله تعالى، فرحمها الله وأنزل فرجًا لشكواها وجوابًا لمشكلتها، والمجادلة هي المحاورة، ولكن هناك مجادلة مشروعة وهي الجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦]، وهناك مجادلة غير مشروعة وهي الجدال بالباطل، كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾[الحج:٣]، فهذا الجدال الذي لا حجة فيه ولا برهان، أو الجدال الذي يكون المقصد منه إبطال الحق، ويُسمى المِراء، فنسب في بداية الآية الجدال إلى المرأة؛ لأنها كانت حريصة على حل مشكلتها، وفي نهاية الآية سماه حواراً؛ لأنه لا يصلُح أن تُسمى إجابة النبي ﷺ مجادلةً، بل هي محاورة، **والمحاورة هي**: الكلام الهادئ الذي يُوصل به إلى الحق والصواب، وختم الله سبحانه الآية باسمين من أسمائه الحسنى التي توصف بالحسن والجمال والكمال، ولا تُشبه ولا تماثل صفات وأسماء المخلوقين، فنثبتها له على ما يليق بجلاله، ولا نشبهه بالمخلوقين ولا ننفي عنه صفة السمع

والبصر التي أثبتها لنفسه، **فنقول**: إن الله يسمع ويُبصِرُ سمعًا وبصرًا يليق بجلاله بلا تشبيه ولا تمثيل، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى:١١]، وذكرهما توطئة قبل ذكر الحكم الشرعي، ليشعر السامع أن حكمه متصف بالحكمة والعدل؛ لأنه جاء من سميع بصير.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾، هذا إخبارٌ عن حال بعض الناس من المسلمين، حيث يقع منهم هذا القول، وهو الظهار من زوجاتهم اللاتي دخلوا بهن، فإن كلمة ﴿نِّسَآئِهِم﴾ تُعطي معنى الحِلِّية، ولو ظاهر إنسان من امرأة لم يتزوجها لا يقعُ منها ظهار ولا يقع منها طلاق، لأنها ليست من ضمن نسائه التي أحلها الله له بالعقد والميثاق، ثم أخبر أن هؤلاء الزوجات لسنَ أمهات للأزواج، فزوجة الرجل ليست في الواقع أمّـًا له، فزوجتُه شيء وأُمُّه شيء آخر، والأُمُّ الحقيقية هي التي ولدت وحملت، وهناك أمٌ لها حكم الأمومة لأنها أرضعت فقط، ولم تحمل ولم تلد، وهي الأم من الرضاع، كما قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾[النساء:٢٣]، **وقول الزوج لزوجته**: أنتِ عليّ كظهر أمي، فجعل زوجته مثل أمه في التحريم، فهذا القول في الشرع منكر وزور، ما الفرق بين المنكر والزور؟ المنكر تمثيل الرجل زوجتَه بظهر أمه الذي يركب عليه، فهذا منكر في حق أمك، وأما الزور فهو الكذِب، فزوجتك لم تلدك، ولا حملت بك، فاجتمع في هذا القول قبيحتان: نكارة اللفظ، وخلافُ الواقع وهو الكذب، فإن الكذب هو الإخبار بما يُخالف

الواقع، وختم الله تعالى الآية باسمين هما العفو والغفور، ليدل على أن هذا الفعل ذنب يحتاج إلى توبة من العبد، والعفو: إزالة الأثر، والمغفرة: تغطية أثر الذنب، فجمع بين هذين الاسمين، تحبيباً للتائب في التوبة، فهو يمحو الذنب ويُغطي الزلة ويسترها على العبد، وإرشاداً للناس أن يعودوا إلى الله ولا يقنطوا من ذنوبهم ولا من معاصيهم.

ثم جاءت الآيات التي بعدها لتبيّن كفارة الظهار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾، ثم أخبر عن من يقول منهم لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمي، ثم يريد أن يستدرك على قوله هذا ويُبطله، ويعزم على العودة إلى جماعها والاستمتاع بها، وهو قد حرمها مثل أمه، فهذا لا يجوز له حتى يُكفِّر، والكفارة على الترتيب أي: لا يجوز لك أن تنتقل إلى الثانية إلا إذا لم تستطع الأولى، وهي: إعتاق عبد وتجعله حراً لوجه الله، وهل يُشترط أن تكون الرقبة مؤمنة أو لا؟ قولان للعلماء[1]، منهم من أخذ بآية التقييد، في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، فاشترط أن تكون الرقبة مؤمنة، ومنهم من لم يشترط، ولا يوجد عبيد في هذا العصر، ولا يصلح أن نقيس عليها دفع ديةٍ عن شخص مسجون عليه دية، فتحرير الرقبة شيء، ودفع الدية وعتقه من القتل شيء آخر، ولا بد أن يكفّر الرجل قبل أن يمس زوجته، والمس المقصود به الجماع ومقدماته، مثل القُبلة والعناق والمداعبة، ونحوها، فهذا كله ممنوع على المظاهر حتى يُكفِّر،

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢١٩).

وهذا الحكم فيه وعظ للناس، والمقصود به الترغيب والترهيب، وهو ما يخوفنا بالله أو يرغبنا فيه، وختم الآية باسمٍ من أسمائه الحسنى وهو الخبير، ليُشير إلى أن الله يعلم دقائق وجزئيات الأمور وخبايا النفوس، والمعنى: فلا تخدعوا أنفسكم، فالله مطلع عليها.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، أي: من لم يجد رقبة يعتقها، لعدم وجودها، أو ليس عنده قيمتها، فينتقل إلى الصيام، وهو عبادة بدنية، وتلك عبادة مالية، فيصوم شهرين متتابعين، قبل أن يمس زوجته، فيسرد صومها دون انقطاع، ويجوز له الفطر لعذر، كأن يكون مريضًا لا يستطيع أن يصوم بسبب المرض، أو أن يُصادف صيامُه بعض الأيام المحرّم صومها، مثل يوم عيد الفطر، وأيام عيد الأضحى.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، أي: لا يستطيع الصوم لمرضٍ مزمنٍ فيه، أو لسبب آخر، فمن لم يستطع فينتقل إلى الإطعام، فيُطعم ستين مسكينًا، إما أن يجمعهم ويُطعمهم وجبةً واحدة مُشبِعة لهم، أو يُخرج نصف صاعٍ من بُر أو أرزٍ أو زبيب أو تمر، من القوت الذي يطعم منه، والصاع اثنان كيلو ونصف تقريبًا، ونصفه كيلو وربع لكل مسكين، أي: خمسة وسبعون كيلو جرام مما تأكل أنت وأهلك أغلب الوقت، كما قال: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾[المائدة:٨٩]، ومن أهل العلم[١] من أجاز أن تُعطي هذا الطعام كله لأسرة فقيرة أو لأسرتين أو لثلاث حتى لو لم يكن عدد هذه الأسرة ستين فإنهم

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٢٨٧).

سيأكلونه عدة مرات فيُؤدي ذلك إلى وصول العدد إلى ستين، وبعض أهل العلم يقول أن كلمة ﴿سِتِّينَ﴾ مقصودة لذاتها فلزم أن يدخل هذا الطعام الذي أخرجته إلى بطن ستين مسكينًا، ولا يصلُح أن تُطعم عشرة مساكين ستة أيام، والراجح الأول؛ لأن فيه تسهيل وتيسير على الناس، ولم يذكر هنا شرط التكفير قبل المس لزوجته، فدل على جواز المس قبل التكفير، والحكمة، والله أعلم، أن تناول الطعام الذي يخرجه المظاهر، لم يعد عملاً للمظاهر بل هو عمل المسكين الذي استحقه، فلم يعلق الحكم بعمل غيره.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾، أي: هذا الحكم يدفعكم للاعتقاد الجازم بالله وأن هذه هي أحكامُه، وأن الرسول مُبلغ لهذه الأحكام، وهي حدود الله، فلا تتجاوزها، بل امتثلوا لها واجتهدوا في تطبيقها، ثم ختم هذه القصة ببيان أن الله قد أعد للكافرين عذابًا أليمًا، والعلاقة لذكر عذاب الكافرين بقصة الظهار، لأن هذا الفعل كان من أفعال الكافرين في الجاهلية، ولأن مخالفة أوامر الله وتعدي حدوده من صفات الكافرين الذين لا يُعظمون الله ولا يمتثلون أمره، والمعنى: لا تتشبهوا بهم في أفعالهم المخالفة لأمر الله وشرعه.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لما ذكر الكافرين في نهاية قصة الظهار، كان ذكرُ ذلك كالتوطئة لما يأتي بعده من صفات الكافرين، **والمحادة**: المشاقة والمعاداة، أي: يُعادونه، ويُخالفون أمره، فيصير أمر الله ورسوله في جهة، وفعلهم في جهة أخرى، فكان جزاؤهم على ذلك

الإهانة والذل والخزي، كما حصل لكل الأمم المكذبة قبلهم، وهذه قاعدة مطّردة، فكل من خالف أمر الله، وعصى الله، فهو ذليل في نفسه، وإن تعاظم في مظهره وحاله، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾[المجادلة:٢٠]، وفي الحديث: **"وجُعل الذِلُّ والصغار على من خالف أمري"**[1].

وقوله: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾، أي كذبوا بالآيات الواضحات، من المعجزات والبراهين والحجج التي تدعوهم إلى الإيمان، فأعد الله لهم بسبب ذلك العذاب المهين، وأخبر هنا عن نوعين من العذاب: أحدهما حسي يُؤلم الجسد، ووصفه بالأليم، والثاني معنوي يُهين النفس؛ ووصفه بالمهين.

ثم قال الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾، أي: في يوم القيامة سيبعث الله كل المكذبين من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، ويجمعهم في عرصات القيامة ويُخبرهم بأعمالهم التي أحصاها الله تعالى عليهم وكتبها في صحائفهم في الدنيا، ويعرضها عليهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:٤٩]، والإحصاء أبلغ من مجرد الكتابة، لأن الإحصاء معناه الدقة في معرفة العدد، ومعرفة نوع كل سيئة، ومعرفة نوع كل حسنة، ومجموعها إفرادًا وجمعًا، والكتابة إجمالًا، وطبيعة الإنسان النسيان، فينسى معاصيه وذنوبه وأفعاله، ولكن الله لا ينسى، كما

(١) مسند أحمد: (٩/ ٤٧٨)، برقم: (٥٦٦٧)، وإسناده صحيح.

قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[مريم:٦٤]، ولذلك يُفاجأ الإنسان بذنوب وجرائم كان قد نسيها، والسبب في ذلك الغفلة وعدم المحاسبة، ولذلك يُشرع أن يُحاسب الإنسان نفسه كل ليلة حتى لا ينسى ذنوبه، فقبل أن تضع رأسك على الوسادة، وتنام تذكر ماذا عملت من الفجر إلى الليل، واستغفر وتب وارجع إلى الله، ونم على توبة واستغفار ومحاسبة للنفس، وختم الله هذه الآية بتذكير الخلق أن الله حاضر وشهيد ورقيب وحفيظ على كل شيء، ولا يغيب عنه شيء من أحوالهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ – لطف الله تعالى بالمستضعفين من خلقه، فيسمع شكواهم ويستجيب دعاءهم.

٢ – تنوّع الكفارات تيسير ورحمة من الله تعالى بالخلق.

٣ – ختم الله آيات الظهار بذكر الكافرين والعذاب الأليم لهم ليُشير إلى أن هذه الأفعال قبيحة، وأنها من أفعال وعادات الكفار، وأن المسلم يجب عليه أن يبتعد عنها.

تفسير المقطع الثاني من سورة المجادلة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ
يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ
يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا
لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ
وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟
فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن
لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

﴿أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾، هذه توطئة لبيان علم الله تعالى المحيط بالكون كله، فهو يعلم ما في السموات وما في الأرض من الجزئيات والكليات، وسع وأحاط بكل شيءٍ علمًا، ثم أخبر عن علمه بأسرار النجوى، **وهي**: الحديث الخاص الذي يجري بين شخصين أو أكثر سرًا دون أن يعلم من حولهم(١)، فما يكون من حديث بين ثلاثة ولا أدنى من الثلاثة وهم الاثنان، ولا أكثر من الخمسة، إلا كان الله معهم بعلمه وإحاطته، فالله مستوٍ على عرشه بذاته، ولكن علمُه أحاط بالمخلوقات في كل مكان وزمان، وحال، وأنهم لن يخفوا عن علم الله وإحاطته بكل أحوالهم، ثم هو سيخبرهم يوم القيامة بأعمالهم التي عملوها، وأسرارهم التي قالوها، واعتقاداتهم التي كانت في صدورهم، فالله مطّلعٌ عليها جميعًا، ما أخفوا منها وما أعلنوا، وختم الله الآية بالعلم كما بدأها بالعلم، وهذه قرينةٌ تدل على أن المقصود بالمعية هنا معية العلم والإحاطة(٢)، **وهناك أدلة أخرى تفيد ذلك، مثل قول الله لموسى وهارون**: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، ففسر لنا المعية هنا بمعية السمع والرؤية، وهي الإحاطة والعلم والإدراك.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾، **وحكم النجوى**: لا يُقال إنها محرمة بإطلاق، ولا يُقال إنها جائزة بإطلاق، وإنما يكون حكمها بحسب نوعها، فمن تناجى بالإثم

---

(١) ينظر: تاج العروس (٤٠/ ٣٠).

(٢) ينظر: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لابن تيمية:(ص: ٧١).

والعدوان فقد وقع في محرم، ومن تناجى بالبِر والتقوى فقد وقع في شيءٍ جائزٍ أو مستحب، كما قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:١١٤]، والذين نُهوا عن النجوى هم اليهود والمنافقون معًا[١]، فالسورة والآية مدنية، وكان يوجد هذان الصنفان في المدينة معًا، وكانوا يتناجون مع بعضهم؛ فعادوا إليها مرةً أُخرى، بعد أن نهاهم الله عنها، وتناجوا فيما بينهم بالإثم والعدوان، والإثم هو الذنب الذي بين العبد وبين الله، كما في الحديث: **"الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطّلع عليه الناس"**[٢]، **والعُدوان**: هو الذنب الذي بين العبد وبين الخلق؛ لأنه اعتداء عليهم، ومعصية الرسول، عدم طاعته في فعل المأمورات وترك المنهيات.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾، وإذا حضروا مجلسك، أو مروا بك، ردوا عليك تحيةً غير التحية التي حياك الله بها، من خلال تحريف لفظها، فقد كان اليهود إذا مروا على رسول الله ﷺ يقولون: السام عليك، يحذفون اللام، ويُدغمون الكلام، فيظهر للسامع أنهم يقصدون السلام، **وكان النبي** ﷺ **يقول: "وعليكم"**، لمعرفته بما قالوا[٣]، وفي يومٍ من الأيام مروا على النبي ﷺ وكان معه زوجتُه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالوا: السام عليك يا محمد، فقال:

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٩١).

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ١٩٨٠)، برقم: (٢٥٥٣).

(٣)ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٢٩٢).

"**وعليكم**"، فقالت عائشة: "وعليكم الموت واللعنة"، فقال النبي ﷺ: "**يا عائشة مهلًا، إن الله لا يُحب الفُحش ولا التفحش**"[١]، قالت: "ألم تسمع ما قالوا؟ قال: بلى، سمعت وقد رددت عليهم، فقلت: وعليكم"، وهذا من حسن خُلقه ﷺ، فإنه لا يزيد على أن يرد السيئة بمثلها، ويكفيهم أن دعاءهم غير مستجاب فيه، ودعاؤه مستجاب فيهم، ولهذا يُشرع لو رد عليك يهودي أو نصراني السلام أن تقول: وعليكم، فقط، فإن كان صادقًا فقد رددت عليه التحية، وإن كان كاذبًا فقد رددت عليه ما قال لك، وهؤلاء الذين كانوا يُحيون الرسول بهذا اللفظ كانوا يقولون: لو كان كلامنا غلطًا لعاجلنا الله بالعقوبة، وهذا من سوء فهمهم، فليس كل من أذنب ذنبًا عاقبه الله مباشرة، فالله يُمهل ولا يُهمل، كما قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[يونس:١١]، فرد الله عليهم سوء فهمهم هذا بأنكم لا تعرفون أن العقوبة الأُخروية أخطر وأعظم من العقوبة الدنيوية فما ينتظركم في الآخرة أعظم فجهنم كافية لكم، وإليها مصيركم، وفيها مقامكم جزاء لأفعالكم القبيحة في الدنيا.

ثم قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ **أي**: لا تتشبهوا بالمنافين واليهود حينما يتناجون بالإثم والعدوان وعدم طاعة الرسول، واجعلوا نجواكم بالبر والتقوى، **والبِر هو**: فعل كل عملٍ صالح، والتقوى: اجتناب كل عمل سيء، **أي**: اجعلوا نجواكم في التواصي على الخير والعمل به، والتواصي بترك

---

(١) مسند أحمد: (٦/ ٢٢٩)، برقم: (٢٥٩٦٦)، وإسناده صحيح.

الشر وعدم العمل به، فالبِر هنا فعل الخيرات، والتقوى ترك المنكرات، ثـم وعظهـم بأن يتقوا الله، وهو مراقبته في السر والعلن؛ لأن التناجي عمل خفي إن لم تُراقب الله تعالى فيه، فيمكن أن تقع في أشياء سيئة، فاجعل رقيبك الله تعالى الذي يطّلع على السر والعلن، فالجميع راجعون إليه وموقوفون بين يديه.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، **أي:** مصدرها من الشيطان، وهي النجوى المشتملة على الإثم والعدوان ومعصية الرسول، وهي النجوى المُحرمة، فإن العمل الخبيث يُنسب غالباً إلى الشيطان، **كما في الحديث:** **"العجلة من الشيطان"**(١)، والنجوى المستحبة المشروعة، وهي المشتملة على البر والتقوى وطاعة الرسول، والعمل الطيب يُنسب غالباً إلى الله، **كما في الحديث:** **"والتأنّي من الله"**(٢)، فالشيطان يُزين الكلام السيء ويحسنه لأوليائه، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[فاطر:٨]، لأنه تسلط عليهم فأصبح كلامُهم وسرهم ونجواهم كلها في خدمة الشيطان، بينما أولياء الرحمن لم يتسلط عليهم فتصير نجواهم في طاعة الله ورضى الرحمن تعالى.

وقوله: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، **أي:** بالتناجي الذي من الشيطان، وخاصة في أيام الفتن والحروب، حيث يأتي الشيطان إلى المؤمن؛ فيُوسوس له ويقول له: فلان وفلان اللذان يتناجيان هناك، هما يتآمران عليك ويُريدان قتلك، أو

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي: (٤/ ٨٩)، برقم: (٤٣٦٧)، وحسنه الألباني، في صحيح الجامع، برقم: (٣٠١١).

(٢) المصدر السابق.

أذيتك، فيحزن المؤمن ويخاف منهما.

وقوله: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾، أي: لن يحصل للمؤمن ضرر منهما إلا إذا أذن الله به، ولن ينفرد الشيطان وأولياؤه بمضرة المؤمن دون إذن الله، وإذا أراد المؤمن أن لا يُحزنه الشيطان بالنجوى، فعليه بالتوكل على الله، والاعتماد عليه، وربط التوكل بالإيمان؛ لأن التوكل من شروط الإيمان، ومن لم يكن عنده توكل على الله فإيمانه ناقص بقدر ما نقص من توكله على الله، والتوكل من العبادات التي لا يشترك فيها غير الله، فتفويض الأمر لا يكون إلا لله تعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ﴾، هذا أدبٌ من آداب المجلس، **ما السر في ذكر آداب المجلس وسط الحديث عن النجوى؟** **الجواب**: لأن أكثر النجوى تكون في المجالس وعند اجتماع الناس؛ فأمرهم الله ببعض آداب المجالس ومنها التفسيح، سواءً قال لكم ذلك رسول الله إذا كنتم في مجلسه، أو قال لكم صاحب البيت، أو قال لكم شخص من الأشخاص حينما يزدحم الناس ولا يجدون مكاناً يجلسون فيه، لأن بعض الناس، إذا جلس استولى على مجلس اثنين ولم يأخذ قدره من المجلس، **فإذا قيل لكم**: وسّعوا لبعضكم في المجلس فافعلوا.

وقوله: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾،ربط الجزاء من جنس العمل، وهذه قاعدة مطّردة في كثير من نصوص القرآن كما قال: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾[النبأ:٢٦]، **وقوله**: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠]، فالجزاء من جنس العمل، ولم

يذكر نوع الإفساح الذي يمنحه الله للعبد، وتركه مطلقًا، ليشمل الحياة الدنيا والآخرة، ويشمل الحسي والمعنوي.

وقولــه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾، **وإذا قيل لكم**: ارتفعوا أو قوموا[١]، فأحيانًا قد يُطلب منك أن تقوم من مجلسك لمن هو أولى منك، وقد أشارت الآية إلى نوعين ممن يجوز أن يُفسح لهما أو يترك المكان لأجلهما، وهو من سبقك في الإيمان، وهذا يُقصد به غالبًا كبار السن، ومن سبقك في العلم، فهذان وصفان لهما الأولوية للجلوس في المجلس، والأفضل أن تقوم من نفسك تقديرًا وإكرامًا لهما، كما جاء في **الحديث**: **"ليس منا من لم يوقر كبيرنا"**[٢]، سواءً كان كبير العلم أو كبير السن، وهذه من الآداب المهمة في المجالس وفي غيرها من الأماكن أن يُقدَّر من يستحق التقدير، ولا يليق بالشخص الداخل أن يأتي إلى شخص جالس قبله ويقول له: قم لأجلس، لكن لو ابتدأته أنت فقُمت وأجلسته فهذا من حسن الأدب، وبينت الآية أسباب الرفعة عند الله، وهي العلم والإيمان، وفيها إشارة وتلميح للناس أن يعطوهم مكانتهم وقدرهم، وهذا العمل يطلع عليه الله ويجازي على نية صاحبه، فأخلصوا نياتكم في فعله، فقد تقوم من المجلس إحراجًا وأنت كاره، وقد تقوم طائعًا مخلصًا لله ممتثلًا لأمره، والذي يعلم نيتك هو الخبير تعالى، ولذلك وعظنا بذكر اسمه الخبير؛ حتى نُصلح نياتنا وأعمالنا

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٣٤٨).

(٢) مسند أحمد: (١١/ ٥٢٩)، برقم: (٦٩٣٧)، وإسناده صحيح.

لله دون رياء ولا سمعة، ونحتسب الأجر والثواب منه سبحانه.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وهذه الآية جاءت لتحل مشكلة اجتماعية، وذلك أن النبي ﷺ من حسن خلُقه وكريم خصاله لا يرد أحدًا إذا جاء يتكلم معه على انفراد، فكان يأتيه الكبير والصغير، والمرأة والأعرابي، ويطلبون مناجاته، والكلام معه على انفراد، فأدى ذلك إلى كثرة تردد الناس على رسول الله ﷺ، فشق عليه ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفًا عليه[(١)]، وتأديبًا للنفوس بالمال، وهي تحبه، والمعنى: من أراد أن ينفرد بالنبي ﷺ، ليُحدثه سرًا، فليقدّم صدقة قبل ذلك، فهو خير لكم في الأجر والثواب، وأطهر لنفوسكم، وقد جاء في بعض الآثار: أن هذا العمل لم يعمل به إلا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين نزلت الآية[(٢)]، وكان في جيبه دينار فصرفه بعشرة دراهم ثم أتى بدرهم فتصدق به لمحتاج، وجاء إلى رسول الله ﷺ وتحدث معه سرًا، ثم ما لبث أن جاء بعد ذلك النسخ للآية.

وفي هذه المسألة حكمان[(٣)]: التخصيص، والنسخ، فالتخصيص في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾، فالذي ليس معه شيء فلا حرج عليه ابتداء، **والنسخ في قوله:** ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا في حق القادر على الصدقة، **أي:** عفا عنكم، ورفع عنكم هذا الحكم.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٤/ ٣١٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٤٨).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٢٧).

وقولـه: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾، **أي:** وحيث قد أسقطنا عليكم وجوب الصدقة قبل النجوى، فاهتموا بفعل الفرائض الواجبة، وذكر لهم هنا فريضتين هما: إقامة الصلاة وهي عبادة بدنية، وإيتاء الزكاة الواجبة وهي عبادة مالية، وأمرهم بالطاعة المطلقة لله ولرسوله في باقي الأحكام.

وختم الآية، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾، وفي الآية التي قبلها ختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، **ما الفرق بينهما؟ الجواب:** إذا كان ما قبلها يتعلق بأعمال القلوب، فيُقدم لفظ خبير وبصير على العمل، وإذا كان ما قبلها يتعلق بالأعمال الظاهرة؛ فيُقدم العمل على لفظ خبير وبصير، فالتفسح في المجالس عمل ظاهر، فقدم العمل على لفظ خبير، والإشفاق عمل قلبي، فقدم لفظ خبير عليه، ووعظهم بهذا الأسلوب حتى يفعلوا ذلك بنية صادقة من قلوبهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- إحاطة علم الله تعالى بخلقه، مع أنه مستوٍ على عرشه.

٢- تحريم النجوى المشتملة على الإثم وإباحة النجوى المشتملة على البِر والطاعة.

٣- من آداب المجالس التوسع وإعطاء أولوية الجلوس لأهل العلم وكبار السن.

٤- جواز فرض الغرامات المالية لتأديب النفوس، خاصةً التي لا تنضبط.

تفسير المقطع الثالث من سورة المجادلة

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾، **الخطاب لنبينا محمد** ﷺ، وقد تكون الرؤيا قلبية بمعنى العلم، وقد تكون الرؤية البصرية إذا كان الأمر متعلقـًا بشيءٍ محسوس،

وكأن هذا الخطاب للتعجب، **والمعنى**: هل علمت يا محمد بأولئك القوم من المنافقين الذين يُوالون ويُحبون ويُناصرون اليهود، فهم الذين وُصفوا بغضب الله، كما قال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:٧]، وهناك علاقة متينة بين المنافقين واليهود، وما أشبه الليلة بالبارحة! فإنك تجد المنافقين اليوم على طول العالم الإسلامي وعرضه وشرقه وغربه يُمالئون اليهود ويتعاونون معهم، ويُحبونهم ويُناصرونهم، وما ذلك إلا لأخوة الدين بينهم، وإن أظهر المنافقون الإسلام فهم في الباطن كفار، وهم طرفٌ ثالث، فلا صدقوا في الإيمان فصاروا مؤمنين كمن آمن بالله ظاهرًا وباطنًا، ولا صدقوا في الكفر فصاروا كافرين كمن كفر بالله ورسوله ظاهرًا وباطنًا، فصاروا فرقةً ثالثة، وإذا سألهم المؤمنون لِمَ تُوالون أعداء الله من اليهود والنصارى؟ فإنهم يحلفون أيمانًا مُغلظة على أنهم ما فعلوا ذلك، كي يُبرروا موقفهم؛ خشية أن تظهر أحوالُهم وأسرارهم مع أعداء الله ورسوله.

ثم قال الله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾، والعذاب الشديد الذي أعده الله لهم، هو الدرك الأسفل من النار، فهم في درجةٍ سُفلى من العذاب أشد من الكافر الأصلي، **كما قال**: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء:١٤٥]، لخطورتهم على الإسلام وأهله، فعملُهم كله سيء، **وقد يقول قائل**: والصلاة التي يُصليها المنافق مع المسلمين، والصوم، والذكر، وقراءة القرآن التي يفعلها أحيانًا؟ فهذه ظاهرُها عمل صالح، لكنها في حقيقتها عمل سيء؛ لأنها فعلت للخداع والمكر، وكانت غير خالصة لوجه الله!

قولـه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾، وهـذه طبيعة النفاق والمنافقين في كل عصر ومِصر، يُكثرون من الأيمان لتبرير مواقفهم خشية أن يُفضحوا، ويتخذون ذلك وقاية لهم وغطاء تُخفي علاقتهم بالكافرين، كما أنهم صدوا بأفعالهم القبيحة أنفسهم عن الإيمان الحق بسبب نفاقهم، وصدوا غيرهم عن الإيمان؛ لأنهم في الظاهر مسلمين ومن يراهم من غير المسلمين ويُريد أن يُسلم، لا تعجبُه تصرفاتِهم السيئة؛ فيترك الإسلام بسببهم، فتوعدهم الله على ذلك بالعذاب المهين في الآخرة، ونوّع لهم العذاب بين نفسي وجسدي؛ لتنوع مكرهم وخداعهم، ومواقفهم.

وقولـه: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾، فقد كان سبب نفاقهم حبهم للمال والولد في الدنيا وشغلتهم عن الإيمان، ظناً منهم أن المال والولد سينفعهم في الآخرة، فبين الله لهم أنه لا منفعَة لهم في الآخرة بالمال والولد، وإن من اتصف بالنفاق والشرك سيكون مصاحباً للنار لا يُفارقها، فهي ملازمة لهم، ولن يخرجوا منها بل يُخلدون فيها أبد الآبدين.

وقولـه: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾، وفي يوم القيامة يبعث الله المنافقين جميعًا بين يديه، فإذا بُعثوا وقاموا من الحشر، قاموا يحلفون بين يديه كذبًا، كما كانوا يفعلون ذلك في الدنيا[1]، ومن مات على شيء بُعث عليه، **كما جاء في الحديث**: "أن رجلًا مات مُحرمًا، فقال النبي ﷺ: **"لا تُغطوا وجهه ولا تمَسوه بطيب فإنه يُبعث يوم**

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٣٠).

القيامة مُلبيًا"[١]، وهكذا من مات على المعصية والذنب والكذب؛ يبعث عليه، فهؤلاء كانوا يغالطون الخلق ويحلفون كذبًا باعتبار أن الخلق لا يعلمون الغيب، ويريدون فعل ذلك مع الخالق سبحانه، وبين يديه يوم الحشر!!، وهذا من جهلهم وقلة فقههم، فهذا الله الذي يعلم السر وأخفى، ويظنون أن هذا الفعل منهم سيُنجيهم، وأنه سيكون حجة لهم، وهذا من خداع المنافقين لأنفسهم، كما قال الله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾[البقرة:٩]، فعقب الله عليهم بأن فعلهم هذا لا ينفعهم، وأنهم كاذبون في هذا التصرف في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾، ذكر هنا سبب وقوعهم في النفاق، بأن الشيطان قد غلب عليهم وتسلط على قلوبهم وعقولهم وأفكارهم وأهوائهم، فأنساهم بوسوسته ذكر الله، بمعناه الخاص الذي هو الذكر المطلق لله، أو بمعناه العام الذي هو الإيمان والطاعة والامتثال، وتمكنت وساوس الشيطان من قلوبهم، ومن كان هذا حالُه فقد صار من أتباع الشيطان وداخلًا في عِداد حزبه، وحزبُ الشيطان موعودٌ بالخسارة، وإن ظهرت بوادر النصر له أحيانًا فهو نصر مؤقت؛ لأن العاقبة للمتقين، وقد وعد الله بأن يكون النصر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وقد ذُكر لنا في هذه السورة الحزبية بمعنيها: المعنى المذموم وهو المنسوب إلى الشيطان، والمعنى الممدوح المنسوب إلى الرحمن، فدل ذلك على أن

(١) صحيح البخاري: (٢/ ٦٥٦)، برقم: (١٧٥٣).

التحزّب لا يُمدح ولا يُذم مطلقًا، وإنما يُمدح ويُذم بحسب ما أُضيف إليه، فمن تحزّب على الشر والباطل، فحزبيتُه باطلة ومذمومة، ومن تحزّب على الخير والحق، فحزبيتُه ممدوحة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾، **المحادة** هي المشاقة والمعاداة، والإعراض عن طاعة الله وشرعه، فهؤلاء معاقبون بالذلة، وهو رعبٌ يقذفه الله في قلب العاصي والكافر والمنافق، مهما امتلك من العدة والعتاد، فهو مغلوب ومقهور، والعاقبة للمؤمنين، كما ترون الآن من حال اليهود في فلسطين، وقد منحهم الغرب العدة والعتاد، وامتلكوا من الأسلحة الفتاكة ما لم يمتلكه المسلمون، **ولكنهم بمجرد أن يصرخ فيهم المسلم بقول: "الله أكبر"** حتى ترتعش قلوبُهم ويهربون وهم مدججون بالأسلحة.

وقد سمعتم خلال الخمسة الأيام الأولى لانطلاقة معركة طوفان الأقصى، في يوم السبت ٧ أكتوبر ٢٠٢٣م، إلى اليوم ذلك العويل والصياح والخوف والرعب الذي أصاب اليهود، مع أنهم يملكون الدبابات والمدفعية والطيران وغيرها، ألق نظرة على الصور المنقولة من (تل أبيب) لليهود وهم يتصارخون ويبكون يجرون في الشوارع بمجرد أن يسمعوا صفارات الإنذار، وألق نظرة على الصور المنقولة من غزّة للمؤمنين وهم يأخذون موتاهم ويبحثون عنهم تحت الأنقاض، وكيف معنوياتهم، وكيف منطقهم، وكيف تعاملهم مع الحدث؟ يختلف تمامًا، فهؤلاء يعيشون حالة من الصبر والاحتساب والرضا بالله، وانتظار الأجر والثواب منه، وكلٌ يودع شهيدَه، وأولئك في ذعر وخوف

وهلع مع أنهم أكثر عتادًا وعدة.!!

وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾، كتب بمعنى قضى قضاء ثابتًا، وغلبة الرسل على نوعين: من بعث منهم بالحرب، فهو غالب في الحرب، ومن بعث منهم بغير حرب، فهو غالب بالحجة[1]، وكما تكون الغلبة للمرسلين، فهي لأتباعهم السائرين على منهجهم، فإن الرسل لم يُورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا الشرع والدعوة إليه، فمن أراد العزة والنصر فعليه بميراثهم وأن يعمل بعملهم وأن يسير بطريقتهم وأن يهتدي بسنتهم حتى يحصل له النصر والتمكين، وكلما تنكّب الناس طريق الرسل ازدادوا ذلة، وجاءتهم الهزائم من كل مكان، وأتى بضمير المتكلم، ليطمئن عباده المؤمنين، فمن كان الله في صفه؛ فلن يغلبه أحد، وختم الله الآية باسمين من أسمائه، لتطمين المؤمنين، فالنصر والتمكين حليفكم، لأنكم تركنون إلى القوي العزيز.

ثم ختم الله بهذه الآية فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾، الخطاب للرسول ﷺ، لا تجد يا محمد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا صالحًا صادقًا؛ فيحصلُ منهم مودة وحب ونصرة للكافرين المجانبين للحق المشاقين له؛ لأن الإيمان الصحيح الصادق يقتضي المفاصلة ومعادات الكافرين ولو كانوا آباءً أو أبناءً أو إخوةً للشخص أو من العشيرة وهي القبيلة، فأخوة الدين مقدمة على أخوة النسب، كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات:١٠]، وقد

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢١/ ٣٥٧).

قيل أن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر(١).

ثم وصف الذين لا يوادون من حاد الله، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾، **أي:** ثبت الإيمان وجمعه في قلوبهم، وأيدهم تعالى بنصر منه في الدنيا على عدوهم، وسمى نصره إياهم روحًا لأن به يحيا أمرهم(٢)، فلا تتغير قلوبُهم، بل تثبُت على الإيمان حتى يلقون الله تعالى.

وقوله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، **أي:** فإذا ماتوا أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً لهم على ذلك، فلهم النعيم والخلود المطلق في الجنة، والرضى المطلق من الله تعالى، فلا يسخط عليهم أبدًا.

ثم وصفهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾، فالموصوفون بما سبق هم حزبُ الله، وهم الذين يُوالون ويُعادون في الله، ويمتثلون أمر الله ويجتنبون نهيه، ويجتمعون مع غيرهم على محبة الله ورضاه، فهؤلاء قد تحزبوا للحق وصاروا من أهله.

ولا تغركم بعض المسميات المعاصرة؛ فالعبرة بالحال لا بالاسم؛ فقد تجد شخصًا اسمه سعيد، وهو شقي، أو اسمه جميل، وهو قبيح، أو صالح، وهو طالح، فالتسمية إذا خالفت الواقع لا قيمة لها، بل هي نوع من الخداع.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٥٤).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٢١/ ٣٥٩).

ثم أخبر الله بحصول الفلاح لمن تجمّع على الحق ودافع عنه، وجعله مطلقًا ليعم فلاح الدنيا والآخرة، فالفلاح في الدنيا بالنصر والتمكين على أعدائهم، والظهور على من خالفهم، وفي الآخرة يُزحزحون عن النار ويدخلون الجنة، كما قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم منهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن المنافقين في كل عصر ومصر هم إخوان اليهود والنصارى والموالون لهم.

٢- أن الكافر خاسر في الدنيا والآخرة، وإن حصل له نوع من النصر والتمكين المؤقت فهو لابتلاء المؤمنين.

٣- أن الأخوة الإيمانية تقتضي النصرة وموالاة المؤمنين أينما كانوا وأينما حلوا، لأن رابطة الإيمان أولى من رابطة النسب.

٤- أن الباطل قد يعلو أحيانًا ولكنه يسقط ويُهزم في النهاية، فالعاقبة للمتقين.

٥- أن التحزّب لا يُمدح ولا يُذم مطلقًا، وإنما يُمدح ويُذم بحسب ما أُضيف إليه، فمن تحزّب على الشر والباطل، فحزبيتُه باطلة ومذمومة، ومن تحزّب على الخير والحق، فحزبيتُه ممدوحة.

تفسير سورة الحشر

تفسير المقطع الأول من سورة الحشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم
بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ (٢) وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ
لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ
ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٤) مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ
ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٥) وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا
رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٦) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ
دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٧) لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ

مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

شخصية السورة:

سورة الحشر: سورة مدنية[1]، وهي إحدى السور التي بدأت بتسبيح الله تعالى، ومن مقاصد السورة إظهار قوة الله تعالى وبطشه في اليهود والمنافقين على مر التاريخ، وبيان ضعفهم وحقارتهم وهوانهم على الله تعالى حين خالفوا أمره وعصوا رُسُله.

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ بدأت السورة بإعلان أن الكون كله يُنزه الله، ويُقدسه، وأن الله تعالى عزيزٌ في ذاتِه وحكيمٌ في أفعاله وخلقه وأمره ونهيه، فليس بمحتاجٍ إلى تنزيه الخلق ولا إلى تقديسهم، بخلاف غيره من المخلوقات، فهي محتاجة إلى غيرها، أما الله فهو الصمد الذي لا يحتاج إلى غيره، وتحتاج إليه الخلائق كلها، ثم ذكر فعله ببني النضير إشارةً إلى أن هذا الفعل ليس فيه ظلم لهم، بل هو عين الحكمة بسبب فسادهم وانحرافهم، **فقال:** ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾، **والمقصود بهم** بنو النضير، وهم قبيلة من قبائل اليهود الذين كانوا

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٥٦).

يسكنون شرق المدينة، **فقد كان يسكن المدينة ثلاث قبائل من اليهود، وهم**: بنو النضير، وبنو قينُقاع، وبنو قريظة، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة عقد اتفاقًا وميثاقًا بينَه وبين أهل المدينة لحماية المدينة والتعاون على ما يقع على أهلها من حوادث، وبعد غزوة بدرٍ بستة أشهر دعت إحدى القبائل في الجزيرة مجموعة من القراء ليقرِئوهم القرآن، فخرج حوالي سبعين قارئًا إليهم، فخدعوهم وقتلوهم في مكان يُسمى بئر معونة، غير واحد نجا منهم، وهو عمرو بن أمية الضمري، وفي طريق عودته وجد رجلين فظنهم من أعدائه الكفار، فقتلهم، وكانوا قد أخذوا الأمان من رسول الله ﷺ، فبلغ النبي ﷺ الخبر، فحكم لهم بالدية، وذهب إلى بني النضير يطلب منهم التعاون فيها بناءً على الاتفاق السابق، فقالوا: مرحبًا بأبي القاسم، انتظر هنا حتى نجمع لك المال، وقالوا لأنفسهم: لن تجدوا محمدًا بمثل هذه الحالة، من يبتدر منكم فيصعَد إلى السطح فيُلقي على رأسه رَحى ونتخلص منه؟، فجاء جبريل في الحال وأخبر النبي ﷺ بهذه المؤامرة والكيد الخبيث من بني النضير عليه، فقام مسرعًا، وكان في رفقته أبو بكر وعمر وعلي، وعاد إلى المدينة، واتخذ قرارًا بمحاصرة بني النضير وقتالهم، فحاصروهم المسلمون ستة أيام حتى قذف الله الرعب في قلوبهم، فاستسلموا لحكمه، فقضى فيهم أن يخرجوا بما تحملُه إبلُهم من متاع ما عدا السلاح، فكانوا يُخربون البيوت ويأخذون ما فيها من الخشب والأبواب، وخرجوا، فبعضُهم نزل بخيبر، ومجملُهم خرجوا إلى الشام، فأنزل الله تعالى هذه السورة [١].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٦٢)، وتفسير ابن كثير: (٨/ ٥٨)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٨/ ٨٩).

وقوله: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، أي: الحشر الأول، وللمفسرين في الحشر الثاني قولان[١]:

الأول: أنه طردهم من خيبر حين فتحها سنة سبع.

والثاني: أنه نار تحشرهم يوم القيامة من المشرق إلى المغرب.

ثم قال الله مخاطبًا المؤمنين: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: ما توقع المؤمنون أن يُهزم اليهود من بني النضير خلال هذه الغزوة والمحاصرة لمدة ستة أيام، وما كان يظن بنو النضير أن أحدًا سيهزمُهم؛ لأن حصونَهم كانت مشيدة، وقوتُهم وعتادهم كانت أقوى من المسلمين، ولكن الله تعالى هزمهم بشيء لم يتوقعوه.

فقال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، أي: جاءتهم الهزيمة من حيث لم يظنوها، ولم ينتبهوا لمصدرها، فالسبب الحقيقي للهزيمة هو قذف الرعب في قلوبهم، وهو شدة الخوف والهلع من داخل النفس ولو كان معها العدة والعتاد، وهذا ما تشاهدونه اليوم لدى اليهود في فلسطين، فعندهم عدة وعتاد وأحدث أنواع الأسلحة والمدرعات، ولكن قلوبُهم خائفة هلِعة.

ثم قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، في قراءةٍ ﴿يُخرِّبون﴾ بالتشديد[٢]، وكلاهما بمعنى واحد، فمن شدة حقدهم على المسلمين لا

---

(١) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٦٦).

يريدون أن يتركوا لهم بيتًا سليمًا، فكانوا ينتزعون الأبواب والخشب وما قدروا على حمله من البيوت، والمسلمون يُخربونها بما يرمون عليها أثناء حصارهم لهم من خارجها.

ثم قال الله تعقيبًا على هذا: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾، **والاعتبار**(١): هو التدبر وقياس ما غاب على ما ظهر، ثم الخروج بنتيجة، وهذه الآية أحد أدلة القياس عند الفقهاء، وهو قياس الشيء بغيره بجامع عِلَّة بينهما، والأبصار هنا جمع بصيرة، وهي القلوب، وليست جمع بصر، لأن النظر والتأمل القلبي أقوى وأهم من النظر البصري، **والمعنى**: انظروا إلى حال بني النضير في عزتهم ومنَعَتهم وقوتهم كيف دمرهم الله وأهلكهم وهزمهم؛ لأنهم خالفوا أمر الله وعصوا رسله ونقضوا مواثيقهم مع رسول الله ﷺ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم، فهذا محل الاعتبار يا أصحاب العقول والبصائر!!.

ثم قال الله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣﴾، **أي**: لولا أن الله قدّر وكتب في اللوح المحفوظ عليهم أنه يخرجوا من المدينة؛ لعذبهم في الدنيا بالقتل كما عذب بني قريظة، فهؤلاء كُتب عليهم الجلاء وهو الطرد من المدينة، وبنو قريظة كُتب عليهم أن يُقتل رجالُهم وتُسبى نساؤهم وتُقسم أموالُهم، وما كتبه الله عليهم في الدنيا فقد نُفذ فيهم، وإن بقوا على الكفر، فلهم عذاب آخر في الدار الآخرة هو عذاب النار، وقد أسلم منهم رجلان فقط قبل أن يُطردوا، وبقيا في المدينة مع المسلمين.

(١) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: (ص: ٥٥).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾، أي ما صار لهم من الجلاء والطرد وقذف الرعب في قلوبهم، كان سببُه أنهم عاندوا وكفروا بالله، وحاربوا وعصوا رسول الله ﷺ، ومن يعاند الله ويُحاربه، فالله شديد العقاب له في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾، **اللينة** هي النخلة الصغيرة من أي نوعٍ من أنواع النخل[1]، وحينما حاصر المسلمون بني النضير أخذ بعضُ الصحابة يقلع ويقطع بعض النخل.

وكان يراهم اليهود ويُنادون محمدًا ﷺ: أنت تنهى عن الفساد ثم أصحابُك يُفسدون، فكأن بعض الصحابة وقع في نفوسهم شيء من هذا، فأنزل الله عذر من قطع وعذر من لم يقطع[2]، من قطع قد أذن الله له أن يقطع، ومن امتنع فقد أذن الله له أن يمتنع، كل ذلك بإذن الله، وما فعلتموه بهم هو لغرض أن يحل الذل والخزي باليهود الخارجين عن طاعة الله عز وجل المخالفين لأمره ونهيه، فلا وجه لانتقادهم لكم، لأن الله قد أذن لكم بهذا الفعل.

وقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾، **الفيء هو** الغنيمة التي يحصل عليها المجاهدون بدون قتال، والغنيمة التي يحصلون عليها بعد قتال ونصر على أعدائهم، والمقصود به مال بني النضير، وهو خاص برسول الله ﷺ.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٦١).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٨/ ٦٢).

وقوله: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾، أي: ما ركبتم خيلًا ولا جملًا وأسرعتم بعدهم لمقاتلتهم، وإنما أنتم مشيتم قليلًا لأن حصون بني النضير قريبة منكم ولم يجرِ قتال ولا معركة، وإنما سلطكم الله عليهم بأن قذف الرعب في قلوبهم فاستسلموا، فالله قادر على كل شيء فيقهره، ولا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾، أي: بلد تُفتح بعد بني النضير فحكم فيئها بحسب أن يُقسّم هذا الفيء إلى **خمسة أقسام**:

قسم لله ولرسوله، يفعل به رسوله ما شاء، يُنفقه على نفسه أو يُوزعه على من يشاء.

والثاني: لذوي القربى، وهم أقارب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الفقراء من آل بيته.

والثالث: لليتامى من المسلمين.

والرابع: للمساكين منهم.

والخامس: لابن السبيل، وهو المنقطع في السفر بدون مال.

وقسّم الله هذا الفيء بهذه الطريقة من عنده من السماء وما تركه لاجتهاد البشر؛ لكي لا يكون هذا المال حكراً على الأغنياء يتداولونه دون الفقراء، ولذا لم يعط الغني منه شيئًا، وكان مخصوصًا بالفقراء المهاجرين، فوزّعه بينهم ولم يعط من الأنصار إلا لاثنين فقط كانوا محتاجين جدًا[1].

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٨٣).

ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾، فالذي في نفسه شيءٌ من تقسيم الفيء هذا يبعده، ويطيب نفسًا، فحكمُ رسول الله كحكم الله، فما أعطاك الرسول شيئًا فخذه، وما نهاك عن شيء فانته، ومن خالف فليعلم أن الله شديد العقاب، وهذه الآية تدل على أن مكانة السنة مثل مكانة القرآن في التشريع، فالسنة الصحيحة كلها وحي، **كما قال الله**: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم:٣-٤]، فلا يجوز لأحد أن يرد السنة الصحيحة، بسبب أنها لا توافق عقله أو لأي سبب آخر، فمن رد السنة الصحيحة، فحكمه كمن رد القرآن بنص هذه الآية.

ثم قال الله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾، هذا بيانٌ للفيء الذي أخذه رسول الله ﷺ من بني النضير، وأيضًا لكل فيءٍ يأتي من كل القرى التي ستُفتح بدون قتال، حيث يُوزع أولًا في فقراء المهاجرين، وهم الذين أخرجهم الكفار، وطردوهم من مكة وأخذوا أموالهم وديارهم، وكان خروجُهم ابتغاء فضل الله، فهم مخلصون لله في ذلك، فلا يريدون الدنيا من خروجهم، وإنما خرجوا إخلاصًا لله وحمايةً لدينهم ونُصرة لرسول الله ﷺ، وأنهم أُخرجوا ظلمًا وعدوانًا، وأنهم في ذلك كله صادقون، فزكى الله باطنهم وظاهرهم وأعمالهم كلها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ثم وصف الله الأنصار بأنهم سكنوا المدينة قبل المهاجرين إليها، وآمنوا بالله قبل أن يُهاجر

إليها رسول الله وكثير من المهاجرين، فقد أرسل إليهم مصعب بن عمير ومكث عندهم سنة، ودخل الإسلام ديار كثير من أهل المدينة، ووصف هؤلاء الأنصار بحبهم العميق الصادق للمهاجرين، فلا يوجد شح ولا بخل في نفوسهم يمنعهم أن يُعطوا المهاجرين أي شيء يحتاجونه من أموالهم وبيوتهم ومساكنهم، بل بلغ حبهم لهم أن الأنصاري يُقدّم المهاجري على نفسه رغم حاجته، **وقد جاء في الحديث**: أن رجلًا من المهاجرين جاء إلى النبي ﷺ بعد العشاء ذات ليلة فقال: يا رسول الله قد بلغ مني الجهد مبلغه، يعني الجوع، فأرسل النبي ﷺ إلى بيت أزواجه هل عندكم من طعام؟ قالوا: لا يوجد شيء، وكانت تسعة بيوت ما عندهم شيء من الطعام، فرجع الرسول فقال: يا رسول الله لا يوجد شيءٌ في بيت أزواجك لهذا الضيف، فقال النبي ﷺ: **"من يُضيف ضيفَ رسول الله؟"** فقام أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أنا يا رسول الله، فذهب فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله، قالت: ما عندنا شيء إلا طعام الأطفال، وكان عندها طفلان، فقال: اشغلي الأطفال حتى ينوموا ثم قدّمي طعامهم للضيف، فقدّمت الطعام للضيف فأكل، ثم نام عندهم، ثم أصبح مع الفجر فجاء به إلى المسجد فاستقبله النبي ﷺ فقال له: **"إن الله قد عجب أو ضحك لصنيعكما بضيفكما البارحة"**[(١)]، وأنزل الله هذه الآية، هذا هو الحب والنصرة للمؤمنين، للمستضعفين، وقارن هذا بواقع الناس اليوم مع إخوانهم، وكيف يتعاملون؟! نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) صحيح البخاري: (٥/ ٣٤)، برقم: (٣٧٩٨)، وصحيح مسلم: (٣/ ١٦٢٤)، برقم: (٢٠٥٤).

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⁽٩⁾﴾، فمن منحه الله علاج الأثرة والشح والبخل من نفسه، فهذا هو المفلح، وأطلق الفلاح ليشمل فلاح الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⁽١٠⁾﴾ أي: جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار يدعون لأنفسهم ولمن سبقهم بالإيمان وبالمغفرة وتطهير نفوسهم من الغل والحقد على عموم المؤمنين، فمن لم يدعُ بالمغفرة له ولإخوانه الذين سبقوه بالإيمان، ففي إيمانه خلل، ومن طعن في الصحابة من المهاجرين والأنصار وسبهم، فليس من الذين اتبعوهم بإحسان، فمن يسب عمر وأبا بكر وعائشة وغيرهم من الصحابة، فهؤلاء خالفوا نص الآية وخالفوا أمر الله في ذلك، فقد أمرنا بالاستغفار لهم، لا بسبهم، **واستدل الإمام مالك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية على حرمان فقراء الرافضة من الفيء[(١)]؛ لأنه لم تنطق عليهم شروط الصنف الثالث، ومن تبعهم بإحسان، وهي عدم الغل والحقد على من سبقهم، والدعاء لهم بالمغفرة، وختموا دعاءهم بوصف الله بأنه رؤوف بالخلق ورحيم بهم، وهذا تعليمٌ لنا في أن نُعف ألسنتنا عمن سبقنا من المؤمنين، وندعو لعموم المؤمنين بالمغفرة، فما بالُك بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الذين هاجروا من أجل الله، وقاتلوا من أجل الله، وتركوا أموالهم وديارهم من أجل الله، والأنصار الذين آثروهم على أنفسهم، وقدموا الغالي والنفيس من

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٥/ ٦١).

أجل أن يستقبلوا رسول الله ﷺ وأصحابه في بلدهم؟! أيكون جزاء هؤلاء أن تطعن فيهم وتتكلم عليهم وتسبهم؟! نسأل الله السلامة والعافية، فليحذر المسلم أن يُهلك نفسه بجعل هذا الغِل على المؤمنين، بل يجعل غله على اليهود والمجرمين وأعداء الملة والدين.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن من قدر الله تعالى في الناس أن يدفع عنهم المصائب الكبرى بوقوع ما دونها تنبيهًا لهم.

٢ - جواز ارتكاب أقل المفسدتين لدفع أعلاها.

٣ - من محاسن الإسلام اعتناؤه بتقسيم المال سواءً كان فيئًا أو غنيمة أو ميراثًا، لأن النفوس غالبًا تُحب المال وتختلف عليه.

٤ - أن الإيثار منقبة عظيمة من مناقب الإسلام لا يصل إليها إلا من وفقه الله للفلاح في الدنيا والآخرة، وقد تحققت في الأنصار، رضوان الله عليهم.

٥ - أن رابطة الإيمان لا تتغير بتغير الزمان والمكان، بل يدعو الآخِر فيها للأول.

تفسير المقطع الثاني من سورة الحشر

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ
لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ
يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ
لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ
جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ
﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ
قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ
عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ

ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، **هذا بيانٌ من الله تعالى** عن حال وعلاقة المنافقين باليهود والكفرة، وأنهم صنفٌ واحد، وأن أُخوة الدين تجمعُهم، فالمنافق أخو اليهودي في الباطن، وإن كان في الظاهر مسلماً، فالحكم عليه في الدنيا على ظاهره، وفي الآخرة على باطنة، وقد نزلت هذه الآيات في عبد الله بن أُبيّ وجماعةٍ من بني عوف من المنافقين(١) الذين أخبروا يهود بني النضير سرًا، بأنهم سيقفون معهم إن حاصرهم رسول الله أو قاتلهم أو أخرجهم، وكلها وعودٌ كاذبة لم يتم منها شيء، والخطاب لمحمد ﷺ، **والرؤية هنا** قلبية لا بصرية، وهي غالبًا تُفيد التعجب، **والمعنى**: ألا تعجب من حال هؤلاء المسلمين ظاهرًا الذين يُصلون معكم ويحضرون مجالسكم، ولكنهم في الخفاء يتواصلون مع اليهود أعدائكم ويُوعدونهم بالوقوف معهم والقتال إلى جانبهم، وهذا فعلاً مما يدعو إلى العجب والغرابة.

وقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، **أي**: من حصونكم ودياركم، فسنخرج معكم من المدينة.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٩١).

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا﴾، أي: لا نطيع في شأنكم أحدًا أبدًا.

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾، وإن حصل قتال بينكم وبين المسلمين فسنقاتل إلى جواركم!!، فقال الله رداً عليهم وبياناً لحقيقتهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١﴾، أي: هذه وعود كاذبة من المنافقين لا حقيقة لها، وإنما هي كالسراب، فهم يكذبون على أنفسهم وحلفائهم بها، فقد تعودوا الكذب في سائر حياتهم.

ثم أخبر عن حالهم في الحقيقة، فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾، وهذا هو الذي واقع فعلاً، فقد أُخرج بنو النضير من المدينة، ولم يخرج معهم المنافقون، وتم حصار بني النضير ومقاتلتهم ولم يُشاركوا في القتال، ولا فك الحصار عنهم، ولو حصل أن شاركوا في القتال مع اليهود ضد المسلمين؛ لهربوا على أدبارهم فراراً من المؤمنين.

ثم أخبر عن السر في عدم مقاتلة اليهود والمنافقين للمؤمنين، فقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾، الضمير في (صدورهم)، يعود إلى اليهود، وقيل[1]: إلى المنافقين واليهود، فكلاهما يخافان من المسلمين؛ ولكن السياق يرجح الأول، والرهبة هي شدة الخوف والهلع، وتكون مخفية في الصدور، أما أجسادهم وحركاتُهم فقد تظهر لمن يراهم بأنهم شجعان وأقوياء، وهذا الخوف والهلع في نفوسهم إنما هو من المخلوقين، فهم يخافون البشر أكثر من خوفهم من الله، وذلك بسبب عدم

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٠٧).

الفهم، فهم بُلداء، ولو كان عندهم فهم صحيح لكان هذا الخوف من الله سبحانه، فدل ذلك على بلادتهم وقلة فهمهم.

وقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾، أي: لا يقاتلكم اليهود مجتمعين إلا إذا كانوا في قرىً شديدة التحصين لا يمكن أن يصل إليها المقاتلون، أو من خلف جُدُر، جمعُ جدار، وهذا الذي حاصل في فلسطين اليوم، فقد صنعوا جدارًا بينهم وبين الفلسطينيين، وهو عبارة عن خرسانة مسلحة مرتفعة تحيط بمستوطناتهم خوفًا من المسلمين.

وقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾، تحسبهم في الظاهر مجتمعين ولكن في الواقع قلوبهم متفرقة، فهم فرق متناحرة، يُكفر بعضُهم بعضًا، ولا يستطيع اليهود أن يعيشوا مجتمعين إلا إذا وُجد لهم عدوٌ خارجي، ولذلك لا يرغبون في السلام الحقيقي، فلو وقع سلام لعاد بعضُهم يقتل بعضًا، فطبيعة المجتمع اليهودي لا يريد سلامًا، ويريد أن يعيش على عدوٍ ولو كان وهميًا، لكي يوحد صف المجتمع الداخلي أمام العدو الخارجي.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾، علّل فعلهم هذا بعدم العقل؛ لأن العلة ظاهرة هنا، فلو أعملوا عقولهم لاجتمعوا، ولم يتفرقوا.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾، هذا تمثيل لحال بني النضير في عذابهم وطردهم، بحال كفار قريش في بدر، بجامع العذاب الدنيوي لكلٍ منهما، فأولئك طُردوا، وأولئك قُتلوا وأُسروا، والوبال:

شدة الشيء، **أي**: شدة العقوبة التي وقعت بهم في بدر[(١)]، فقد قُتل منهم سبعون وأُسر سبعون، هذا في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب أليم في نار جهنم.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾، هنا تمثيل آخر لحال المنافقين مع بني النضير، حيث وعدهم المنافقون بالنصر والبقاء معهم، ثم لم يوفوا بذلك معهم، فحالهم هذا يشبه حال الشيطان مع الإنسان، حيث زين له الكفر، فلما وقع فيه تبرأ منه وتنصل، ووجه الشبه بينهما: خلف الوعد والخداع، فبنو النضير خدعهم المنافقون وخلفوا الوعد معهم، والشيطان زين الكفر للإنسان، ثم خلف وعده وخدعه، والشيطان هو إبليس، والإنسان للجنس.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾، واعتراف الشيطان وتبرؤه ليس في الدنيا، إذ لو اعترف الشيطان للإنسان في الدنيا وتبرأ منه؛ لأفاق الإنسان ونجى من خداع الشيطان له وتاب، ولكن هذا الاعتراف والتبرؤ يكون في الآخرة، **كما قال الله**: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾[إبراهيم:٢٢]، ولا ينفع الشيطان اعترافه وخوفه من الله في الآخرة، ولو حصل ذلك في الدنيا لنفعه، فالآخرة دار جزاء وليست دار عمل.

وقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾، **أي**: جنس الشيطان وذريته، وجنس الإنسان الذي أطاع إبليس وكفر معه، فنهاية حالهما ومقرهما في النار، مخلدين فيها لا يخرجان منها، وهذا الجزاء لهما كان

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٨١).

بسبب وقوعهما في الظلم وهو الكفر بالله سبحانه.

ثـم خـتم الله الـسورة بقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وهذه أعظم آية في محاسبة الـنفس، أمر الله المـؤمنين أن يحاسـبوا أنفسهم في الدنيا، وتنظر كل نفس مـاذا قـدمت مـن أعمـال صـالحة أو سيئة ليـوم القيامة، وسماه بــ"غد"؛ لقرب وقوعه، فهو آتٍ لا محالة.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾، راقبوا الله واجعلوا بيـنكم وبـين غـضبه وقايـة، فهـو مطلـع علـى سـركم وجهـركم، وعـالم بـدقائق وخفايـا أعمالكم وأفعالكم.

وقولــه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾، واحذروا أيها المؤمنون أن يكون حـالكم كحـال مـن أعرضـوا عـن الله، وشـردوا عن طاعته، وليس المقصود بالنسيان هنا ما يعتري الـنفس مـن غفلـة دون قـصد، فهذا معفو عنه، كما في الحديث: "**إن الله تجاوز عـن أمتي الخطـأ والنـسيان ومـا استكرهوا عليه**"[(١)]، حتى لا تحل بكم العقوبة التي حلت بهم، حيث كان عقوبـة نسيانهم لأمر الله، أن خذلهم فنسوا أن يُنقذوا أنفسهم من الهلاك في الـدنيا، فـأتوا يوم القيامة مفلسين يبحثون عـن المخـرج فلـم يجـدوا مخرجًا، بـل حـل بهـم مـا يؤذيهم لوقوعهم بالفسق الأكـبر، **والفسق في اللغـة**[(٢)]، **هـو**: خـروج الـشيء مـن الشيء على وجه الفساد، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قـشرها، فـالخروج

(١) سنن ابن ماجه: (١/ ٦٥٩)، برقم: (٢٠٤٥)، وصحيح ابن حبان: (١٦/ ٢٠٢)برقم: (٧٢١٩).
(٢) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (٢/ ٤٧٣).

من مكان الأمان إلى مكان الأذية، يسمى فسقًا، وهذا حال العصاة والمجرمين، حيث يكونون في مكان الستر والأمان، فيخرجون بأفعالهم القبيحة إلى مكان الفضيحة والعقوبة في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر الله تعالى حال المؤمنين الصادقين مع حال العصاة، فالمؤمنون حالُهم ومصيرهم إلى الجنة، **والمؤمنون والكفار حالُهم ومصيرُهم إلى النار، فقال:** ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾، لا يستوون في المكان ولا المكانة، فذاك نار تتسعر وتحترق بهم، وذاك في جنة فيها النعيم المقيم، وأولئك منبوذون مطرودون، وأولئك في عزة وكرامة على الله تعالى، وترك الحديث عن أهل النار احتقارًا لشأنهم، فيكفي من حالهم أنهم في النار، **وأما أهل الجنة** فأخبر عن حالهم بجملة واحدة، فقال: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وهي كافية لبيان حالهم، وفيها من المعاني العظيمة والمكانة الكريمة عند الله ما لا يمكن وصفه!!.

ثم أخبر سبحانه عن عظمة هذا القرآن وأثره على المخلوقات، فقال الله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وهو أسلوب من أساليب التوبيخ لمن يستمع القرآن ولا يخشع قلبه، وهذا حالٌ وصف الله به اليهود، **كما قال:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾، فهو مثالٌ ضربه الله لتقريب المعنى، رغم أن الجبال غير مكلّفة، ولو نزل عليها القرآن واستمعت إليه كما يستمع إليه الإنسان؛ لخشع مع أنه صخر قاسٍ، وهي دعوة

إلى التفكر والتدبر والتأمل في كتاب الله والتأثر بما فيه.

ثم ختم الله السورة بالحديث عن نفسه، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾، فالله سبحانه هو الإله الحق المعبود دون سواه، وإن عُبد شيءٌ من دونه فقد عُبد بباطل، قد أحاط علمًا بكل ما هو مخفي وما هو مشاهد وعلم بالجزئيات والكليات، وهو الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمتُه كل شيء.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾، كرر لفظة كلمة التوحيد؛ لأنها محط الخلاف بين الخلق، هو إفراد الله بالعبودية، وهو الإله الذي لا يملِك على وجه الحقيقة سواه، وملوك الأرض مملوكون له سبحانه.

والقدوس: المُنزَّه عن النقائص وما لا يليق به، **والسلام**: الذي لا عيب فيه ولا نقص، ويُسلم عبادَه وأولياءه، **والمؤمن**: المصدق لأوليائه ورسُله، والمُصدَّق عندهم، **المهيمن**: الشهيد القاهر الخاضع له كل الخلق، **العزيز**: ذو القوة والعزة، **والجبار**: شديد القوة والبطش، وهو الذي يجبُر كسْر المكسورين، والمتكبر عما لا يليق، فلا كبرياء إلا لله سبحانه، ثم نزه الله نفسه عما وصفه به بعضُ خلقه مما لا يليق به.

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، **الخالق**: الموجد من العدم، **والبارئ**: الذي شكّل، **والمصور**: الذي ألقى الصورة على ذلك التشكيل، وله الأسماء الحسنى المطلقة، وهي كثيرة لا يُحصيها عادّ، ووصفها

بالحسنى أي: لا قُبح فيها ولا خلل في معناها.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾، بدأ السورة بالتسبيح وختمها بالتسبيح، فالله يُسبحُه وينزهه من في السموات ومن في الأرض من كل المخلوقات، وهو غني عن تسبيحهم ولا يحتاج إليه، فهو العزيز في ذاته، والحكيم في أفعاله الشرعية والكونية، ولا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن المنافقين إخوانًا لليهود قديمًا وحديثًا، وما تفعلُه أصوات النفاق في العالم العربي والإسلامي اليوم مع الوضع في غزة دليل على ذلك.

٢ - أن اليهود جبناء في كل زمان ومكان، رغم أن معهم أحدث الأسلحة، بسبب أن الله قذف في قلوبهم الرعب.

٣ - أن من علامات توفيق الله للعبد أن يحاسب نفسه قبل الموت، فإذا وضعت رأسك على الوسادة في المساء لتنام فاستذكر ماذا فعلت من الصباح إليه.

٤ - بيان أثر القرآن على القلوب الطاهرة النقية، وأنها توجل وتلين وتعود وتتوب، وعدم تأثيره في القلوب القاسية البعيدة عن الله التي صار الجبل يتأثر أكثر منها.

٥ - فضل الله على عباده أن علّمهم أسماءه الحسنى لكي يدعوه بها، حبًا ورجاءً وخوفًا.

تفسير سورة الممتحنة

تفسير المقطع الأول من سورة الممتحنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا
جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي
وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ
ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ
وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ
إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ
ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥) لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ
فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦)﴾.

شخصية السورة:

سورة الممتحَنة؛ بالكسر أو بالفتح للحاء، سورةٌ مدنية[1]، **ومقصدُها العام**:

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٨٢).

التحذير من موالاة الكافرين واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين.

وقد جاء في سبب نزول أوائل السورة، أن النبي ﷺ لما أراد أن يفتح مكة بعد أن نقضت قريش العهد، دعا أن يُعمي عليهم الأخبار، وأن يغزوهم سرًا، فأخذ أحدُ الأصحاب وهو حاطب بن أبي بلتعة، وكان مهاجريًا قد شهد بدرًا، إلا أنه وقع في حالة ضعفٍ واجتهادٍ خاطئٍ، فكتب رسالةً إلى قريش يُخبرها الخبر أن محمدًا ﷺ قد أعد العدة لغزوكم فجأة دون أن تشعروا، وأرسل تلك الرسالة مع امرأةٍ فذهبت بها سرًا دون أن يعلم أحدٌ من أهل المدينة، حتى وصلت روضة خاخ، في الطريق بين مكة والمدينة، جاء الوحي إلى النبي ﷺ فأخبره بالقصة، فأرسل النبي ﷺ عليًا والمقداد والزبير فرسانًا بخيولهم، فلحقوا المرأة فوجدوها في نفس المكان فقالوا لها: هاتِ الكتاب. قالت: ما عندي من كتاب، فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لنُلقيَن الثياب، فخافت، فأخرجت لهم الكتاب من ضفائر شعر رأسها وأعطتهم إياه، واشترطت عليهم ألا يعودوا بها، فقبلوا شرطها وهربت إلى قريش، فرجعوا بالرسالة إلى النبي ﷺ، ففتحها فإذا هي: من حاطب بن أبي بلتعة، قال: "**ما حملك على هذا يا حاطب؟**" قال: والله ليس كفرًا بعد إيمان، ولا شكًا ولا ردةً، وإنما أنا رجلٌ لصيق بقريش لست من أنفسهم، هو مولى ليس قرشيًا، كان مولى لأولاد أحد عبد العزى، وما من أصحابك من أحد إلا له قبيلة تحميه، أما أنا فكنت لصيقًا بقريش ولي فيهم أقارب ولي عائلة في مكة، فأردت أن أُقدم لهم هذه الخدمة حتى يحموا عائلتي، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ما سمع هذا التبرير: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقد خان الله

ورسوله. فقال له النبي ﷺ: **"يا عمر إنه قد شهد بدرًا، وإن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وإنه قد صدقكم"** **يعني** صدق في عذره، **يعني**: ليس منافقًا، فعلُه فعل المنافقين، لكن هو في حقيقته ليس بمنافق، فعفى عنه النبي ﷺ، وأنزل الله تعالى فيه الآيات الأولى من هذه السورة(١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، خطاب عام للمؤمنين، ونهي لهم ألا يتخذوا عدو الله أولياء، وعدو الله: هو الكافر، من يهود ونصارى ومشركين وملحدين، فمن لم يُؤمن بالله ورسوله، فهو عدو لله، وعدو الله يجب أن يكون عدوًا لكل مسلم، والولي هو الشخص المحبوب الذي يُنصر ويُحب، **والمعنى**: لا تحبوهم ولا تنصروهم، ولا تنقلوا إليهم أسرار المسلمين، فالمودة لهم سببٌ لإلقاء الأخبار الخفية السرية إليهم، حُبًا وتقربًا لهم.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، هذا بيان لسبب العداوة، فهم كفار لا يقبلون الحق ولا يُؤمنون به، وقد أخرجوكم وأخرجوا الرسول من مكة وآذوكم وطردوكم منها إلى المدينة، بسبب إيمانكم بالله، وليس من أجل مالٍ أو منصب، **كما قال**: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[البروج:٨]، ثم أيضًا استثار فيهم سبب هجرتهم، والدافع لهم

(١) صحيح البخاري، برقم: (٣٩٨٣)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٤٩٤)،وتفسير ابن كثير: (٨/ ٨٤).

للهجرة، فإن كان خروجكم من أجل الله وفي الله، فما الداعي للعودة إلى موالاة ومحبة الكفار؟!، ثم استنكر عليهم إخبار الكفار بأسرار المسلمين، فكيف يحصل منكم هذا، وأنتم ما خرجتم إلا في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله، وعملكم هذا يتعارض مع الإيمان؟!.

ومن نواقض الإيمان موالاة الكفار ومحبتهم ونصرتهم على المسلمين، وما أحوج الناس اليوم إلى معرفة هذه الأحكام، خاصةً وأنتم تشاهدون الوضع في فلسطين وفي غزة، فقد اجتمع العالم الغربي كله بخيله ورجله لمعاونة اليهود، فأين المسلمون؟! اثنان مليار مسلم على وجه الأرض في دويلات متعددة، ماذا فعلتم لإخوانكم المؤمنين المحاصرين؟! فالموالاة للمؤمن ونصرته علامة من علامات الإيمان.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ **أي:** مهما حاولتم أن تكون هذه المودة والأخبار سرًا إلا أنها لا تخفى على الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو تهديد مبطّن، فمهما أظهرت أو أخفيت، فالله مطلع على أسرارك وخواطرك وما تفعله ظاهرًا وباطنًا، ومن يحصل منه الولاء للكفار والنصرة لهم، قد انحرف عن الطريق المستقيم وابتعد عن منهج الإسلام، وسار في طريق الضلال.

ثم ذكّرهم بعداوة الكفار لهم، وأن هذه المحبة من طرف واحد لا تنفع، فقال: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾،

أي: إن يظفروا بكم[(١)]، والثَّقِف من الشيء الحاذق المتمرس[(٢)]، واستُخدمت في الظفَر لأن الظَّفَر يأتي عن طريق الحذق والمهارة، فلو ظفروا بكم فلن يكونوا لكم محبين ولا موالين، بل سيكونون لكم أعداءً، وهذا يدل على جهل الكفار بأخلاقيات الحرب، بخلاف المؤمنين فعندهم أخلاقيات الحرب، فلو قبضوا على أسير، أو رأوا امرأةً، أو شيخًا عجوزًا، أو طفلًا في المعركة؛ فلن يتعاملوا معه إلا بأخلاق الإسلام، ولكن هؤلاء الكفار لا فرق عندهم بين طفل وامرأة وشيخ ومسجد ومستشفى، كما تشاهدون فعل اليهود اليوم في غزة، فتظهر منهم العداوة والغِل والحقد الذي في قلوبهم من خلال أفعالهم، بالقتل والطعن والضرب، وكذلك بالسب والشتم واللعن وغيرها من ألسنتهم، ويتمنون لو حصل منكم العودة إلى الكفر بعد الإسلام، فاجتمعت جوارحهم كلها على حربكم وأذيتكم، وهذا يدل على شدة عداوتهم للمؤمنين.

وقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾، بيانٌ لمن يخون الله ورسوله من أجل الرحم، وهم الأقارب الذين تشترك معهم في رحم واحدة، والأولاد، وهم ذريتك ومن نزل منهم، فلن ينفعوا الخائن يوم القيامة، بل يفصل الله بينهم، فكل واحد يسير في طريق، فلا يستفيد أحد من أحد، وكل واحد مشغول بنفسه، كما قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾[عبس:٣٧]، ثم أخبرهم عن سعة علمه وإحاطته بالخلق، وفي ذلك

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٤٠٦).

(٢) ينظر: لسان العرب: (١/ ٤٩٢).

تهديد ووعيد لمن يخالف الشرع سرًا، فالله مطلع عليه، وسيُحاسبُه عليه.

وقولـه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، بعـد أن انتهـت القصة التي نزلت في حاطب، ذكر الله نموذجًا للولاء والبراء الصادق من الأمم السابقة، فالولاء والبراء من أصول الإيمان في جميع شرائع الأنبياء كلهم، والأسوة هي: القدوة التي تتأسى بها[1]، وقد تكون حسنة، وقد تكون سيئة، ولذلك أتبعها هنا بالوصف الحسن وهذه الأسوة كانت في إبراهيم ، إمام الحنفاء، وأتباعه الذين آمنوا معه.

ثم بيّن محل الأسوة في قوله: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾، أي: تبرأوا من أشخاص الكافرين، وتبرأوا من معبوداتهم، وهي الآلهة الباطلة من أصنام وأوثان، وقطعنا العلاقة بيننا وبينكم، لا لقاء ولا أنصاف حلول بيننا، أنتم في طريق ونحن في طريق، وظهر العداء والبغضاء بيننا وبينكم، وهذا دليل على قوة الولاء والبراء، فالعداوة ستستمر بيننا وبينكم إلى أن يحصل منكم الإيمان، فإذا حصل منكم الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو معنى لا إله إلا الله؛ تركناها وحولناها إلى محبة ونصرة، فالكفر سبب للعداوة، والإيمان سبب للولاء، وجمع هنا بين العداوة والبغضاء، لتشمل أعمال القلب والجوارح، فالعداوة هي المباينة في الأفعال، والبغضاء هي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم[2]، فتكون

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٤٠٨).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٩/ ٤٩٩).

العداوة مقابل الولاية، بمعنى الحرب، والبغضاء مقابل الحب، بمعنى الكُره.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، استثنى من هذه الأسوة وعد إبراهيم لأبيه المشرك آزر أن يستغفر له، والمعنى: لا يقتدِ أحد منكم بإبراهيم في هذا الفعل، فقد تبرأ إبراهيم من أبيه بعدما تبيّن أنه عدوٌّ لله، ومات على الكفر، وإبراهيم لم يعد أباه موعدة مُنجزة، وإنما على سبيل الوعد المعلق وقد لا يقبل الله منه ذلك، ولم يقبل منه، وهذا يدل على منع الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على الشرك، أما إن كان الكافر حيًا، فيجوز الدعاء له بالهداية.

وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ هذا من كلام إبراهيم ومن معه، أي: وتأسوا بهم بهذا الدعاء، الذي يشمل إفراد الله بالتوكل عليه والتوبة إليه، وأن الناس كلهم راجعون وعائدون إليه سبحانه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾، هذا دعاء إبراهيم ومن معه، وهو دعاء كل المؤمنين ألا يفتنهم الله تعالى بتسلط الكافرين عليهم فيفتنوهم، أو بنصر الكافرين عليهم دائمًا، فيظنون أنهم على الحق، ويقولون: لو كان المؤمنون على الحق لنصرهم الله، ودعوا الله بالمغفرة لهم، فما من إنسان إلا ويقع منه التقصير، فيدعو الله أن يغفر له تقصيره، وختم الآية باسمه العزيز الذي لا يحتاج إلى خلقه، والحكيم الذي لا خلل في فعله ولا حكمه.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، فمن كان يرجوا الله واليوم الآخر فليتأسى بإبراهيم ومن معه من المؤمنين، وربط الإيمان

بالله واليوم الآخر بالعمل؛ لاستحضار الآخرة أثناء العمل ليكون أكثر إخلاصًا وإتقانًا، وأكثر مسارعة إلى الفعل والاجتهاد فيه.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾، ومن أعرض عن طاعة الله، فالله غني عن خلقه، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، إنما أراد الله أن يبتلينا بالإيمان والكفر، وبالطاعة والمعصية، لينظر من يستحق الجنة ومن يستحق النار.

وفي الحديث القدسي: **"يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري، فتضروني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا،.... وإنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه"**[(١)].

وجمع بين الغني والحميد لحكمة، وهي: أن الغني من الخلق يشعر غالبًا بالكبر والغطرسة، فيتصرف تصرفًا غير سديد، **كما قال الله:** ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[العلق:٦-٧]، فأراد الله تعالى أن يُشعر خلقه أنه غني وحميد في أفعاله وفي أقواله، فليس فيها ما يذم، بل كلها محمودة.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤)، برقم: (٢٥٧٧).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن تسريب أخبار أهل الإسلام إلى الكفار ردة عن الإسلام، والعياذ بالله، إن فعلها عالمًا مختارًا.

٢ - خطورة الخيانة والعمالة من أهل الإسلام لأهل الكفر، وأن الواجب هو قطع الصلة بهم، وعدم الحب والنصرة لهم.

٣ - أن عداوة الكفار للمؤمنين متأصلة في قلوبهم مهما فعل المسلم معهم، وقدم لهم من الخدمات، فيا ليت حكام المسلمين وساستهم يدركون هذه القاعدة العظيمة.

٤ - النهي عن الاستغفار للمشرك، ولا وجه للتأسي بإبراهيم، لأن إبراهيم فعل ذلك اجتهادًا منه ثم تبرأ بعد ذلك من أبيه.

تفسير المقطع الثاني من سورة الممتحنة

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
(٧) لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ
وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى
ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ
ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ
يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (١٠) وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ
ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا
جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ
أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ
فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ (١٣)﴾.

قول الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧)﴾، سبق معنا في المقطع السابق أن الله أمر المؤمنين بمفاصلة

الكافرين من أقاربهم وأرحامهم، وإظهار العداوة لهم والبغضاء بسبب كفرهم، ومع ما في هذه المفاصلة من مشقة من الناحية الاجتماعية والنفسية، إلا أنها مطلوبة شرعًا من المسلم لتحقيق الإيمان، فلما رأى الله تعالى من المؤمنين صدقًا في الولاء والبراء، وعدهم بهذه البشارة، بأن هذه المفاصلة ستزول قريبـًا بسبب إسلام أقاربهم من الكفار، لأن البغضاء والعداوة محدودة ومؤقتة بالكفر، فإذا انتفى الكفر انتفت، فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وهذا الذي حصل فعلًا، فما أن جاء عام الفتح إلا وأسلم عدد كبير جدًا من أهل مكة، ويُسمون بمسلَمَة الفتح، والمودة هي خالص الحب، فالله قدير على ذلك لا يُعجزه شيء، فقلوب الخلق بيده يصرفها كيف يشاء، وهو غفور لمن رجع إليه وأناب، رحيم به يقبل توبته ويمحو ذنبه.

ثم جاءت الآيات التي تليها ببيان أحكام العلاقات في السلم والحرب، فقال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾، وهذه الآية خاصة بالكفار المسالمين الذين لا يحاربون المسلمين ولا يُؤذنهم ولم يُخرجوهم من ديارهم ولم يُشاركوا في المظاهرة عليهم، فيجوز للمسلمين أن يبرّوهم ويُقسطوا إليهم، والبر فعل الخير والصلة لهم، والقسط العدل والإنصاف لهم وعدم الظلم، وهذا جائز للكافر الذي له عهدُ ذمةٍ مع المسلمين، سواء كان مقيمـًا في بلادهم أو مقيمـًا في بلده، فهذا من العدل معهم، وعلّل الله تعالى ذلك بأنه يُحب العادلين.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ

﴿إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾، وهذه الآية تبيّن كيفية التعامل مع الكفار المحاربين، فيحرُم موالاتُهم ونُصرتُهم وحبُهم، لأنهم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين، فنهى المؤمنين عن التولي لهم.

والتولي هو: الحب لهم، وهو عمل قلبي لا يصلح إلا للمؤمن، فلا تُحب إلا مؤمنًا، ولا تنصر إلا مؤمنًا، وبيّن لهم العلة، وهي اختلاف الدين، وقتال الكفار لكم كان بسبب ذلك، يُقاتلونكم على دينكم، وطردوكم من أرضكم، وأخذوا دياركم، وهذا حصل للمؤمنين المهاجرين من مكة، ويحصل اليوم للفلسطينيين من اليهود الذين احتلوا أرضهم وأخرجوهم من ديارهم، وتعاونوا وتناصروا فيما بينهم على ذلك، فأتى بعضُهم إلى بعضٍ مناصرًا ومؤيدًا، فهؤلاء محرمٌ عليكم الولاء والمحبة والنصرة لهم، فمن أحب ونصر ووقف وساند هؤلاء الكفار المحاربين لله ولرسوله وللمؤمنين، فقد وقع في الظلم المُخرج من الملة.

ثم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، هذه ثمرة من ثمار صلح الحديبية، حيث جرى العقد والاتفاق في صلح الحديبية بين المسلمين والمشركين على أن من جاء من المسلمين إلى الكفار لم يرده الكفار، ومن جاء من الكفار مسلماً رده المسلمون، وهذا الشرط كان يخص الرجال دون النساء، فلما جاءت نساء مهاجرات إلى النبي ﷺ، احتج المشركون على رسول الله ﷺ بشرط الحديبية، فقالوا: ارجع لنا النساء، فأنزل

الله هذه الآية(١)، فتمتحن المهاجرات من أجل التحقق من أنهن خرجن لله وفرارًا بدينهن، فلا يجوز إرجاعهن إلى الكفار حتى لا يُفتنّ في دينهن، ولو علموا أنهن غير مؤمنات فيجوز إرجاعهن، وهذه تسمى آية الامتحان للنساء للمهاجرات، بأن تُمتحن المرأة المهاجرة بأن تُحلّف يمينًا: والله العظيم ما خرجتِ كرهًا لزوجك، ولا طمعًا في دنيا، ولا هروبًا من أرضٍ إلى أرض، وإنما خرجتِ فرارًا بدينك، مؤمنةً بالله ورسوله(٢)، فإذا حلفتْ على ذلك فهذه قرينة وشاهد على أنها مؤمنة.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾، **هذه جملة اعتراضية بمعنى**: إن حقيقة الإيمان لا يعلمها إلا الله، والامتحان باليمين، للتأكد من الظاهر فقط، والقلب لا يدري ما فيه إلا الله تعالى، فإذا غلب على ظنكم بالقرائن المحاطة بالحدث وملابساته صدق دعوى الإيمان منهن فيحرُم إرجاع المؤمنات إلى الكافرين، لانفساخ عقدها باختلاف الدين فلا تحل له، ومثله لو أسلم كافر وبقيت زوجتُه على الكفر فينفسخ عقد الزوج بينهما، فلا يحل لها ولا هي تحل له بسبب اختلاف الدين.

وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾، **أي:** آتوا زوج المرأة الكافرة التي أسلمت ثم هاجرت إلى المدينة مهر زوجته الذي أعطاها إياه عند الزواج بها، وأباح الله تعالى للمؤمنين أن يتزوجوا بالنساء المهاجرات بعد أن يستبرئوا أرحامهن بحيضة واحدة، شريطة أن يعطوهن

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٩٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري:(٢٣/ ٣٢٥).

مهورهن، **وهل تُعطى مهراً غير الذي أُرجع لزوجها الكافر؟ قولان: قيل** هو نفسه، **وقيل**: مهر يُسلم لزوجها الكافر من بيت مال المسلمين، ومهر للمرأة، يُعطيه لها زوجُها ليستحل به فرجَها.

وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، **أي**: من كان منكم ما زال لديه زوجة في مكة وما زالت كافرة؛ فليُطلقها، ولا يُبقها في عصمته؛ لأنه لا يحل التزاوج بين ملتين، فلما سمع عمر هذه الآية طلق امرأتين كانتا له بمكة، وكل فريق يطلب مهر نسائه، **أي**: يجري التبادل في المهور بين نساءٍ آمنت ونساءٍ ارتدت، فمهر المرتدة هو مهرٌ للمؤمنة، يقوم بذلك ولي أمر المسلمين أو لجنة مشتركة من الطرفين، وفي قضايا المال يأتي الحكم التفصيلي له في القرآن، بسبب أن النفوس تحب الأموال كثيرًا وتختلف عليه، **وختم الآية باسمين من أسمائه، فعليمٌ**: صيغة مبالغة من العلم، **أي**: أحاط بكل شيءٍ علمًا، **وحكيم**: صيغة مبالغة من الحكمة، **أي**: ليس في أحكامه خلل ولا خطأ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾، **أي**: لو ارتدت بعضُ زوجاتِكم وذهبت إلى الكفار وعادت إلى أهلها الكفار، فأعطوا لمن ذهبت زوجته مهراً مثل المهر الذي دفعه لها من بيت المال أو يكون مقابل مهر المرتدة، أو من الغنيمة قبل تقسيمها، ووعظهم بتقوى الله المُطلع على أحوالهم؛ حتى لا يدّعي الإنسان ما ليس له، بل يُراقب الله فيما يأخذ وفيما يُعطي.

ثـم قـال سـبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ﴾، هذه تُسمى آية بيعة النساء، وليس فيها ذكر للجهاد؛ لأن النساء لا جهاد عليهنّ، ويُشبه العلماء بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء، لعدم وجود الجهاد في البيعة الأولى للعقبة، بل كانت مبايعة على الإيمان والاستقامة.

وبيعة النساء ليس فيها مصافحة، وإنما يُكتفى فيها بالكلام، وقد جاء في حديث عائشة: **"أن النبي ﷺ ما مست يدُه يد امرأة، وإنما كان يُبايعهن كلامًا"**[١]، فإذا أقرت بما فيها عُلم أنها مهاجرة مؤمنة، هي: عدم الشرك بالله شيئًا مهما صغُر أو كبُر، وعدم السرقة من مال زوجها أو من مال غيره، إلا إن كان بخيلًا فيجوز لها أن تأخذ ما تحتاج إليه فقط، كما في حديث هند قالت: إن أبا سفيان رجلٌ شحيح، وإني آخذ من ماله دون إذنه، فقال: **"خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"**[٢]، وعدم الزنا وهو معروف.

وقوله: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾، أي: لا تقتل المرأة ولدها سواءً كان حملًا في بطنها فتُجهضه، فإن الإجهاض نوع من القتل خاصة بعد نفخ الروح فيه، أو تقتلُه وقد وُلد لسببٍ أو لآخر، والبهتان هو نسبة ولد غير زوجها إليه، وهو نوع من الافتراء والكذب وإضافة الولد إلى غير أبيه، ويُطعْنك في كل معروف أمرتهن به بقدر استطاعتهن، وقيل: هو النياحة وشق الجيب وضرب الوجه عند المصائب، والأول أعم.

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٨٩)، برقم: (٢٧١٣).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ٧٩)، برقم: (٢٢١١).

وقوله: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢﴾، **أي:** اقبلْ منهن البيعة بهذه الشروط واستغفرْ لهن، لأن هذه الأعمال قلّ من يأتي بها على التمام والكمال، بل لا بد من التقصير فيها، فالاستغفار استكمال للنقص، والله غفور لمن وقع في ذنب أو تقصير وتاب منه، ورحيم بخلقه حيث علم ضعفهم، فشرع لهم ذلك.

ثم خُتمت السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ختم السورة بما بدأها به وهو النهي عن الموالاة للكفار، ولكن الفرق أن البداية كانت في النهي عن موالاة المشركين، والنهاية كانت في النهي عن موالاة اليهود، لأن غضب الله وصفٌ ملازم لليهود، **كما في قوله:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، لأنهم عصوا الله بعلم، فمن عصا الله بعلم استحق غضب الله، **أي:** لا تُناصروا ولا تحبوا قومًا من اليهود، ويدخل في ذلك عموم اليهود، وإنما جاء هنا قومًا على بيان الحال الذي كانوا عليه في المدينة.

وقوله: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾، **وفي تفسيرها معنيان**(١): **الأول:** كما يئس كفار قريش من عودة من في القبور؛ لأنهم كانوا يُنكرون البعث وينكرون النشور.

والمعنى الثاني: كما يئس الكفارُ المقبورون من الخير في الآخرة؛ لأن المقبور تُكتشف له نهايته وعذابُه في الآخرة، فيُفتح له طاقة إلى النار فيرى مصيره، فييأس من الخير والرحمة، والثاني أرجح؛ لأن الأول يشترك فيه المؤمنون والكافرون.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٤٦).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- تصريف القلوب بيد الله تعالى، فالمؤمن يسأل الله الثبات على الإيمان، ويدعو الله للكافرين بأن يهديهم ويُدخلهم في الإيمان.

٢- ضرورة التفريق بين أحكام الكفار المسالمين والكفار المحاربين، فليس حكمُهم سواء، بل يختلف بحسب حالهم.

٣- حرمة الزواج من المشركات وبُطلان الزواج القائم وانفساخه بمجرد اختلاف الدين.

٤- مشروعية المبايعة لولي الأمر على السمع والطاعة والتقوى بقدر الاستطاعة.

تفسير سورة الصف

تفسير المقطع الأول من سورة الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟
أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الصف؛ سورةٌ مدنية[1]، **والمقصد العام للسورة** حث المؤمنين على نصرة الدين، سواءً كانت تلك النصرة بالتمسك والعمل به والاستقامة عليه، أو كانت بالدفاع عنه والجهاد في سبيل الله من أجله.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٠٤).

قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ أي: نزهه كل ما في السموات والأرض من مخلوقات، سواءً كانت ناطقة أو غير ناطقة، فهي تنزه وتُقدس الله تعالى، وهو الذي خلقها يعلم ما تنطق به من التنزيه والتقديس له، وذيّل الآية بهذين الاسمين الكريمين له؛ لأن التنزيه والتقديس معناه نفي النقص عن الله، فأخبر بأنه غني عنه؛ لأنه قوي في ذاته، وحكيم في أفعاله، والمعنى: سبح الخلق أو لم يُسبحوا فالله غير محتاج إلى ذلك التسبيح.

ثم قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾، خاطب الله تعالى عباده المؤمنين بوصف الإيمان، ولا شك أن هذا الوصف متقدم على الإسلام، وهم قد حسُن إسلامُهم، وارتقوا إلى مرتبة الإيمان، وهو اليقين الصادق في القلب والاعتقاد الجازم بعبودية الله وألوهيته وربوبيته، ومع ذلك فقد يحصل منه بعضُ الأخطاء، مثل ما ذُكر هنا، فقد عاتب الله تعالى بعضهم أن يقولوا قولًا ثم لا يفعلونه.

وقد جاء في معنى هذه الآية قولان للمفسرين(١):

الأول: أن بعض المؤمنين كانوا يتساءلون عن أحب الأعمال إلى الله، ويقولون: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لفعلناها ولم نختلف عنها، فلما قيل لهم: إن أحب الأعمال إلى الله جهاد في سبيل الله، وأُذن لهم في أن يُجاهدوا، ضعُف بعضُهم عن تنفيذ ما وعد، لأن القتال تكرهه النفس كما قال الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢١٦]، فلما حصل منهم هذا التراجع عاتبهم الله.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٥٤).

والقول الثاني: أن البعض كان يخرج للجهاد في سبيل الله، ثم يرجع يُحدث الآخرين، وربما يُبالغ في القول وهو لم يفعل ذلك على الواقع تمامًا، فعُوتب على ذلك، والفرق بين القولين أن الأول إخلاف وعد، والثاني إخبار عن شيء لم يحصل في الواقع، وهو الكذب، وكلا الأمرين قبيح في حق المؤمن، والله يمقته ويكرهه ولا يحبه، وأتى بكلمة (عند الله) للتنفير، فتنزه عنه وابتعد، والمعنى: قولُكم دون فعل، أو قولُكم لشيءٍ خلاف الواقع، أمر مبغوض ومكروه كراهة عظيمة عند الله.

ثم جاء الحديث عن مدح ذلك الشيء الذي سألوا عنه، وهو أحب الأعمال إلى الله بعد الإيمان، وهو الجهاد، **فقال الله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾، بيان ومقارنة بين ما يُحبه الله وما يُبغضه، والهدف من ذلك حثُ السامع أن يتجه نحو ما يُحبه الله له من الأعمال، ويبتعد عن ما يكرهه الله ويبغضه من الأعمال، فالله يُحب الطاعات عمومًا ويكره المعاصي عمومًا، يُحب الإيمان ومستلزماته ويكره الكفر ومستلزماته، **وهنا ذكر أنه يحب أشخاص المؤمنين الموصوفين بهذين الوصفين**:

الأول: أنهم خرجوا مخلصين لله تعالى في قتالهم لا يريدون رياءً ولا سمعةً ولا دنيا، ولا يُقاتلون عصبية، ولا من أجل وطن أو حزب أو جماعة، إنما يُقاتلون من أجل الله، وفي سبيل الله، وهو دينه وشرعه، فينصرون دين الله ويُدافعون عنه.

والوصف الثاني: **أنهم منضبطون حسًا ومعنىً**، **أما حسًا** فحينما يكون القتال

بالمسايفة، يحتاج أن يكونوا على شكل صفوف متراصة، يؤازر بعضُهم بعضًا ولا يُمكن أن ينفذ العدو من خلالهم إلى قلب الجيش، فهذا النوع من القتال يكون الجند فيه صفوفًا كأنهم بنيان مرصوص، **أي**: كالبناء المترابط الذي يكون قويًا متماسكًا ومتساويًا، ولو كان عشوائيًا أو غير مترابط لكان ضعيفًا غير قوي.

وأما الانضباط المعنوي فيكون في المنهج، وهو أهم من الانضباط الحسي، والانضباط المعنوي يدفع صاحبه إلى الاستمرار والإخلاص والبذل والتضحية، ويمكن تسميته بالانضباط المنهجي، عقيدة سليمة، منهج سليم، يدفعُ صاحبه إلى الصبر والثبات، والإقدام والتضحية، وعدم التراجع، وهذا أهم من الأول، لأن الأول مرحلي ومؤقت، ويتغير بتغير آلة الحرب وزمانها ومكانها، كما حصل في هذا العصر، فالناس لم يعودوا يتقاتلون بالسيوف، ولا يحتاجون إلى الصفوف، بل الآن وسائل القتال والمعارك تُدار بالتقنية، ومن الخطأ الجسيم في الحرب المعاصرة أن يتجمع الجنود في مكان واحد، فتأتي قاذفة فتأخذهم جميعًا، أو يأتي الطيران المسيّر فيهلكهم بضربة واحدة، فالتخفي والتفرق الجسدي مطلوب في الحرب، ولكن يبقى البنيان المرصوص في الجانب المعنوي، وهو المنهج والصفات التي تربط بعضهم ببعض، وتجعلهم مستمرين ومخلصين في جهادهم في سبيل الله تعالى، وقد أدرك أعداء الإسلام اليوم من المسلمين خطورة الأمر الثاني، فسعوا إلى تمزيق أوصال المسلمين وإفساد عقائدهم وتشتيت اجتماعهم، حتى أصبح المسلمون يقتلُ بعضُهم بعضًا، ويُحارب بعضُهم بعضًا، والعدو يدعم هذا ويدعم هذا، ولو أخذ

المؤمنون بوصايا القرآن والسنة وعادوا إلى المنهج الواحد والعقيدة السليمة، ووقفوا صفًا أمام أعدائهم من اليهود والنصارى والملحدين والمشركين، لكانوا قوةً لا يُستهان بها، ولما استطاع العدو أن يأخذ بلدانهم ولا أن ينهب ثرواتهم، ولا أن يتصرف في قرارهم ويتحكم في أمورهم صغيرها وكبيرها، نسأل الله السلامة والعافية، وأن يُهيئ لهذه الأمة أمرًا رشدًا.

ثم قال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾، ما وجه العلاقة بين ذكر موسى هنا بعد ما سبق ذكرُه من قصة عتاب الله للمؤمنين؟، الجواب: احتمال أن يكون النبي ﷺ تأذى من هذا الفعل الذي حصل من بعض أصحابه، فأراد الله تعالى أن يُسلي رسوله ﷺ بذكر ما حصل لموسى من أذية من قومه، وهم اليهود، وهم قومٌ سيئو الطباع، ولو قرأت قصصهم في القرآن وبعض حواراتهم مع أنبيائهم لرأيت العجب من أخلاقهم السيئة.

وأذية قومه له نوعان: الأذية العامة بالكفر والتكذيب، والأذية الشخصية له، حيث اتهموه ببعض الاتهامات الباطلة، **وقد ذكرها الله تعالى في قوله:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾[الأحزاب:٦٩]، **فقد جاء في الحديث: "إن موسى كان رجلاً حييًّا ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل**

يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانًا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه، ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا"(١)، والندب: أثر الضرب، والأدرة: انتفاخ في الخصية.

وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾، أي: لما ابتعد اليهود عن الإيمان وأسبابه، أبعدهم الله، وهذا يدل على أن الأذية عامة، وهي التكذيب والإعراض والكفر، فأزاغ الله قلوبهم عن الإيمان، فالجزاء يكون من جنس العمل، وهذ أمر خطير جدًا يجب أن ينتبه إليه المسلم، وهو أن القلوب بيد الله، فإذا انحرف العبد وعصى الله، فقد يُعاقبه الله بزيغ قلبه عن الحق، ولذلك كان النبي ﷺ يُكثر من دعاء: "يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك"(٢)، وعلّل ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾، فحرمانهم من الهداية كان بسبب كثرة فسقهم، والمقصود به الفسق الأكبر.

ثم ذكر أيضًا قصة عيسى، وهي أيضًا نوع من التسلية لرسول الله ﷺ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾، وبنو إسرائيل إذا أُطلق؛ يُقصد بهم اليهود والنصارى، ومثله أهل الكتاب، فأخبرهم عيسى بن مريم أنه رسول الله إليهم، وأنه جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة، فرسالة

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١٥٦)،برقم: (٣٤٠٤).

(٢) مسند أحمد: (٤١/ ١٥١)، برقم: (٢٤٦٠٤)، وسنن الترمذي: (٥/ ٤٢٣)، برقم: (٣٥٢٢)، وهو حديث حسن.

عيسى مكملة لرسالة موسى، والإنجيل مكمل لأحكام التوراة.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، هذه بشارة عيسى بمحمد ﷺ، **وفي الحديث: "أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور بصرى من أرض الشام"**[(١)]، **فدعوة إبراهيم:** ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[البقرة:١٢٩]، **فهو أحمدُ** في السماء **ومحمدٌ** في الأرض، وأصلهما واحد وهو الحمد.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦)﴾، فلما جاء محمد ﷺ، وبُعث في قومه بالبينات وهي الحجج والبراهين، **قال الكافرون** من قريش عن ما جاء به وهو القرآن: هذا سحر يُفرق بين الأخ وأخيه، والمرأة وزوجها، والأب وأبيه.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾، **أي:** لا أحد أظلم من الذي يكذب على الله، وصور لنا سوء كذبه وقبحه بكونه يُدعى من غيره للدخول في الإسلام، وهو يخترع الكذب ليصد نفسه عن الخير، فلو اضطر الإنسان للكذب من أجل أن يبتعد عن فعل شيء محرم، فقد يكون له عذر، والأفضل أن يستخدم المعاريض ولا يقع في الكذب الصريح، **كما استخدمها إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **في قوله:** ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾[الصافات:٨٩]، لما طلب منه قومُه أن يحضر حفل تنصيب الأصنام والشرك بالله، فقال: إني سقيم، وهو لم يكن مريض الجسد، **وإنما قال:** أنا مريض القلب من فعلهم هذا، ونفسه لم تطاوعه أن يسجد لصنم.

---

(١) مسند أحمد: (٢٨/ ٣٩٥)، برقم: (١٧١٦٣)، وهو حديث صحيح لغيره.

وقولـه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾، هـذا مثـل قولـه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾، والمعنى: أن الظالـم يُحرم الهداية كما أن الفاسق يُحـرم الهدايـة، فالظلم من أسباب حرمان العبد للهداية، ومن عنده ظلم ولو كان قليلًا فعنده من موانع الهداية بقدر ما عنده من الظلم، فمـن أراد الهدايـة التامـة الكاملـة فعليـه أن يبتعد عن الظلم بكل صوره حتى تأتيه الهداية بكامل صورها وجوانبها.

من فوائد وهدايات الآيات:

١- أخبر الله سبحانه أن الخلق يسبحون له، وختم الآيـة بمـا يـدل علـى غنـاه عنهم.

٢- أن الله يُحب الإيمان ومستلزماته، ويكره الكفر ومستلزماته.

٣- أن الانـضباط المعنـوي الـذي يكـون في المـنهج أهـم مـن الانـضباط الحـسي، لأنـه يـدفع صـاحبه إلـى الاسـتمرار والإخـلاص والبـذل والتضحية من أجله.

٤- أن الظلم مـن أسـباب حرمـان العبـد للهدايـة، ومـن كـان عنـده ظلـم ولـو قليلًا ففيه من موانع الهداية بقدر ما عنده من الظلم.

تفسير المقطع الثاني من سورة الصف

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾، هذا إخبار عن المكذبين لرسول الله ﷺ من كفار قريش وغيرهم، ورغبتهم في إطفاء نور الله تعالى، والمقصود به دينه وشرعه[1]، وهو هدفٌ لأعداء الإسلام قديمًا وحديثًا لإبطال الإسلام وإبعاد الناس عنه، وعبّر هنا بالإطفاء لأن الإطفاء هو آخر مراحل ذهاب النور، وهو الانعدام، فلا يبقى له أي شعاع، وربط هذا الإطفاء بأفواههم؛ إشارة إلى فشل مشروعهم هذا، فلو تخيلت نورًا عظيمًا كبيرًا

(١) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨٥٩).

كنور الشمس مثلًا، ثم أردت أن تُطفئه بالنفخ بفمك، فأنى لك ذلك؟!، ونسب النور إلى الله، وهي نسبة تعظيم وتشريف، فمهما فعلوا من مشاريع وأعدوا من خُطط لإفشال الإسلام، وإطفاء نوره، فإن مصيرها كمصير من ينفخُ الشمس بفمه، **وحاله كحال من قيل فيه**[١]:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل!!

فمشاريعُ أعداء الإسلام منذ ظهر الإسلام وإلى اليوم مع أنها عظيمة وكبيرة، إلا أنها لم تذهب بنور الإسلام، فالله قد وعد بإتمام نوره، ووعد الله هو الذي تحقق، رغم كراهيتهم لذلك.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فقد أرسل محمداً ﷺ بالهدى، وهو القرآن، ودين الحق، وهي شرائع الإسلام، ولم يأت بالضلال، وكلما بقيَ الناس على الهدى، وابتعدوا عن الضلال، كلما بقي لهم دينُهم، والدين اسم جنس، فيشمل الأديان كلها، فأبطلها ونسخ أحكامها، ولا يقبل من الخلق دين سواه، وذلك كائن رغم كراهية المشركين، **وقال في الأولى**: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾، **وفي الثانية قال**: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾، من باب تنويع الخطاب، فالله تعالى خاطب السامعين على وفق المسميات الموجودة، فهناك كفار وهناك مشركون، فالكفار يجحدون الإله جحدًا مطلقًا مثل الإلحاديين، والمشركون قد يُؤمنون بوجود إله ولكن يشركون به غيره.

---

(١) ينظر: حياة الحيوان الكبرى: (٢/ ٥٥٢).

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾، هل أدلكم؟ هذا يُسميه علماء البلاغة أسلوب الحث والعرض، فالعُقلاء يُبادرون، لأن فيه استنهاضًا لهممهم، ولذا يقال: لا تأمر الناس أمرًا، فتأخذهم العزة فلا يُنفذوه، وإنما حثهم وحضهم بطريقة يشعرون أنك تحثهم فقط، فيُبادرون أكثر، والتجارة إذا أُطلقت فمعناها: تقليب المال لطلب الربح[1]، والنفس البشرية تُحب المال، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾[العاديات:٨]، وهذه التجارة مع الله، وليست مع البشر، فهي حسنات وأجور وثواب عظيم، وفيها النجاة من عذاب الله الموجع في الآخرة.

ثم بدأ يفصل في نوع هذه التجارة، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾، ومعناه: استمروا على إيمانكم، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[النساء:١٣٦]، أي: استمروا وزيدوا في مقدار إيمانكم، وهذه من الأعمال المتعلقة بالقلب، وهو الإذعان والتصديق ونحوها من أمور الاعتقادات القلبية، ثم أتبعها بأعمال الجوارح، وذكر نوعين: الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس، ويجب أن يكونا في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، فقد سُئل النبي ﷺ: من المجاهد في سبيل الله؟ قال: "**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**"[2]، أما من يجاهد من أجل السلطة أو المال أو الأرض أو لحمية الجاهلية؛ فهو في سبيل الذي جاهد من أجله، ولذا يقال له: شهيد

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط: (١/ ٨٢).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٦)، برقم: (١٢٣)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥١٢)، برقم: (١٩٠٤).

الوطن، وشهيد الديمقراطية، وشهيد الإنسانية، وشهيد الكلمة، ونحوها من المسميات التي ربطت الشهادة فيها بنية صاحبها.

أما الشهيد شرعًا؛ فهو من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، واسم الإشارة يعود إلى التجارة ومفرداتها، وهي خير من غيرها من الأعمال، وقد سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال، فقال: "**إيمانٌ بالله وجهادٌ في سبيله**"[(١)]، لو كنتم تعلمون مقدار عظمة أجرها وقيمتها عند الله، وهذا يدل على أن العلم بحقيقة الشيء وثوابه وأجره، سبب في الاجتهاد في تحصيله، فمن اقتنع بمسألة أو عمل عن علمٍ واعتقاد يختلف حاله عن من يعتنقها أو يعمل بها عاطفة أو بجهل، وممكن يتركها في أي وقت.

وقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، وهذا من الخير الذي تحصلون عليه من هذه التجارة الرابحة، حيث يُطهركم من آثار الذنوب والمعاصي، وهذا يدل على أن الإنسان مع إيمانه وجهاده قد يقع في الذنب والتقصير، فيغفر الله له بالجهاد، وفي الحديث: "**يُعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه: يُكفر عنه كل خطيئة**"[(٢)]، وفي حديث آخر: "**أن أرواح الشهداء تكون في جوف طيرٍ خُضرٍ تسرحُ بهم في أنهار وأشجار الجنة**"[(٣)]، وذلك خلال فترة البرزخ، كما قال: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ

---

(١) صحيح البخاري: (٣/ ١٤٤)، برقم: (٢٥١٨).

(٢) مسند أحمد: (٢٩/ ٣٢٢)،برقم: (١٧٧٨٣)، وهو حديث حسن.

(٣) صحيح مسلم: (٣/ ١٥٠٢)، برقم: (١٨٨٧).

﴿يُرۡزَقُونَ﴾[آل عمران:١٦٩]، فهذا الدخول الأول، وبعد البعث تعود الروح إلى الجسد ويدخلون الجنة بأجسادهم وأرواحهم، والجنة جنات متعددة، وفي كل جنة درجات، وما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء والأرض(١)، ومن أوصافها أن الأنهار تجري من تحت أشجارها وبين قصورها وهي أنهار الماء، وأنهار اللبن، وأنهار الخمر، وأنهار العسل، والمساكِن جمعُ مسكِن، وهي البيوت والقصور، **ووصفها بأنها طيبة أي**: ليس فيها ما يُنغص على ساكنها بحال من الأحوال، وهذه المساكن كائنة في جنات عدن، فأهلها لن يفارقوها ولا يخرجون منها، فجمع لهم بين النعيم الحسي والمعنوي، فأخطر ما يُواجه الإنسان في الدنيا، **مهما تنعم مشكلتان**: ذهاب النعمة، أو الموت، وفي الجنة لا هذا ولا هذا، نسأل الله من فضله.

وقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾، بعد أن ذكر ما ينال الشهداء، أخبر عن ما ينال الأحياء من المجاهدين في الدنيا، فبشرهم بخصلة أخرى تحبها النفوس بحسب طبيعتها البشرية **كما قال**: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾[القيامة:٢٠]، وهي التمكين على العدو وهزيمته، والغنيمة التي تأخذونها منه، ثم أعطاهم بشارة عامة، ثم أمر الله رسوله أن يبشر المؤمنين، وأطلق البشارة، ولم يعينها، فبشارة العظيم لابد أن تكون عظيمة.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٦)، حديث رقم:(٢٧٩٠).

لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفي قراءة[1]: ﴿كونوا أنصارًا لله﴾، فأمر الله المؤمنين أن يكونوا أنصار الله، أي: أنصاراً لدينه وشرعه، وأنصاراً لرسله وأوليائه، فإن الله عزيزٌ قوي لا يحتاج إلى من ينصرُه، ثم ضرب لنا مثلًا بمن سبق من الأمم السابقة، وهم أمة عيسى، والحواريون هم الخُلَّص من تلاميذه وأتباعِه وأصحابه، أي: من يُعاونني وينصرني مع الله[2] من البشر حتى أبلغ دينه، وهذا من الأخذ بالأسباب المادية، فيجتمع فعلُ البشر وهو الأخذ بالأسباب مع نصر الله وهو التوفيق والتأييد، فاستجاب الحواريون لطلبه.

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: انقسم بنو إسرائيل إلى قسمين: قسمٌ آمن بدعوة عيسى وبدعوة الحواريين من بعده وهم الموحدون، وقسمٌ كفر بعيسى وهم اليهود ومن على شاكلتهم، وهذه الآية تُبيّن أن من أهم أسباب النصر بين الحق والباطل أن يتمايز الصفان، فإذا صار صف الإيمان واضحًا لا نفاق فيه، وصف الكفر واضحًا لا إيمان فيه، فالنتيجة أن الله ينصر المؤمنين على الكافرين، وإنما يتأخر النصر بسبب عدم التمايز، فصف المؤمنين ما يزال مختلطاً فيه المنافقون ومن لهم مصالح، فيتأخر النصر عنهم، وصف الكفر ما زال فيه بعض من فيه خير ويُحب الخير حتى لو كان كافرًا، وهذا الذي تُشاهدونه اليوم في واقع الأمة، لماذا لم تُهزم أمريكا رغم قبائحها وفجورها في الأرض؟؛ لأنه ما زال فيها خير،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٦٦).

فما زال العدل والخير في بعضهم، ولماذا لم ينتصر المؤمنون رغم أنهم أفضل في دينهم من الكافرين؟؛ لأنه ما زال في هؤلاء المؤمنين من لا يستحق النصر، فما زال فيهم منافقون، وما زال فيهم فساد وانحراف وظلم؛ فلذلك يتأخر النصر عنهم.

وهنا سؤال: متى حصل التأييد لأصحاب عيسى؟، مع أن عيسى رُفع وعُمره ثلاثة وثلاثون سنة، وقام اليهود بادعاء أنهم قتلوه وصلبوه، كما قال الله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:١٥٧]، والحواريون توزعوا في الأرض وآذاهم اليهود وأذاقوهم سوء العذاب، وغيروا دينهم، فالنصرانية الموجودة اليوم ليست دين عيسى، بل هي مجموعة من أديانٍ منحرفة من الهندوس والبراهمة وبقايا اليهودية؟!، **والجواب:** أن التأييد هو تأييد منهجي ببعثة محمد ﷺ الذي جاء بالتوحيد فنصر دين عيسى، فالنصارى الموحدون آمنوا بمحمد ﷺ فأصبحوا ظاهرين بظهور أهل الإسلام(١)، والإسلام ظاهر على اليهودية والنصرانية المحرفة، ويدخل في معنى الظهور أيضًا ما سيكون في آخر الزمان حينما ينزل عيسى، وينصر شريعة محمد ﷺ، فكل من التحق بعيسى فسيكونُ ظاهرًا، لأنه لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فيظهر الموحدون على الكافرين، وينتهي الكفر، وتبقى الأرض كلها على التوحيد فترة بقاء عيسى في آخر الزمان، والله أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٦٧).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الله تعالى بيّن للخلق طريق الخير وطريق الشر، فإذا اختار الإنسان طريق الهداية زاده الله هدى، وإذا اختار طريق الضلالة أضله الله.

٢- بشرت الرسالات السابقة بنبينا محمد ﷺ، ومن ضمنها بشارة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ به وبنبوته.

٣- أن التمكين للدين وأهله سنة إلهية ماضية، وأن دين الله سيبقى ظاهراً مهما حاول أن يطمسه أعداؤه.

٤- أن الكفار لا يدَعون من يقوم بدين الله حق القيام؛ حتى لا يستيقظ الإسلام في نفوس أصحابه، فيسقطون عروش الظلمة.

٥- أن التجارة الرابحة التي لا خسارة فيها هي التجارة مع الله، وأبرز ركنين لها هما: الإيمان الصادق، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وثمارُها دخول الجنة في الآخرة، والنصر والتمكين في الدنيا، وحصول البشارات المتنوعة لعموم المؤمنين.

٦- أن الله قد يُعجل جزاء المؤمنين في الدنيا، وقد يؤخره لهم إلى الآخرة، ولا يضيع شيء عند الله.

تفسير سورة الجمعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (١) هُوَ ٱلَّذِي
بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن
كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٢) وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ
فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (٤) مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ
يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥) قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ
ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ (٧) قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ
ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن
يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩) فَإِذَا
قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ
وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١)﴾.

شخصية السورة:

سورة الجمعة؛ سورة مدنية[١]، **ومقصدها العام** بيان فضل الله تعالى ومنّته على هذه الأمة ببعثة محمد ﷺ فيها.

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ﴾، **أي**: يُنزه الله ويُقدسه ويُمجده كل المخلوقات في السموات وفي الأرض، الأحياء والجمادات، الناطقة والصامتة، عاقلها وغير عاقلها، كلها تُقدس الله وتُنزهه، وهذا التزيه والتقديس كلٌ بحسب حاله ولسانه ولغته، **كما قال**: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾[الإسراء:٤٤]، فالجماد يُسبح، والشجر يُسبح، والحجر يُسبح، والجن والطير وسائر الحيوانات كل واحد يُسبح الله تعالى بما يليقُ بحاله، والمِلك **أي**: صاحب السلطة والهيمنة والقهر لجميع المخلوقات، والمتصرف في كل شيء، **والقدوس**: الطاهر المُنزَّه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾، **أي**: إن تسبيح المخلوقات له، ليس لأنه يوجد خللٌ في فعل الله وخلقه وشرعه، بل هو حكيمٌ في أفعاله وقويٌ في جَنابه وقدرته وعزته، بل هو غني عن تسبيح الخلق، جل وعلا.

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، والآية الأولى توطئة للآية الثانية ومُمهدة لها، **والمعنى** أن الله تعالى الملك القدوس العزيز الحكيم، الذي تُسبح له المخلوقات كلها، هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم، والأميّون

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١١٥).

المقصود بهم العرب؛ لأنهم لم يكونوا يقرؤون ويكتبون كثيرًا[١]، بل كانت الكتابة والقراءة قليلة جدًا فيهم، **وقيل**[٢]: لأنه لم يُنزل فيهم كتابٌ ولا بُعث فيهم رسولٌ من قبل، فالعلم يأتي به الرسل ويأتي من الكتب، كما حصل لبني إسرائيل حيث أرسل إليهم عدداً من الرسل ونزلت فيهم عددٌ من الكتب، فامتنّ الله على العرب ببعثة رسول منهم **أي**: من جنسهم[٣]، وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ثم بيّن ما هي مهمات هذا الرسول، **فقال**: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فبيّن أن له ثلاث مهمات رئيسية يقوم بها، **وهي**: يقرأ ويُرتل عليهم القرآن، وقد فعل ذلك، فكان يقرأ القرآن على أصحابه حتى أخذوا القرآن منه مشافهةً، ويُطهرهم من الشرك والنفاق وأدران المعاصي والمنكرات، ويدعوهم إلى امتثال الأخلاق والصفات الحسنة، ويُفهمهم أحكام الوحي، وهي معرفة الحلال والحرام، والترتيب في هذه المهام ترتيب منطقي، فمن أراد أن تزكو نفسُه، فلا يوجد لزكاة النفوس مثل تلاوة القرآن، فهو أول مراحل البناء التربوي الأخلاقي السلوكي للنفس الإنسانية، اقرأ القرآن، واستمع للقرآن، سيُؤثر القرآن في نفسك، فتزكو وتتطهر وتبتعد عن المعاصي والمنكرات، ثم ينفتحُ عقلُك للعلم والفهم والاستيعاب، فالعلم نورُ الله، لا يمنحُه الله للعصاة والفساق، **قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ**[٤]:

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٢٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٥٣٨).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٦٧).

(٤) ديوان الإمام الشافعي: (ص: ٦١).

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
فأرشدني بأن العلم نورٌ ونور الله لا يُهدى لعاصي

فلا بد من طهارة القلب وتزكية النفس أولاً، ثم يأتي بعدها الفهم والتعلم للأحكام الشرعية والعمل بها، وإذا وجدت شخصًا عنده علم ولا يعمل به فهذا -والعياذ بالله- يُكثر على نفسه من حجج الله، وإذا وجدت عالمـاً غير ورعٍ وسلوكه سيء؛ فعلمه هذا غير مثمر، وهو حجة عليه بين يدي الله تعالى.

وقوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾، **أي:** كان العرب قبل أن يُبعث محمد ﷺ في ضلال واضح وبيِّن؛ لكثرة الانحرافات التي حصلت في الناس.

ثم قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، الواو حرف عطف، و(آخرين) معطوف على (الأميين) **أي:** بعث في الأميين، وبعث في آخرين، واختلف المفسرون في المقصود بهم على قولين[1]، **قيل:** هم الأعاجم غير العرب؛ لأن الأميين عرب، والإسلام دين للبشرية للعرب وللعجم، **وقيل:** المقصود بهم كل من آمن بالإسلام بعد الصحابة من التابعين إلى أن تقوم القيامة، سواءً كانوا عربًا أو عجمـاً، وهذا هو الراجح، لأن كلمة (آخرين) تشملُهم جميعًا، وعبّر هنا بـ(لمّا) وهي للنفي القريب، وهو النفي المتصل إلى زمن التكلم، بخلاف النّفي بلم فإنه منقطع عنه[2]، **وفي هذا بشارة للنبي** ﷺ أن دينه سيدخل فيه الناس

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٩٣).

(٢) ينظر: بيان المعاني: (٦/ ٢٥٥).

أجمعون في وقتٍ قريب، وهو الذي كان، فما انتهت الخلافة الراشدة سنة أربعين إلا وقد عم الإسلام كثيراً من الأرض، ووصل إلى أطرافها من جهة أوروبا، وكانت الجزيرة كلها ومصر والشام وجزء كبير من أفريقيا والمغرب قد دخل أهلها في دين الله أفواجًا.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾، فهو العزيز ذو القوة والمنعة، والحكيم في أمره ونهيه الذي لا خلل فيه ولا خطأ، هو الذي سيجعل الإسلام ينتشر، ويجعل الناس يدخلون في دين الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾، **ذلك**: اسم إشارة إلى بعثة محمد ﷺ في الأميين، فالرسالة إليهم فضل، واختيار المرسَل إليهم فضل، وكونُه من العرب فضل، والدين نفسُه الذي أُرسل به فضل الله، وهذا فضل الله يمنحه ويُعطيه من يشاء من عباده، فهو صاحب فضل عظيم وواسع لا يحدُّه حد.

بعد هذه المقدمة التي فيها الامتنان على أمة محمد ﷺ، وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ، وانتشار هذا الدين؛ انتقل الحديث إلى بيان حال اليهود مع كتابهم ودينهم، وضرب مثلًا سيئًا لهم، وإذا ضرب الله مثلًا سيئًا في القرآن فالمقصود منه تحذير المسلمين وتنفيرهم، **فقال الله:** ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، **والمقصود بهم** اليهود، حيث كُلّفوا العمل بأحكام التوراة التي أنزلت على موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يعملوا بما فيها من أحكام، فشبه حالهم بحال حمار يحمل فوق ظهره كتبًا

كثيرة لا يدري ما فيها، فهو مجرد حامل لها وليس معنياً بفهمها والعمل بما فيها، فهكذا حال اليهود مع التوراة يحفظونها ويعملون بخلاف ما فيها، ولذلك غضب الله عليهم؛ لأنهم عصوا الله بعلم، والنصارى وصفوا بالضلال؛ لأنهم يعملون بجهل.

وقال سفيان بن عيينة: "من فسد من علمائنا ففيه شبَه باليهود، ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه بالنصارى"[1]، **وبئس تأتي في اللغة للذم، أي**: بئس المثَل مثل الذين جحدوا وأعرضوا عن العمل بما في التوراة من أحكام، ومنها الآيات التي تُبشر بمحمد ﷺ وبنبوته، فكتمها اليهود وجحدوها.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾، هذا خبر ويصلُح أن يكون قاعدة مطّردة، **وهي**: أن الظلم سبب من أسباب الحرمان من الهداية، **والمعنى**: أن الله حرم اليهود الهداية وتركوا العمل بما في التوراة بسبب ظلمهم.

ثم قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦﴾، قل يا محمد لليهود الذين زعموا أنهم تابوا ورجعوا إلى الله، إن كنتم مصرين على زعمكم أنكم أولياء الله وأحباب الله دون غيركم من الخلق؛ لأن هذه كانت دعوى يدعيها اليهود لأنفسهم، **كما قال الله عنهم**: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[المائدة:١٨]، وهو سؤال اختبار وامتحان لهم، **والمعنى**: إن كنتم فعلاً من أحباب الله ومن أولياء الله؛ فإن المحب يشتاق لرؤية

---

(١) تفسير ابن كثير: (٤/ ١٣٨).

حبيبه، وليس بينكم وبين أن تروا حبيبكم إلا أن تموتوا!!، والحقيقة أنهم كاذبون في دعواهم هذه، فليسوا أولياء لله، **ولذلك جاء الجواب عن حالهم من الله، بقوله:** ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾، فلن يحصل منهم هذا التمني مطلقاً، بسبب الذي فعلته أيديهم من الجرائم والمعاصي والمنكرات، والله عليم بأنهم ظالمون لأنفسهم بعيدون عن الله بسبب ظلمهم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، **قل لهم:** تمنيتم الموت أو لم تتمنوه، فالأمر ليس إليكم، فالموت لا يأتي بالتمني له ولا يغيب بالكراهة له، بل هو أجل محتوم يأتي في موعده مهما هربتم منه، وحرصتم على الحياة، **كما قال:** ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[البقرة:٩٦]، **والملاقاة في لغة العرب**[1] **هي:** المصادفة، وتُطلق على ما يتم دون موعد سابق، أي يأتي لكم فجأة.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾، فترجعون وتُحشرون إلى الله عالم ما غاب وما حضر، فلا يخفى عليه شيء، فيُخبركم بكل أعمالكم حسنها وسيئها، ثم يُحاسبكم عليها.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾، ما سبق من كلامٍ في بداية السورة إلى هنا، إنما هو توطئة لأحكام يوم الجمعة، فإن يوم الجمعة يومٌ أضل الله عنه اليهود والنصارى، فاليهود أخذوا السبت، والنصارى أخذوا الأحد، **وفي**

(١) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (٩/ ٦٠٩٨).

الحديث: **"نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد"**(١)، **وسُمي بالجمعة** بعد الإسلام، أما قبل الإسلام فكان يُقال له في **اللغة القديمة:** يوم العروبة(٢)، فلما جاء الإسلام واجتمعوا سُميت جمعة، **والجمعة** عيد الأسبوع، **ولها خصائص وأحكام، منها:** لبس أحسن الثياب، والتعطر، والتبكير إلى الصلاة، والانشغال بالذكر وقراءة القرآن، **وفي يوم الجمعة عدد من الفضائل، منها:** خلق الله آدم فيه، وتقوم فيه الساعة، وغير ذلك من الفضائل، فأخبر الله تعالى عباده المؤمنين أن يهتموا بصلاة الجمعة، وهي عوض عن الظهر في باقي الأيام، والمعذور الذي لا يُصلي الجمعة بسبب سفرٍ أو مرضٍ يُصلي بدلًا عنها ظهرًا، المرأة إن لم تحضر الخطبة وتصلي مع الناس تُصلي في البيت ظهرًا، فإذا أُذِّن لصلاة الجمعة، وهو الأذان الذي يتم عند صعود الخطيب إلى المنبر فيجب على من وجبت عليهم الجمعة أن يتركوا ما في أيديهم وكل أشغالهم والمُضي إلى المسجد لسماع الخُطبة، وذُكِر البيع لأنه أبرز ما يشتغل به الناس، ولذلك يحرُم البيع والشراء وسائر الأعمال بعد أذان الخطبة لمن وجبت عليه الجمعة، والسعي المقصود به العزم والتهيؤ والذهاب إلى المسجد لسماع الخطبة وأداء الصلاة، لأن خطبة الجمعة تقوم مقام الركعتين اللتين خُصمت من صلاة الظهر، فيحضر الخطبة، وينصت لها ولا يتكلم، فإنّ ترْك أعمالكم والسعي لحضور الذكر والصلاة خيرٌ

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٢)، برقم: (٨٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير: (٨/ ١١٩).

لكم من أرباح التجارة والصناعة والزراعة؛ لو كنتم تعلمون عظم ما سيعطيكم الله من الأجر على ذلك، لأن التجارة مع الله أعظم من التجارة مع الخلق.

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا من يُسر الإسلام، فالله لم يأمرنا أن نمتنع عن البيع والشراء والزراعة والصناعة وسائر الأعمال الوقت كله، وإنما حدد لنا وقتًا قصيرًا نعبد الله فيه ثم ننطلق إلى أعمالنا، والأمر هنا للإباحة، أي: من شاء منكم أن يبقى في المسجد فليبقَ بعد الجمعة، ومن أراد أن يخرج فليخرج إلى عمله، ويبتغي من فضل الله، الذي هو الرزق، وهذا من باب الأخذ بالأسباب، تريد رزق، تريد فضل الله يأتيك، تحرك، اخرج، خذ بالأسباب.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾، والذكر نوعان: ذكرٌ بمعنى حضور الصلاة والخطبة، وهذا ذكر معين يحتاج أن تقوم به في المسجد وتترك أعمالك من صناعة وزراعة وبيع وشراء، وذكرٌ آخر مطلق تستطيع أن تقوم به وأنت في عملك، وهو ذكر اللسان، فتبيع وتشتري وتزرع وتصنع وأنت تذكر الله بلسانك، وهو من أسهل العبادات، وربط الفلاح والنجاح في الدنيا وفي الآخرة بذكر الله وطاعته والاستقامة على أمره والامتثال لشرعه تعالى.

ثم أخبر عن حالةٍ وقعت في عهد النبي ﷺ وكانت سببًا في نزول هذه الآيات، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾، فقد كان النبي ﷺ يخطب الجمعة في المدينة، وكان قد أصاب الناس جوع وغلاء في الأسعار، فبينما هو يخطب إذ جاءت قافلة من الشام إلى المدينة، وكان من عادة العرب

إذا جاءت القوافل ودخلت المدن أن يضربوا أمامها الدفوف تنبيهًا أنها قد وصلت، فسمع الناس ضرب الدفوف، وهو المقصود هنا باللهو، فتركوا الخطبة وخرجوا إلى القافلة، وتركوا النبي ﷺ قائمًا يخطب على المنبر، حتى لم يبق معه في المسجد إلا اثنا عشر رجلًا، فأنزل الله هذه الآية[1] عتابًا لهم، وعبّر هنا بالانفضاض، وهو الخروج غير المرتب، يعني كل واحد خرج من جهة، وفيه تجاوز للمكان واحتمال لعدم العودة إليه، **والمعنى**: كيف تتركون رسول الله قائمًا ويخطب ويعظكم وأنتم تخرجون؟! فهذا لا يليق بكم.

وقوله: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾، وأخبرهم أن ما عند الله خيرٌ من اللهو والتجارة، وفي هذا تزكية لمن جلس معه في المسجد، فهم خيرٌ منكم، وقد حصلوا على أجرٍ عظيم، فإن كان خروجكم لطلب الرزق فمصدر الرزق ومانحه هو الله سبحانه، وخير هنا ليست بمعنى أفضل، فكل خير مرتبطة بالذات الإلهية، فلا تكون بمعنى أفضل، وإنما تكون بمعنى الاتصاف بالشيء وذلك في القرآن كله، **مثل قوله**: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤]، وهذه قاعدة من قواعد التفسير[2]، فتكون هنا بمعنى كمال وتمام الشيء، لا بمعنى التفاضل بينه وبين غيره تعالى.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٢٣).

(٢) ينظر: مختصر في قواعد التفسير، للسبت: (ص: ٨).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- عِظم منّة الله على البشرية عامة، وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ.

٢- أن الهداية تُطلب من الله تعالى، وهي فضلٌ منه يمنحُها من يشاء ويحرمُها من يشاء، وعلى العبد أن يتعرض لأسبابها، ويبحث عن وسائل الوصول إليها.

٣- إبطال دعوى اليهود في أنهم أولياء لله باختبارهم بتمني الموت، ورفضهم ذلك، خوفًا مما قدمته أيديهم من منكرات.

٤- وجوب السعي إلى صلاة الجمعة بعد نداء الخطبة، وحرمة البيع والشراء وما سواه من الأعمال إلا لمن كان عنده عذر.

٥- لا يليق بالمسلم أن يترك مجالس العلم والذكر ويذهب إلى أماكن اللهو وضياع الأوقات.

تفسير سورة المنافقون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا
رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ
صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ
لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ
أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ
٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ
لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا
يَعۡلَمُونَ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن
يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ
ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن
يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

شخصية السورة:

سورة المنافقون؛ سورة مدنية[١]، **والمقصد العام للسورة**، بيان حال المنافقين والتحذير من صفاتهم.

وسبب نزول السورة: جاء في الصحيحين[٢]، حديث زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: خرجنا في غزوةٍ، فسمعت عبد الله بن أُبيّ، يقول: لا تُنفقوا على من عند رسول الله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فناداه فأتى فحلف أيمانًا أنه لم يقل، وتركه النبي ﷺ، وقال من حولَه ما كان لك إلا أن كذّبك رسول الله، قال: فأمسيت بشر ليلة، ورجوت أن يُبرئني الله، فما أصبحنا حتى أنزل الله سورة (المنافقون).

وجاء في الصحيحين[٣] **أيضًا** من حديث جابر أن النبي ﷺ خرج مع أصحابه في غزوة المريسيع، فاختلف غلام من المهاجرين مع غلامٍ من الأنصار، وصاح الأنصاري: يا للأنصار، وصاح المهاجري: يا للمهاجرين، فحضر المهاجرون والأنصار وكادوا أن يقتتلوا، فبلغ النبي ﷺ الخبر فقال: **"أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!، دعوها فإنها منتنة"**، فقال عبدُ الله بنُ أُبيّ: لو أننا

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٨/ ١٢٥).

(٢) صحيح البخاري: (٦/ ١٥٢)، برقم: (٤٩٠٠)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٤٠)، برقم: (٢٧٧٢).

(٣) صحيح البخاري: (٦/ ١٥٤)، برقم: (٤٩٠٥)، وصحيح مسلم: (٤/ ١٩٩٨)، برقم: (٢٥٨٤).

لم ننفق على من حوله لانفضوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل، فأنزل الله السورة.

وفي الترمذي[١] من رواية جابر، أن عمر قال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **"دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتلُ أصحابه"**، فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل، فما دخل عبد الله بن أُبيّ المدينة إلا بعد أن أذن له رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾، إذا ظرف لما يستقبل من الزمن[٢]، وهي تفيد الشرط وتحتاج إلى فعل الشرط وجوابه، أخبر الله رسوله ﷺ أن المنافقين إذا أتوا إليه، حلفوا له أنه رسول الله، وأتوا بأن واللام للتوكيد من أجل أن يُصدقهم، فأكذبهم الله، لأن ما قالوه بألسنتهم ليس صادراً عن قلوبهم، رغم أنهم أكدوا كلامهم بأنّ واللام، وقد كذّبهم الله بنفس الأسلوب، فمن أحق بالتصديق؟ لا شك أنه الله عزّ وجل!، فشهادة المنافقين له بالرسالة لا قيمة لها؛ لكذبهم؛ فالكذاب خبره وعدمه سواء؛ ولذا ذهب المحدثون إلى أن المتابعة والشاهد من طريق الكذاب لا تُقوي طريق الحديث؛ لأنه لا فائدة منها[٣].

(١) سنن الترمذي ت بشار (٥/ ٢٧٤)، برقم: (٣٣١٥)، وقال: حسن صحيح.

(٢) إعراب القرآن وبيانه: (١٠/ ٩٦).

(٣) ينظر: توضيح الأفكار، للصنعاني: (٢/ ٢٤٢).

ثم قال الله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾، استخدم المنافقون حلفهم بالله وقاية لهم من العذاب الدنيوي والفضيحة كي لا يكتشف حالُهم، والجُنة ما يُستجَنُ به أي ما يُغطى به، ومنه سُميت جَنة لكثرة البساتين وكثافة الشجر التي تُغطي ما بداخلها[1]، فصرفوا أنفسهم عن الإيمان بسبب شكهم ونفاقهم، وصدوا غيرهم عن الإيمان بما يبثون من شبهات وشكوك، أو بسبب أفعالهم القبيحة التي تمثل الإسلام المشوه، فيبتعد الناس عن الإسلام؛ لأن هؤلاء يمثلون نموذجًا سيئًا له، فساء العمل عملهم، وهذا وصف للمنافقين في كل زمانٍ ومكان، فعملُهم أسوأ عمل؛ لأنه عبارة عن خداع ومكر وكذب، وإظهار خلاف ما يُبطن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾، أي: نطقوا بالشهادتين بألسنتهم، ثم ارتدوا عن ذلك بالشك الذي وقع في قلوبهم، فخُتم على قلوبهم بسبب شكهم وكفرهم، فلم يعودوا يفهمون الحق، وحُرموا من الفهم الصحيح، وصاروا بلداء لا يُفرقون بين الحق والباطل.

ثم بدأ يذكر بعض أوصافهم التي يراها الناس منهم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، ويصلح لكل راءٍ، أي: إذا رأيت المنافقين أيها المؤمن في كل زمان ومكان، فسترى مناظرَ جميلة، وأشكالاً مُنعَّمَة؛ لاهتمامهم بأجسادهم وذواتهم، ونسيانهم الآخرة، فقلوبُهم مليئة بالشرك والنفاق والقسوة والغلظة، وأجسادهم تظهر عليها النعمة

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (٥/ ٢٠٩٤).

والراحة، من أكل الحرام، وإذا قال المنافقون أعجبك منطقهم، فهم أصحاب تملق، وربما يكون عند أحدهم فصاحة وبلاغة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، وهذا تشبيه بليغ، حيث شبّه المنافق بجسده الجميل الذي يعجب الناظر إليه بالخُشُب، وهي جمع خشبة، وهي الشجرة التي يُقطع اتصالها بجذورها التي تمدها بالحياة، فإذا قُطعت عن جذورها سميت خشبة، ووجه الشبه بين الخشبة وبين المنافق؛ أن الخشبة قُطع عنها ما يمدها من أسباب الحياة، فكذلك المنافق مقطوع عنه أسباب الحياة المعنوية من الإيمان والتقوى في قلبه، وهذه الخشبة مرمية على الجدار؛ لأنها بعد أن قُطعت لا تستطيع أن تقف بنفسها على جذورها، والمنافق لا يمكن أن يقوم بذاته، وإنما هو مُسند بغيره من اليهود والنصارى وغيرهم من أعداء الدين.

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، أي: جبناء، فمن شدة خوفهم قلوبُهم شديدة الفزع والخوف، ما إن يسمعوا بصوت إلا وظنوا أن هذا الصوت عليهم لإحساسهم بأنهم مجرمون، وقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾، قدم الضمير على الاسم للاختصاص، فخصهم بوصف العداوة لخطورتهم في المجتمع المسلم، وأمر رسوله أن ينتبه لأساليبهم الماكرة الخادعة، فلا تُصدقهم ولا يغرك مدحُهم وثناؤهم عليك، أو صلاتهم معك، بل كن على حذر من أي حركة يعملونها؛ لأنهم أخطر عليك من اليهود والنصارى، وهذا الوصف يصلح لكل منافق في كل زمانٍ ومكان إلى قيام الساعة.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾، دعا عليهم بأن يبعدهم الله ويهلكهم، كيف يُصرفون عن الحق والإيمان مع وضوحه وبيانه؟!.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾، هذه الآية نزلت في ابن أُبيّ ومن معه، حين رفضوا وأعرضوا عن طلب الاستغفار لهم من رسول الله، أي: عطفوها على سبيل الإعراض والتكبر، فجمعوا بين حركة الجسد وإعراض القلب، ولو نظرت إليهم يا محمد، وهم يُعرضون عنك، وهم مستكبرون عن قبول الحق والإذعان له والاعتراف بالذنب لرأيت عجباً!!.

ثم قال الله لرسوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾، حكم الله تعالى أن الاستغفار للمنافقين لا ينفعهم، أكثرت منه أو أقللت، كما قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة:٨٠]، والمعنى: يستوي طلبُك يا رسول الله! لهم بالمغفرة وعدم طلبك لهم بالمغفرة، فالنتيجة واحدة وهي عدم مغفرة الله لهم بسبب كفرهم، ثم علّل حرمانهم من الهداية بسبب فسقهم، ولا شك أن الفسق المقصود به هنا الفسق الأكبر المُخرج من الملة.

ثم قال الله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، سبق في سبب النزول ذكرٌ نقله زيد بن أرقم لرسول الله ﷺ من أمر أبن أُبيّ، وإنكار ابن أُبيّ له، ومعاتبة الناس لزيد، فجاء القرآن مصدقاً لزيدٍ ومكذباً لابن أُبيّ وحاكياً لكلامه بنصه، ومعناه: لو أن الأنصار لم يفتحوا للمهاجرين بيوتهم ويطعموهم وينفقوا عليهم؛ لما استقروا في المدينة، ولتركوها وذهبوا مكاناً آخر، وتفرقوا عن رسول الله ﷺ وتركوه! وهذه القاعدة الشيطانية

التي نطق بها المنافقون، هي التي تعمل وفقها اليوم دول الكفر والاستكبار العالمي، حيث يحاصرون بلدان المسلمين التي تنشط فيها الدعوة الإسلامية، لكي ينفض المسلمون عن الدعوة، وهذا من جهلهم، حيث يظنون أن الأرزاق بأيديهم، ولذلك عقب الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾، فالأرزاق خزائنها بيد الله، وليست بيد البشر، ولكن المنافقين والكفار لا يفهمون ذلك، فمهما منعتم التصدير إلى ذلك البلد، أو منعتم التبرعات عن ذلك المركز أو تلك الجمعية الإسلامية، أو قطعتم الراتب عن ذلك العالِم أو الداعية؛ ليترك دعوته وينفض الناس عنه وعن الدعوة، ويتركوا التدين، فهذا كله لن يتم، بإذن الله، بل يدل على قِلّةْ فهمكم لطبيعة هذا الدين، وسنن الله الجارية في نصرته، فما يُغلق باب عنه، إلا وفتح الله له أبوابًا أخرى، وها هي مدينة غزة -كما تعرفون- محاصرة منذ عشرين سنة، فهل ترك أهلها دينهم؟! الجواب: لا، بل ازدادوا تمسكًا به، وجاءتهم الأرزاق من حيث لا يعرف المحاصِرون لهم!!، وصنعوا الأسلحة وأعدوا العدة، وبادروا بقتال عدوهم، وإلى الآن ما زالوا مستمرين رغم القتل والتدمير والحصار، وقل مثل ذلك في (جماعة طالبان) في أفغانستان، وغيرها.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهذه عبارة أخرى تلفّظ بها ابن أُبيّ، كما سبق في أسباب النزول، وقال ذلك لأصحابه وهو خارج المدينة في غزوة المريسيع[1]،

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام: (٢/ ٢٨٩).

ويقصد بالأعز هو وأصحابه، ويقصد بالأذل المهاجرين، فرد الله قوله، وأخبر أن العزة له سبحانه، وهي صفة من صفاته، فهو العزيز الذي لا يُغلب، وأنه قد منح العزة لرسوله ﷺ وللمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله، لأنهم اعتزوا بالله وبالانتماء إلى دينه، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام، فإذا اعتزينا بغير الإسلام أذلنا الله"، ثم عقّب قولهم ذلك بقوله:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⁽٨⁾﴾، وانظر إلى هذا التعبير البلاغي، **ففي الأولى قال:** ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ **وفي هذه قال:** ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالقضية الأولى فيها غموض وتحتاج إلى فهم، والفَهم أعمق من العلم، فقضية أن مصدر الرزق من عند الله شيء غامض، فمصدره هو الله، وأنت سبب في تحصيله، والقضية الثانية ظاهرة وتحتاج إلى العلم بها فقط، فما هي قوتك إلى قوة الله! ومن أنت أيها المخلوق الصغير أمام خلق الله العظيم، حتى تصف نفسك بأنك الأعز؟! فهذا يدل على قلة العلم.

ثم ختم الله تعالى السورة بموعظة للمؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ⁽٩⁾﴾، كانت الأموال والأولاد سببًا في إلهاء المنافقين عن الإيمان والتقوى حتى وقعوا في النفاق، فاحذروا أن تقعوا فيما وقعوا فيه، وذكر الله المقصود به هنا الإيمان وسائر فرائض الله سبحانه، ومن ضمنها ذكر اللسان، فلا تلهكم الأموال والأولاد عن الإيمان والجهاد والصلاة والصوم والحج وسائر الفرائض، ولا تنشغل بالمال والولد عن التسبيح والتهليل والاستغفار في أي وقت، وذلك يعود إلى الإلهاء، **أي:** ومن يُلهه مالُه وولده عن طاعة الله وعبادته، فقد خسر الدنيا والآخرة، والألف واللام للاستغراق.

ثـم قـال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾، أمر الله تعالى المؤمنين أن يُنفقوا مما رزقهم الله، أي: من بعض ما أعطاهم الله من المال[1]، وهي الزكاة الواجبة، أو من جنس ما أعطاهم الله ولو كان قليلًا، فيشمل الصدقة العامة والتطوع، واستعجلوا بذلك قبل أن يأتيكم الأجل ويفجأكم الموت، فتتمنوا عند ذلك أن تُعطوا فرصة من العمر، بحيث يُؤخر قبض أرواحكم؛ لكي تتصدقوا وتكونوا من ضمن عباد الله الصالحين في باقي الفرائض، وخص الصدقة بالذكر مع أنها من مفردات العمل الصالح؛ لأن أجرها عظيم، ولأن النفس في حال الصحة تكون شحيحة، فإذا وصلت الروح إلى الحلقوم ورأى أن الدنيا ستذهب منه أراد أن يتصدق لله، وفي الحديث: أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: **"أن تصدّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان"**[2].

ثم عقّب الله على هذا القول بقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾، فلن يقبل طلبكم هذا ولن يستجيب لكم فيه؛ فالآجال مكتوبة، ولن تُؤخر ولن تُقدم، فاستعد لذلك من الآن، ونكّر لفظ النفس؛ ليعم كل الأنفس، فكل نفسٍ حية تموت في وقتها، حتى الحشرة لا تستطيع أن تقتلها في غير وقت موتها المقدر لها، فلن يُؤخر الله أجل نفس، ولن يُقدم الله

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٥٣).

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ١١٠)، برقم: (١٤١٩)، وصحيح مسلم: (٢/ ٧١٦)، برقم: (١٠٣٢).

أجل نفس، بل كل نفس تموت في موعدها، وقدم لفظ خبير؛ لأن ما قبلها فيه شيء من الخفاء، وهو من الأعمال القلبية، فقد تكون صادقًا في هذا الدعاء، وقد لا تكون كذلك، فلسانك قد ينطق بشيء، وفي قلبك شيء آخر، والله أعلم بالخفايا، فالله خبيرٌ بما تعملون من خير أو شر، والصيغة صيغة خبر إلا أنها تُفيد التهديد والوعيد!، وفي الآية تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات خشية أن يجيء الأجل، قبل أن تعمل.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن تخصيص سورة في القرآن باسم (المنافقون)، دليل على خطورة النفاق في كل زمان ومكان.

٢- أن العبرة بصلاح الباطن وأن الظاهر تبع له.

٣- أن التكبر والإعراض عن الاستغفار سبب من أسباب النفاق.

٤- أن من وسائل أعداء الإسلام في كل زمان ومكان الحصار الاقتصادي على المسلمين ظنًا منهم أن الخزائن بأيديهم.

٥- أن مصدر العزة هو الله وأنه يمنحها لمن آمن به، ومن طلب العزة من غير الله أذلّه الله.

٦- خطورة الانشغال بالأموال والأولاد وسائر الملهيات عن طاعة الله تعالى.

٧- الحث والتحريض على المبادرة بأعمال الطاعات خشية أن يجيء الأجل، قبل أن تعمل.

تفسير سورة التغابن

تفسير المقطع الأول من سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا
أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى
وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾.

شخصية السورة:

سورة التغابن؛ سورة مدنية في قول الأكثر(١)، **والمقصد العام لهذه السورة** بيان غبن الكافرين وخسارتهم يوم القيامة، والتحذير من فعلهم.

وقد ابتدأت بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾، والفعل المضارع يفيد الاستمرار، **أي:** نزه الله الخلق أجمعون، **كما قال:** ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]، فالسموات والأرض والجبال والشجر والحجر والطير والحشرات وسائر المخلوقات تُسبح الله تعالى كلٌّ بحسبه، وتسبيح المخلوقات غير المكلفة فطرة خُلقت عليها، أما تسبيح الجن والإنس فيقع باختيارهم؛ فيُؤجرون عليه أو يُؤزرون على تركه، وأخبر أنه اختص بالملك، وهو كمال التصرف، بخلاف المُلك الذي يقع للبشر في هذه الدنيا فهو مُلك ناقص، أُضيف إليهم لا على سبيل الاستقلال، بل وهبه الله لهم، وسرعان ما يتبدد ويذهب، والله له الملك المطلق الأزلي الباقي الذي لا يتجزأ ولا يذهب، وله الحمد المطلق الذي تحمده الخلائق كلها، وقدرتُه نافذة على كل شيءٍ في هذا الكون، فلا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، والتعقيب بهذا يُشعر بأن التسبيح من المخلوقات ليس لحاجة الخالق إليه، فإنه تعالى غنيٌّ محمودٌ بذاته، قويٌّ قديرٌ لا يُعجزُه شيء.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٨٠).

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾، **الآية الأولى** توطئة وتمهيد لما بعدها، **والمعنى**: أن الله العظيم القادر سبحانه، هو الذي خلقكم أيها الناس، والفاء للتفريع، وهي التي تأتي بعد الذكر الإجمالي وبداية الذكر التفصيلي لأصناف الخلق، حيث خلق الله الناس في عالم الذر وألقى عليهم نوره، فمن أصاب نوره هُدي، ومن لم يُصبه من نوره لم يهتدِ، فهم في علم الله تعالى الأزلي **صنفان**: مؤمن وكافر، وعلم الله الأزلي لم يُطلع عليه الخلق، فلا يصح أن يحتجوا به فيقولوا: قد خلقتنا في علمك كفارًا فلِمَ تُعذبنا؛ لأنه لا أحد يعلم بحاله ومآله.

وقد جاء في الصحيحين[1]، من حديث عبد الله بن مسعود، قال: حدثنا الصادق المصدوق: **"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح"**، فخلق الله الكفر وجعله كسبًا للعبد باختياره، يكفر باختياره، وخلق الله الإيمان وجعله كسبًا للعبد يُؤمن باختياره، وأرسل الرسل وأنزل الكتب، وخلق السمع والأبصار والأفئدة من أجل أن تدل العبد على طريق الإيمان، وخلق إبليس والنفس الأمارة بالسوء وسائر المغريات من أجل أن تشده إلى الكفر

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١١١)، برقم: (٣٢٠٨)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢٠٣٦)، برقم: (٢٦٤٣).

والمعصية، وأصبح الخلق بهذا في دائرة الابتلاء، فمن امتُحن ونجح في الامتحان دخل الجنة، ومن فشل ورسب دخل النار، وقدم الكافر على المؤمن؛ لكثرة الكفار[١]، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[سبأ: ١٣]، وفي الحديث: "**يا آدم، ابعث بعث النار، قال: وما بعث النار يا رب؟ قال: من كل ألفٍ تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة**"[٢]، فصنف الكفار في كل زمان ومكان أكثر من المؤمنين، وكما تُشاهدون في واقع البشرية اليوم فأهل الأرض ثمانية مليار نسمة، اثنان مليار منهم مسلمون، وستة مليار غير مسلمين، وذيّل الآية بما تدل على سِعة علم الله واطلاعه وبما يشعر بالتهديد والوعيد، فالله بما تعملون بصير وسيُجازيكم بأعمالكم.

ثم قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، ثم ترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإنه بدأ بخلق الإنسان وهو أدنى في مقابل عظمة خلق السموات والأرض، بعظمتها وحجمها وسعتها، خلقها بالعدل والحكمة البالغة[٣]، وعلى وجه الحقيقة الناصعة التي لا باطل فيها ولا خلل، كما قال: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك:٣]، أو تكون الباء هنا بمعنى اللام[٤]، أي: خلق السموات والأرض؛ لأجل إحقاق الحق وإقامته، وأعظم حقٍ هو توحيد الله وعبادته.

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٤٦).

(٢) صحيح البخاري: (٤/ ١٣٨)، برقم: (٣٣٤٨)، وصحيح مسلم:(١/ ٢٠١)، برقم: (٢٢٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٣٥).

(٤) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٥٥٢).

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾، الخلق هو التشكيل، والتصوير هو تركيب الصورة على الهيكل والشكل، فبعد أن أوجدكم منحكم الصور الجميلة، فلا أحسن خلقًا في هذا الكون من الإنسان، وقد وقع أحد الولاة في مأزق حين رأى زوجته التي يُحبها ويعشقها فداعبها بقوله: أنتِ طالقٌ إن لم تكوني أجمل من القمر، ثم ندم، فجمع العلماء في عهده وطلب منهم الفتوى، فقالوا: ما نراها إلا قد طلُقت منك، لأنك طلقتها على شرط لم يتحقق، وكان في الحاضرين رجل واحد، وكان ساكتًا: فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول أن زوجتك لم تطلُق، قال: ولِمَ؟ قال: فقرأ عليه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين: ٤]، ثم قال له: فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه[(١)].

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾، وهذا التعقيب في هذه الآية له مغزى ودلالة، فلما ذكر الله خلْق السموات والأرض وخلْق الإنسان في أحسن صورة؛ أخبر أن نهاية هذا الكون الجميل إلى زوال بمن فيهم هذا الإنسان الجميل، فالخلق أو الجمال في حد ذاته ليس هدفًا وغايةً للخلق، وإنما ما وراءه، وهو عبادة الخالق، فأنت إذا عُدت إلى الله تعالى ستعود بحسنات أو سيئات، وهناك يكون جمال المكان في الدار الآخرة أو العكس، وإذا قلنا خلق السموات والأرض لأجل إقامة الحق، فإن إقامة الحق في الغالب لا يتحقق كاملًا في الدنيا، بل يوجد مظلومون ويوجد ظَلَمة، ولكن إذا عاد الناس إلى الله وصاروا إليه، فهناك يكون

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ١١٤).

تحقق العدل، وفي الآية وعظ وإرشاد، فالجميع راحلٌ إلى الله وراجع إليه، فلنستعد لملاقاته بالعمل الصالح!!.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾، هذا إخبارٌ عن علم الله المطلق، الذي يشمل الكليات والجزئيات، ويعلم علم إحاطة بغيب السموات والأرض، ويعلم الأشياء التي تُسرونها في نفوسكم والأشياء التي تعلنون بها، ويعلم أقوال الإنسان الظاهرة وأعماله المخفية، وهو عليمٌ بخواطر النفس ووساوسها، وسُميت بذات الصدور؛ لأنها لا تتجاوزها، فإن خرجتْ لم تعد من ذوات الصدور، وليس المقصد أن الله تعالى يُعذب على كل ما جال داخل الصدر، فإن الله قد خفف عن أمة محمد ﷺ هذا الحكم، كما قال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٨٤]، فلما نزلت هذه الآية؛ جاء الصحابة إلى النبي ﷺ فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله حُمّلنا من الأعمال ما نُطيق، أما هذه فلا نُطيقُها، فغضب النبي ﷺ من هذا القول، وقال: "**أتريدون أن تقولوا كما قال من قبلكم: سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، قولوا: سمعنا وأطعنا**" فلما قالوا: سمعنا وأطعنا وذلّت بها أنفسُهم وقبلتها قلوبُهم، أنزل الله التخفيف: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦][(١)]، فرفع المؤاخذة عما يدور في النفوس ما لم تعمل أو تتكلم.

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١١٥)، برقم: (١٢٥).

وقولــه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾، الخطاب لكفار قريش الذين نزل فيهم القرآن، هل بلغكم خبر الأمم المكذبة قبلكم من قوم عاد وثمود وقوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، أصابتهم شدة العقوبة والعذاب بسبب تكذيبهم وكفرهم، وأصل الوبال الثقل والشدة(١)، كما قال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل:١٦]، أي: شديداً، والمقصود به هنا العذاب الدنيوي، وأن العذاب الأليم لهم سيكون في الآخرة.

وقولــه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾، أي: ما حصل لهم من العذاب الدنيوي والعذاب الأليم كان بسبب كفرهم بأنبيائهم، بشبهة أن الأنبياء بشر، وإذا كان ولا بد من رسل فلتكن من الملائكة، وهذه شبهة باطلة تكررت في عدة أقوام من الكفار، وقد رد الله عليهم بأن حكمة الله تقتضي أن يكون الأنبياء والرسل من البشر، وأنه لو أرسل الله ملكًا رسولًا لما رأيتموه، مما يجعله يظهر لكم في صورة بشر، فإذا ظهر لكم بصورة بشر لبّس عليكم، كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:٩]، والبيّنات هي الحجج والبراهين والمعجزات التي جاءهم بها الرسل، فكفروا بهم وتولوا عن الإيمان بالله تعالى والطاعة له.

وقوله: ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾، السين والتاء للمبالغة، أي: أظهر

---

(١) فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٨١).

الله غناه عنهم[١]، فالله غنيٌ عن الخلق آمنوا أو كفروا، وجمع بين لفظ غني وحميد، وهما اسمان لله تعالى، والحكمة من ذلك أن المتبادَر إلى الذهن أن من وُصف بالغنى من الخلق، فإنه يحصل منه البَطَر والأشَر، ولا يُمدح مدحًا مطلقًا؛ لأن الغنى يُسبب له نوعًا من السلوكيات غير الجيدة، **كما قال الله:** ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[العلق:٦-٧]، بخلاف الخالق تعالى، فإن غناه مرتبطٌ بحمده، فهو محمود على كل الأوصاف، وفي كل الأحوال.

ثم قال الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، الزعم: ادّعاء العلم، وأكثر ما يُستعمل للادعاء الباطل[٢]، والقول الكاذب الذي لا دليل عليه، مثل هذا القول، **ولذلك جاء الجواب:** قل لهم يا محمد! والله لتبعثن، وأتى بلام التوكيد الواقعة في جواب القسم، **أي:** ليتمنَّ بعثُكم يوم القيامة، ثم تُخبرون بما عملتم من خير أو شر، وليس المقصود بالإخبار هنا مجرد الإخبار المُطلق، بل هو إخبار مصاحب للجزاء، فعلت خيرًا، فهذا جزاؤه، وفعلت شرًا، فهذا عقابُه.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾، وذلك البعث يسيرٌ على الله، **كما قال:** ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان:٢٨]، يقول للشيء كن فيكون.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: (٨/ ٢٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الألوسي: (١٤/ ٣١٧).

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾، هذه الفاء هي الفصيحة، وهي التي تأتي بعد فعل شرط محذوف، وتقديره: إن كان الأمر كذلك فآمنوا[1]، أي: صدقوا بالله وبرسوله، وصدقوا بالنور الذي أنزلنا، وهو القرآن[2]، سمّاه الله نورًا؛ لأنه يُبدّد ظلمات الجهل والشرك، وبه ينشأ نور الإيمان في نفس الإنسان، وبه يحصل نور العلم والمعرفة، وأتى بنون التعظيم لنفسه تعالى، إشعاراً بتعظيم ما أنزله وهو القرآن، وهو كلامُه جل وعلا.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾، إخبار عن علم الله بالجزئيات والكليات، وتُفيد التهديد والوعيد، فاحذروا أن تُخالفوا أمره، فإن الله خبيرٌ بحالكم.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾، يوم: ظرف نُصب بعاملٍ محذوف، أو منصوب بالفعل الذي قبله، (يجمعكم) أو (نجمعُكم)، قراءتان[3]، واللام للتوقيت، أي: لوقت يوم الجمع، وهو من أسماء يوم القيامة، أو وَصْفٌ له؛ لأن فيه يجمع الله الأولين والآخرين، والظالم والمظلوم، إلى ساحة المحشر، ثم وصف ذلك اليوم بيوم التغابن، وأصل الغَبنُ الخديعة والنقص وضعف الرأي[4].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٢).

(٢) تفسير: (٨/ ١٣٧).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٨٣).

(٤) ينظر: مختار الصحاح: (ص: ٤٨٨).

والمقصود به هنا الشعور بالندم والحسرة؛ لفوات شيء كان بالإمكان فعله، وما زال هذا اللفظ يُستخدم اليوم في التجارة، **فيُقال**: فلان غُبن في تجارته، **أي**: خدع فيها، وصورة الغبن يوم القيامة ظاهرة بين أهل الجنة وأهل النار، وظاهرة أيضًا بين أهل الجنة أنفسهم، **ففي الحديث**: **"ما من أحدٍ منكم إلا وله منزلان، منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإن كان من أهل الجنة، فيُقال له: هذا منزلك من النار لو كفرت، قد أبدلك الله منزلاً في الجنة فيزداد فرحًا، ويُقال لصاحب النار: هذا منزلُك في الجنة لو آمنت، قد أبدلك الله منزلًا في النار، فيزداد ألمـًا"**(١)، فيحصل الغبن بين أهل الجنة وأهل النار؛ لأن أهل الجنة يرثون منازل أهل النار في الجنة، ولا شك أن أصحاب النار هم المغبونون؛ لأنهم خسروا منازلهم في الجنة، فهذا الغبن الشديد الذي يحصل لأهل النار من أهل الجنة، وأما الغَبن الذي يحصل بين أهل الجنة أنفسهم، فهذا يكون في المحشر حينما توزّع الصحف ويجد الإنسان أعماله، فيشعر بالغبن؛ لأنه فرط وقصر، وكان بإمكانه أن يكون في منزلة ودرجة أعلى لو اجتهد في الدنيا، لذلك يُسمى يوم القيامة بيوم التغابن.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾، وفي هذا تنبيه لتجاوز الغبن يوم القيامة، والمعنى: من أراد أن يخرج من الغبن، فعليه أن يؤمن بالله

(١) مسند أحمد: (١٧/ ٣٢)، برقم: (١١٠٠٠)، وإسناده حسن.

ويعمل صالحًا في الدنيا، وسيجد أن الله سيُكفر عنه سيئاته ويُدخله الجنات التي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ودخوله الجنة وخلوده فيها؛ ذلك كله هو الفوز العظيم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن تسبيح المخلوقات لله؛ ليس لحاجة الله إليها، فهو الغني عنها.

٢- أن الله قسّم الناس إلى صنفين: أشقياء وسعداء في عالم الذر، ثم تركهم ليختاروا الإيمان أو الكفر بمحض إرادتهم، ثم يُحاسبهم على ذلك.

٣- أن صورة الإنسان هي أحسن صورة، وخلْقُه أحسن خلْق.

٤- أن من الوسائل المعينة على الإيمان والعمل الصالح؛ تذكر الخسارة والغَبن في الآخرة.

تفسير المقطع الثاني من سورة التغابن

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ
وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ
عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ
وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾، الواو حرف عطف، حيث تم عطف قصة أصحاب النار المكذبين الكافرين بالله ورسله على قصة من آمن بالله وكان من أهل الجنة، والكفر هو الجحود، والتكذيب هو عدم التصديق، فقد جحدوا بالله تعالى إلهًا وربًا ولم يُصدقوا بآياته، وهي المعجزات التي جاء بها الرسل سواءً

كانت حسية أو معنوية، فمصيرُهم إلى النار، يبقون فيها ملازمين لها لا يُفارقونها، ووصفهم بأصحاب النار لخلودهم فيها، وقبُح المصير مصيرُ أهل النار.

ثم قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تقع مصيبة في الكون إلا كان ذلك بعلمه تعالى، والأصل في المصيبة أنها إصابة الشيء، وقد يكون في الخير أو في الشر، ولكن الغالب أنها تكون في الشر، كما قال: ﴿مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾[المائدة:١٠٦]، وفي الخير تقيّد، كما قال: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ﴾ [التوبة:٥٠].

وقوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، ومن يُسلِّم ويرضى بقضاء الله وقدره، فلا يسخط على ما أصابه من شر، يجعلُ قلبه مطمئنًا، فالهداية هنا بمعنى يوفقه للاستسلام والرضى، أو يحصل له الهدوء والاطمئنان، فلا يُصاب بالقلق والاضطراب والسخط عند المصيبة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١١﴾، هذا تذييلٌ للآية ليربط أولها بآخرها، فأولُها إخبار بأن كل ما يحدث في الكون بإذن الله، فأثبت القدر، وآخرها إخبار بإحاطة علمه بكل شيء.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أمر الله بطاعته المطلقة وطاعة رسوله المطلقة في الأمر والنهي، وكرر فعل الأمر ليدل على أنه لا تعارض بين أن يأمرنا الله أو يأمرنا الرسول حتى نعرض هذا على هذا، لأننا نسمع بعض الناس اليوم يقول: نكتفي بالقرآن، ونعرض عليه السُّنّة، فإن وافقته وإلا رددناها، والجواب: لا داعِ لذلك؛ لأن الله أمرنا أن نطيعه استقلالًا وأمرنا أن نُطيع رسوله

استقلالًا، فكلاهما لازم الطاعة، والنبي ﷺ لن يأمرنا بأمر أو ينهانا عن شيء إلا إذا أمره الله، **كما قال الله عنه:** ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٣-٤]، **وكما قال:** ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦﴾[الحاقة:٤٤-٤٦]، وعلينا نحن أن نتأكد فقط من صحة الحديث، فإن صح، ولو كان زائدًا في الحكم على القرآن لزم قبوله؛ فإن السُنّة جاءت مؤكدة لما شرعه الله في القرآن، ومُبينة وموضحة لما جاء مجملًا في القرآن، **مثل قوله:** ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، فجاءت السنة تبيّن لنا أن الظهر أربع والعصر أربع والمغرب ثلاث والفجر ركعتان، وهكذا باقي الأركان، وقد تأتي السنة بأحكام زائدة على القرآن، والقرآن يتنزل على رسوله ﷺ فلا يُنكر ذلك، فكان السكوت إقرارًا، **كما في قوله** ﷺ: **"لا تُنكح المرأة مع عمتها ولا مع خالتها"**[(١)]، ونحو ذلك من الأحكام المشروعة بالسنة.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٢﴾، فإن أعرضتم عن طاعتهما، فمهمة الرسول ﷺ، هي البلاغ المبين الواضح، وليس من مهمته إدخال الإيمان إلى قلوبكم، فهذا ليس بيده، **كما قال:** ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢٢]، **وقال:** ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[ق:٤٥].

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾، بيّن تعالى أنه هو المعبود الحق الذي لا يُعبد بحقٍ سواه، وإن عُبدت آلهة غيره

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ١٢)، برقم: (٥١٠٩)، وصحيح مسلم: (٢/ ١٠٢٨)، برقم: (١٤٠٨).

فبباطل، وعلى الله لا على غيره يكون التوكل الحق، وجعله من شروط الإيمان، فمن لم يتوكل على الله حق توكله؛ ففي إيمانه خلل.

ثـم قـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، جاء في سبب نزولها أن بعض المؤمنين في مكة أرادوا الهجرة إلى المدينة؛ ليلحقوا برسول الله ﷺ، فحال بينهم وبين الهجرة أزواجهم وأولادهم، فتركوا الهجرة، فلما أتوا رسول الله ﷺ بعد ذلك، ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية[1]، **وبيّن لهم فيها** أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًا للزوج أو للأب؛ فيمنعه عن الخير، وليس المقصود بالعداوة أنهم كفار، بل المقصود بالعداوة هنا مجرد كراهية الخير لأن العداوة تتجزأ، فهناك عداوة كلية، وهناك عداوة جزئية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمعنى الآية عام، فأي زوجة أو ولد يمنع أباه أو أمه عن الخير ففيه شيء من العداوة لهما، والأصل أن يكون الابن والبنت والزوجة والزوج كلٌّ منهم مُعين للآخر على طاعة الله تعالى، فإذا وجد شيء من ذلك، فاحذر أيها المسلم أن تستسلم لهم، وتمنع الخير عن نفسك، وفيها تنبيه للحذر من مداخل الشيطان التي يأتي عن طريق شخص له مكانة في قلبك فيجعلك تستسلم لما يريد بواسطته.

وقوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾، فأرشدهم إلى ترك المعاقبة، وإصلاح الشأن معهم؛ لأن المعاقبة ربما تأتي بمفاسد أخرى، **والعفو**: ترك العقوبة، **والصفح**: عدم اللوم، وهو المسامحة القلبية، **والمغفرة**:

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٣٩).

تغطية الذنب، **فطلب منهم هذه الثلاثة الأمور**: لا تُعاقِبوا ولا تُؤنبوا ولا تتركوا الذنب ظاهراً بل استروه، وهي أمور متلازمة لحل المشكلة من أساسها، وعدم ترك أي أثر لها مستقبلاً، من أجل أن تصلح البيوت من الداخل، والفاء واقعة في جواب الشرط المحذوف وتقديره، فسيغفر الله لكم؛ لأنه غفور رحيم.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾، وعلاقة هذه الآية بالتي قبلها واضحة، ففي الآية الأولى ذكر الأزواج والأولاد، لأن المرأة هي ربة البيت والمسؤولة فيه، والمرأة إن كانت صالحة؛ فإنها تُحبب زوجها إلى أولادها، وإن كانت سيئة؛ فإنها تُبغض زوجها إلى أولادها، والأولاد يكونون غالبًا تبعًا للأم خاصة في مرحلة التربية الأولى، لأنها أكثر التصاقًا بهم، وفي هذه الآية ذكر الأموال والأولاد وأخرج منها الأزواج، لأن الموضوع يتعلق بالرجل فإنه يُفتن بالمال والبنين، والأصل في الفتنة هي اضطراب النفس، فالمال والولد من أسباب اضطراب النفس، فلا يصبر عنهما، **وفي الحديث**: "أن النبي ﷺ كان ذات يومٍ يخطب على المنبر، فجاء الحسن والحسين وهما طفلان صغيران يمشيان في المسجد ويتعثران، فلما نظر إليهم النبي ﷺ رقّ لهما ورحمهما، فنزل من المنبر ثم أخذهما ورفعهما **ثم تلا هذه الآية**: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾، **ثم قال**: **"رأيت هذين يمشيان ويعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما"**[(١)]، ثم عاد إلى خطبته، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ

---

(١) مسند أحمد: (٣٨/ ٩٩)،برقم: (٢٢٩٩٥)، وسنن الترمذي: (٦/ ١٢٢)، برقم: (٣٧٧٤)، وصحيح ابن خزيمة (٢/ ٣٥٥)، برقم: (١٤٥٦)، وإسناده صحيح.

وهو يخطب ما استطاع أن يكمل الخطبة لما رأى وضع الطفلين بين يديه، فما بالك بغيره، والمقصود بالفتنة هنا الابتلاء، أي: أن الله تعالى ابتلى الناس بالمال والبنين، كما قال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦]، لينظر من يستعملهما في طاعة الله، ومن يكونا سببًا له في معصية الله تعالى، فقد يحمل الإنسانَ أولادُه على أن يكسب الحرام، أو يترك طاعة الله تعالى والإيمان به بسببهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، أي: لمن تجاوز هذه الفتنة، ونجح في هذا الاختبار، ولم يُفتَن بماله وولده عن طاعة الله، وفرق بين ما عند الله من أجر عظيم، وبين ما سيحصل عليه العبد من فائدة ومكسب من وراء فتنة المال والولد، فالعاقل بلا شك هو الذي سيُقدم ما عند الله على غيره.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، الفاء هي الفصيحة، فإذا علمتم أن الأموال والأولاد فتنة؛ فتجاوزوا هذه الفتنة وانتصروا عليها بتقوى الله، وهي: فعل أوامره واجتناب نواهيه، **وهل هذه الآية لها علاقة بآية:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[آل عمران:١٠٢]، وهل بينهما ناسخ ومنسوخ؟ أم بينهما مُجمل ومُبين؟ **للمفسرين فيها أقوال**[1]، ولكن الراجح أنه لا نسخ، فإن هذه الآية مفسرة لمعنى حق التقوى، **وهو**: أن يتقي الله العبد بقدر استطاعته، فيبذل جهده كله في تحقيق التقوى، فإن فعل؛ فقد اتقى الله حق تقاته، فلا نقول بالنسخ مع إمكان الجمع، على أن بعض السلف كان يُسمي التخصيص نسخًا قبل أن يستقر مصطلح النسخ، والله أرحم بعباده من أنفسهم، فقد أعطاهم هنا مخرجًا أن يتقوه

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٤).

بقدر استطاعتهم، والله تعالى يعلم ما هي استطاعة العبد، فلا يضحك على نفسه ويقول: قد بذلت كل استطاعتي وهو غير صادق في ذلك.

وقوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾، اسمعوا لما يأمركم به الله ورسوله، وهذا يدل على أن أغلب أدلة الشرع سمعية، والله تعالى تعبّدنا بالسمع، ولم يتعبدنا بالعقل وحده، والسمع هو الوحي وأمرنا أن نمتثل ونعمل بما سمعنا، وأمرنا بالنفقة وأطلقها ووصفها بأنها خير ولو كانت قليلة، فالله سيُبارك فيها، ويدخل في ذلك الصدقة والزكاة ونحوها، وأتى بلام الاختصاص، للحث على النفقة؛ لأن أجرها سيكون لك لا لغيرك.

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾، في ذلك إشارة إلى أن عدم النفقة سببُها وجود الشح في النفس، وهو وصفٌ من أوصاف النفس، كما قال: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[النساء:١٢٨]، والشح هو: شدة البُخل، فمن استطاع أن يقي نفسه منه فقد أفلح وفاز في الدنيا والآخرة، لأن البخل داءٌ خطير، وفي الحديث: "وهل داءٌ أدوأ من البُخل؟!" أي: لا داء أعظم من البخل.

ثم قال سبحانه: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، وهذا فيه حث على النفقة بأسلوب آخر تشجيعًا للمنفق، حيث سمى الإنفاق قرضًا، فالمال الذي تُنفقه لله للفقراء وللمساكين هو في الحقيقة قرض وسُلفة لله، كأنك تقرضه في الدنيا، وهو يُسددك في الآخرة، وسماه القرض الحسن، وهو الذي فيه وصفان، الأول: لا يوجد من ورائه مقابل مادي ولا معنوي، والثاني: لا أذية فيه ولا منَّة، فمن يُنفق نفقة لوجه الله لا يُريد منها جزاءً ولا شكورًا، ولا يُريد زيادة

عليها، فهذا يُعطيه الله تعالى في الآخرة ضعفها، والمضاعفة زيادة العدد ضعفه، وقد يصل إلى سبعمائة ضعف، **فهذه الجائزة الأولى**.

والثانية: حصول المغفرة من الله تعالى للذنوب التي وقعتم فيها، **ثم عقّب وذيّل الآية بقوله**: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾، **شكور**: صيغة مبالغة من الشكر، وهو الثناء على من أسدى إليك نعمة، **والحمدُ**: الثناء بلا مقابل، ولذلك الحمد لا يُصرف إلا لله، بينما الشكر يُعطى للمخلوقين، **كما في الحديث**: **"من لا يشكر الناس لا يشكر الله"**[1]، **والمعنى**: إن فعلت وأقرضت الله وأعطيت الفقراء والمحتاجين، فالله يشكر عطاءك، ويثني عليك الثناء الجميل، وإن لم تفعل فالله حليم، فلن يُعاجلك بالعقوبة، بل يحلم عليك، ويُعطيك فرصة أخرى.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾، عالم الغيب والشهادة، أحاط علمه بالمخفيات والمعلنات، فمهما فعلت من خير أو شر، سرًا أو جهرًا، فالله مُطّلع على فعلك، وهو العزيز الحكيم، فمن اتصف بالعزة والحكمة، فليُركَن إلى وعده تعالى وكرمه وفضله.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين، وإدخال الإيمان إلى القلوب بيد الله يهدي من يشاء.

٢- أن الإيمان بأقدار الله سببٌ للطمأنينة وهدوء النفس وذهاب السخط منها.

---

(١) مسند أحمد: (١٣/ ٣٢٢)،برقم: (٧٩٣٩)، وإسناده صحيح.

٣-أن التكاليف الشرعية التي كلّف الله بها الخلق مقدورٌ عليها، وأن على الإنسان أن يفعل ما يستطيع فعله، فإذا صعُب عليه ولم يستطع سقط عنه الإثم.

٤-أن الله يضاعف الثواب لمن يُنفقُ نفقةً حسنة ليس فيها منَّ ولا أذى ويغفر له ذنبه، ويشكر له فعله، ويحلم عنه لو قصّر ويُعطيه فرصة لكي يُراجع نفسه لفعل الخيرات.

تفسير سورة الطلاق

تفسير المقطع الأول من سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ
رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ
وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ
عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ
نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الطلاق؛ سورةٌ مدنية[١]، **ومن أعظم المقاصد التي تحدثت عنها السورة**؛

---

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٤٢).

بيان أحكام الطلاق والعِدد، وبيان ثمرة تقوى الله تعالى والتزام حدوده.

ابتدأتْ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، **الخطاب للنبي** ﷺ، ثم جاء الضمير بعد ذلك للجمع، فدل على أنه ليس خاصاً بالنبي ﷺ، بل هو خطاب لأمته، وإنما خُوطبت الأمة بشخص النبي ﷺ؛ لأنه السيد المقدم[١]، والمبلغ عن الله، وهو المسؤول عن تنفيذ أحكام الله، فهو الوالي والقائد والأمير، وبعضُ الأحكام الشرعية تحتاج إلى حاكمٍ يُلزم الناس بها، و(**إذا**): أداة شرط تُفيد الاستقبال.

والمعنى: إذا أردتم طلاق الزوجات[٢]؛ لأن بينهن وبين أزوجهن عقدٌ وميثاقٌ غليظ، فصار ذلك العقد بمثابة العُقدة التي تحتاج إلى أن تحل، وحلها هو الطلاق، **وهو عقد معنوي وليس حسيًا**، وهو قول ولي أمر المرأة للزوج: زوجتُك، **وقول الزوج**: قبلتُ، **ويُفك هذا العقد بأمور متعددة، منها**: الطلاق، **ومنها**: الفسخ، **ومنها**: الخُلع، **ومنها**: أن يموت أحدهما.

وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، اللام هنا لام التوقيت[٣]، **أي**: أوقعوا الطلاق في الوقت الذي تبتدئ فيه العدة، **مثل قوله**: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، ومن طرائق التفسير الصحيحة أن يُفسّر القرآن بالقرآن، فإذا جاء تفسير اللفظ القرآني في مكانٍ آخر فلا تبحث عن غيره، **مثل قوله تعالى**: ﴿صِرَٰطَ

(١) التفسير البسيط: (٢١/ ٤٩٤).

(٢) ينظر تفسير البغوي: (٥/ ١٠٦).

(٣) التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٩٥).

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة:٧]، **جاء تفسيرها في قوله:** ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[النساء:٦٩]، فهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم، وهنا جاء تفسير الآية في السنة النبوية، **ففي الحديث:** "أن النبي ﷺ بلّغه أن ابن عُمر طلّق زوجته وهي حائض، فأمره النبي ﷺ أن يُراجعَها ويُمسكها، وقال له: **"مُره فليُمسكها وليُراجعها حتى إذا طهُرت فإن شاء أمسكها وإن شاء طلّقها مستقبلةً لعدتها فتلك العدة التي أمر الله أن تُطلّق لها النساء"**[1]، وهذا بيان لكيفية الطلاق، **ولذلك يُقسم العلماء الطلاق إلى قسمين: سني، وبدعي.**

فالطلاق السني له شرائط، منها: أن يُطلّقها في طُهرٍ لم يمسها فيه، أو أن يُطلّقها في طُهرٍ مسَّها فيه لكن بعد أن استبان حملُها، وأن يُطلِّقها طلقةً واحدة، فالطلاق في هذه الثلاث الحالات سني، فإن انخرام شرط من هذه الثلاثة فهو طلاق بدعي، **والراجح عند جمهور العلماء** أن الطلاق البدعي يقع مع الإثم، **وقال بعض المحققين** بعدم وقوعه[2].

وقول الله تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾، الخطاب للرجال والنساء، فهي للأزواج والزوجات والأولياء، وأيضًا أدخل بعضُهم الحُكام وأهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يعبث الناس بالأحكام الشرعية، **أي:** دقّقوا في الحساب، لأن الإحصاء أبلغ من مجرد الحساب، فالإحصاء معرفة

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ٤١)، برقم: (٥٢٥١)، وصحيح مسلم: (٢/ ١٠٩٣)، برقم: (١٤٧١).

(٢) ينظر: سبل السلام: (٢/ ٢٤٩).

الشيء على وجه الدقة، كما قال: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦]، الألف واللام للعهد، لأن العدة كانت معروفة عندهم، **وأمر الجميع بالتقوى، وهي:** مراقبته في السر والعلن، وفعل ما أمر الله تعالى، وترك ما نهى عنه.

وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾، منع الله تعالى أن يُخرِجَ الزوجُ زوجتَه المطلّقة بعد الطلاق من بيته، ولا هي تخرج من نفسها، ونسب البيت إلى الزوجة؛ لأنها ربة البيت، وهي المسؤولة عنه، وفي هذا دليل على أنها ما زالت تستحق السكن في هذا البيت(١)، ولو كانت مطلقة، وهذا مذهب الجمهور(٢)، ويجوز أن يُخرجها الزوج إذا وقعت في فاحشة.

واختلف المفسرون في معنى الفاحشة على أقوال: فقيل: الزنا، **وقيل:** المعصية مطلقًا، **وقيل:** سوء أخلاقها وبذاءة لسانها، **وقيل:** نشوزُها عن زوجها، **ورجّح ابن جرير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣) أنها كلها تدخل في معنى الفاحشة، وأعظمها الزنا، فإن الهدف من جلوسها في بيتها أن تعود العلاقة بينها وبين زوجها، ويرقّ لحالها ويراجعها، وإذا كانت سيئة اللسان؛ فجلوسها سيُؤدي إلى مزيد من الفتنة بينهما، وهذا الحكم الشرعي يكاد أن يكون معدومًا اليوم في كثير من البلدان بسبب العُرف، فالمرأة بمجرد أن تسمع أن زوجها طلقها؛ تأخذ ملابسها

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٨/ ٢٩٩).
(٢) ينظر: سبل السلام: (٢/ ٢٩٠).
(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٤٤٠).

وتخرج، أو تتصل بأهلها ليأخذوها في الحال، وترى أن جلوسها في بيت زوجها بعد طلاقها عيب، وكذلك أهلها يعدونه عيبًا، والمطلوب شرعًا عدم خروجها، فالخطاب للأزواج وللأولياء بعدم إخراجها، فهي ما زالت زوجة له، وعنده فترة للمراجعة، فإذا انتهت العدة فخذها، وهذا من مواطن مخالفة العُرف للشرع، وهناك مواطن كثيرة يُخالف بها العُرفُ المُتداول عند الناس شرعَ الله تعالى.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، وتلك اسم إشارة لما سبق من الأحكام الشرعية، فكلها من حدود الله التي يحرم مخالفتها، ومن يُخالفها؛ فقد ظلم نفسه بالوقوع في الإثم.

وقوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾، الخطاب موجّه لكل من يصلُح له الخطاب، المُطَلِّق وغير المُطلِّق، فيدخل في ذلك الأقارب والأولياء والأزواج والأبناء، وفيه إشعار للمُطلِّق بالحِكمة من العِدة، وجلوس المُطلَّقة في بيت زوجها، **وجمهور المُفسرين**(١) **يرون أن الأمر هنا** هو الرغبة في الرجعة.

ولكن الرجعة لها مسببات، منها: أن يشعر المُطلِّق بحاجته لزوجته وحبه لها، ويرجع الحب ويعود بينهما بعد الخصام.

ومنها: أن تشعر المرأة بحاجتها لزوجها وحبها له، فيُؤدي ذلك إلى عودة المودة بينهما، وحينما يتقي العبدُ ربه تعالى في أمر الطلاق؛ فقد أخذ بالأسباب التي تُؤدي إلى حصول الخير له ولزوجته، وقد ذُكر الأمر مطلقًا دون تقييد حتى

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٨٨).

تتوقع أحسن شيء فيه، من صلاح الحال ولـمّ الشمل، ونحو ذلك من الأمور الطيبة في الحياة الزوجية.!!

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فإذا قاربت المطلقات من انتهاء العِدة، ويعرف ذلك بالإحصاء والدقة في حساب العدة، أمر الله الأزواج بأمرين، وصفهما بالمعروف، وهو الشيء الطيب الذي فيه خير وليس فيه منكر، ولا ما يسوء الآخر، وهما، الأول: المراجعة للزوجة بالمعروف، والباء هنا للملامسة، أي يُلامس فعلُك المعروف، فيكون السبب في الإرجاع أن تُرجعَها على حسب العُرف وعلى حسب ما يصلُح للحياة الزوجية، لا أن تُرجعها للمضايقة والمُضارة لها، ويكون ذلك بحضور شاهدين عدلين يشهدان على ذلك.

والثاني: المفارقة وهو الطلاق، والمقصود هنا عدم المراجعة لها حتى تنهي العِدة فتحصل الفُرقة، ولم تعد زوجةً لك، واشترط في المُفارقة أيضًا المعروف، أي: طلِّقها لأن الحياة الزوجية صار فيها ضرر، فالمعروف في الأولى يعني الحياة الزوجية ستكون طيبة مباركة بينكم، والمعروف في الثانية يعني الحياة الزوجية ستكون سيئة بينكم فيكون الطلاق أو الفراق هو المعروف، ويكون الإشهاد للطلاق وللرجعة[1]، ففي الطلاق يقول: أُشهدكم أن زوجتي قد انتهت عدتها مُنذ طلقتها قبل كذا، فيكون شهادة للطلاق ونهاية العدة، وفي الإرجاع يقول: أُشهدكم أني أرجعتها إلى عصمتي، ويُشترط في الشاهد أن يكون مسلمًا،

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٢٤).

بالغـًا، عـاقلاً، عـدلاً، **والعدالـة، هـي**: هيئة في الـنفس تمنـع صـاحبها مـن الفسق وخوارم المروءة.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، الخطاب للشاهدين العدلين، **أي**: إذا دُعيتم وطُلب منكم أن تشهدوا فأدّوا الـشهادة كمـا سـمعتموها دون زيـادة ولا نقـصان، ولا تغيير ولا تبديل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، اسم الإشـارة يعـود علـى مـا سبق مـن الأحكـام، **أي**: يُخـوَّف بهـا مـن يتقـي الله بامتثـال أوامـره واجتنـاب نواهيـه، وربـط هنـا بـين الإيمـان بـالله واليـوم الآخِـر؛ لأن مـن يتـذكر الوقوف بين يدي الله تعالى يخاف أن يُخالف أوامره ويقع في نواهيه.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢﴾، **وعن** مجاهـد قـال: كنـت عنـد ابـن عباسٍ فجاءه رجل، فقال: إنه طلق امرأتـه ثلاثـًا، قـال: فـسكت حتـى ظننـت أنـه رادها إليه، ثم قال: "ينطلق أحدكم، فيركب الحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، **وإن الله قال**: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[الطلاق: ٢]، وإنك لـم تتـق الله، فلم أجد لك مخرجـًا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك"[١]، **والمعنى**: أن من تقوى الله تعالى أن تُطلق طلقة واحدة، فالمخرج أن يبقى لـك اثنتـان، أمـا إذا طلقـت ثلاثـًا ومـا فـوق، فقـد ضـيقت علـى نفـسك، واسـتغرقت الفـرص كلهـا، وتقوى الله مطلوبة في كل شيء، لكنها مطلوبة عند تنفيذ أحكام الطلاق والرجعة والعلاقات الزوجية، وكُرّر في هـذه الـسورة الأمـر بتقـوى الله؛ لأن غالـب أحكـام

(١) سنن أبي داود: (٢/ ٢٦٠)، برقم: (٢١٩٧)، وإسناده صحيح.

الطلاق والعلاقات الزوجية سرٌ لا يطّلع عليه الشهود، ولا يضبِط هذه الأمور إلا تقوى الله، ومعنى الآية عامٌ، فمن التزام توجيهات الشرع في كل حياته؛ جعل الله له مخرجاً من مآزقه كلها.

وقوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، ذكر الواحدي في أسباب النزول[1]: أن هذه الآية نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، حين أسر الكفار ولدَه، فكادت أمه أن تهلك من حزنها عليه، فكان عوف يأتي إلى النبي ﷺ ويشكو حال أمه، وكان النبي ﷺ يُوصيهما بتقوى الله، وأن يُكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فعملا بالوصية وأكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فما هي إلا أيام معدودة وإذا بالولد يأتي ومعه قطيعٌ من أغنام، قالوا له: ما لك؟ قال: غفل العدو عني ففككت قيدي، وبينما أنا في الطريق وجدت لهم غنماً في شِعبٍ فاستقتُه معي، فجاء إلى النبي ﷺ يُبشره، فقال له: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾"، والعبرة بعموم اللفظ.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، أي: كافيه، فمن توكل على الله وفوض أمره إليه كفاه الله، ولا تحتاج إلى غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾، هذه الآية مستقلة عما قبلها، أي: توكلت أو لم تتوكل فأمر الله نافذ في المتوكلين وفي غيرهم، ولكن الفرق إن توكلت على الله وجاء أمر الله؛ حصلت على الخير والأجر، وإن لم تتوكل وجاء أمر الله؛ لم تحصل على الأجر ولا الخير.

---

(١) ينظر: أسباب النزول: (ص: ٤٥٧)، وإسناده ضعيف.

وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾، أي: وقتًا مُقدرًا لحصول الشيء فيه، وما من شيء خلقه الله إلا جعل له أجلاً محدداً وينتهي.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾، بعد أن انتهى من أحكام الطلاق، ذكر أحكام العِدد، والعِدد: جمع عِدة، وهي: تربص المرأة المدة الواجبة عليها[(١)]، وذكر من أنواع المطلقات، المرأة اليائسة، وهي الكبيرة في السن التي انقطع نزول دم الحيض منها، وفي آية البقرة ذكر من تحيض، فقال: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[البقرة: ٢٢٨]، أي: ينتظرن ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار، لأنه القروء في اللغة[(٢)]: يأتي بمعنى الحيض وبمعنى الطُّهر، وهذه لا حيض لديها، ومثلها الصغيرة التي تزوجت ودُخل بها قبل أن تحيض، فجعلهما نوعًا واحدًا وعدتهن ثلاثة أشهر، وتُحسب بالأيام أو بالشهور، فإن وقع الطلاق في أثناء الشهر، فتحسب عدتها بالأيام تسعين يومًا، وأن طلقها بداية الشهر، فتحسب العدة بالشهور، سواء كان الشهر ثلاثين يومًا أو كان تسعة وعشرين يومًا.

وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾، للمفسرين فيها قولان[(٣)]، الأول: أن الناس كانوا يعرفون عِدد أصحاب الحيض، ولكنهم شكوا فيمن لم يحضن، ولا يدرون كيف يفعلون، فرفع عنهم هذا الريب بهذا البيان.

---

(١) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ص: ٢٠٥).

(٢) ينظر: لسان العرب: (١/ ١٣١).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٤٩)،التحرير والتنوير: (٢٨/ ٣١٦).

القول الثاني: أن المرأة إذا ارتابت في عدتها بسبب اضطراب حيضتها، كأن تأتيها حيضة واحدة ثم تنقطع لسبب أو لآخر، فحكمها حكم اليائسات، وتحسب عدتها بثلاثة أشهر، وكذلك قد تصاب المرأة بالريب إذا كانت في حكم المستحاضة، فقد تحيض في الشهر أكثر من مرة، بسبب اضطراب الدورة لديها، فهذه تنتقل إلى عِدة اليائسة، وهذا من يسر الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، هذا هو النوع الثالث من المطلقات، وهن الحوامل، مُطلقات أو مات عنهن أزواجُهن، وهذا هو الراجح، **فإن هذه الآية خصصت آية البقرة**: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[البقرة: ٢٣٤]، فمن مات عنها زوجُها، وكانت حاملاً فتنتهي عدتها بولادتها[١].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾، فمن يتقِ الله ييسّر الله له أموره كلها، ومنها أمر الطلاق والزواج، ونحوها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾، **أي**: حكمُه وشرعه الذي سبق ذكره، فليس ذلك اجتهادًا من محمد ﷺ، وإنما هو أمر من الله تعالى، بلغه لكم مُفصلًا، ومن يتق الله في تنفيذ أمره وشرعه؛ يمحو عنه ذنوبه وسيئاته، ويُعظِم له الأجر، فيدخله الجنة التي فيها النعيم العظيم، وفيها رضوان الله ورؤية العبد إلى ربه تعالى.

---

(١) ينظر: المغني لابن قدامة: (١١/ ٢٢٧).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- خطاب الله للنبي محمد ﷺ؛ هو خطاب لأمته ما لم يأتِ ما يخصه.

٢- تكرار الأمر بالتقوى في هذه السورة؛ لأن أغلب مشاكل الزوجين والأسرة داخل البيوت لا يطلع عليه الشهود، ولا تحل إلا بتقوى الله والاستقامة على طاعته.

٣- وجوب السُّكنى والنفقة للمرأة المطلقة الرجعية.

٤- وجوب الإشهاد على الرَّجعة، واستحباب ذلك على الطلاق.

٥- فضيلة تقوى الله، فمن يتقِ الله ييسّر الله له أموره كلها.

تفسير المقطع الثاني من سورة الطلاق

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ
فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا
آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ
عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾، أمر الله تعالى الأزواج بأن يُسكِنوا زوجاتِهم في سكنٍ مناسب لهن بحسب حال الزوج، غنيًا كان أو فقيرًا، والوجدُ، **هو:** المقدرة[١]، وهو حكم عام في المطلقات وفي غيرهن، فالمرأة تسكن

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢١/ ٥١٣).

مع زوجها في حال الزوجية وفي حال العِدة بحسب حاله وطاقته وقدرته، فالغني يُوفر سكنًا بحسب قدرته، والفقير يُوفر سكنًا بحسب قدرته، وإن كان ولا بد فلتشترط الزوجة قبل العقد سكنًا بمواصفات معينة، ونص هنا على الإسكان من أجل أن لا يفهم أن الطلاق يسقط السكن عنها، وخاصة المُطلقة طلاقًا رجعيًا، فهي زوجتُه تسكن معه في نفس السكن وتتجمل له وتتزين في فترة العِدة لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا من العودة والرجعة، وفي وجوب السُّكنى للمطلقة البائن خلاف بين العلماء[1]، فمن قال بوجوبها فليقتطع لها سكنًا من سكنه بحيث لا يختلي بها ولا تظهر عليه؛ لأنها قد أصبحت أجنبية عنه.

وقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾، فلا يجوز للزوج أن يوقع الضرر بزوجته حتى يُضيِّق عليها فتخرج من السكن، أو تفتديه بمهرها لما يحصل لها منه المضايقة، بل يجب أن يتعامل معها بالعدل والمعروف حتى لو طلّقها.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، وتخصيص ذكر الحوامل بالنفقة؛ فيه إشارة إلى أن المطلقة البائن لا نفقة لها، فصار عندنا مطلقة رجعية، وهذه لها النفقة والسكن من زوجها فترة العدة، لأنها في حكم الزوجية، ومطلقة بائن لا حمل فيها، فهذه لا نفقة لها ولا سكن عند الجمهور[2]، ومطلقة بائن حامل وهذه لها السكن والنفقة بسبب وجود الحمل، فإذا وضعت الحَمل انتهت عِدتُها، وسقط حق النفقة لها كحامل، فإن استمرت في تربية الطفل

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٢٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٥٣).

وإرضاعه، فيجب على الزوج أن يُنفق عليها نفقة الإرضاع، فإن لم تقبل بالإرضاع وسلمت الطفل لأبيه، سقط حقها في النفقة.

وقوله: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾، الخطاب موجّه للأزواج والزوجات، أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل(١)، حمايةً للطفل ومراعاة لنفسيته، فخلاف الزوجين سبب في ضياع الأطفال، وهذا من عناية الإسلام بالطفولة واهتمامه بها حتى بعد الفراق بين الزوجين، حرص على إيجاد الرعاية المناسبة للطفل وتربيته تربية صحيحة.

وقوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ⁽٦⁾﴾، أي: إذا اختلف الأب والأم المطلقة على النفقة، ورفضت أن ترضع ولدها لأي سبب من الأسباب، وحصلت العُسرة بينهم وعدم الاتفاق؛ فليبحث الأب عن مُرضعة أخرى تُرضع له ولده، أما في حال الاتفاق فالحق في الإرضاع والحضانة لها، ويجب على الزوج أن يُعطيها أُجرة أمثالها، وموضوع الإرضاع للأبناء عند غير أمهاتهم، كان متعارفًا عليه قديمًا عند العرب وموجودًا فيما بينهم، وخاصة عند أصحاب الأموال والأُسر الشريفة، كما حصل أن النبي ﷺ أُرضع في بني سعد من قِبَل حليمة السعدية، أما اليوم فالحال يختلف، فيوجد الحليب الصناعي الذي يقوم مقام حليب الأم، ويغني عن البحث عن مرضعة أخرى.

ثم قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، وهذه قاعدة عامة، فالنفقة مبنية على القدرة، فإذا أعطاك الله مالًا وغنى؛

(١) فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٢٩٣).

فوسع في النفقة على نفسك وأهلك، ومن ضُيّق، عليه رزقُه وكان فقيراً؛ فيُنفق بحسب ما أعطاه الله تعالى، ولذلك لا يوجد شرعًا تحديد للنفقة، وإنما عند الاختلاف يُختار عدلان من أهل المنطقة يعرفان حال الزوج وحال الزوجة، وهما من يُقدران النفقة الشرعية للمطلقة أو للحامل أو للمرضعة، وكل ذلك بحسب معرفتهم بغنى وفقر الزوج.

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾، أي: لا يوجب الله على نفس من النفقة إلا على قدر ما أعطاها من المال، فلا يطلب من الفقير نفقة الغني، ولا يجوز القياس في النفقة بين الأُسر المختلف دخلها، فهذا مما يُسبب المشاكل الأُسرية، ولا يجوز للمرأة أو الطفل أو من له نفقة على ولي أمره أن يقيس نفقات نفسه على نفقات غيره، لأن في هذا مشقة على رب الأسرة، وفيه أيضًا عدم الرضى بما قسم الله للعبد، ويؤدي إلى حسد الآخرين على ما أعطاهم الله، ومن عدل الله وكرمه سبحانه، أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا، كما في الحديث[1]، وفي رواية بخمسمائة عام[2]، ويجمع بين الروايتين أن ذلك يكون بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم من يسبق بأربعين خريفًا، ومنهم من يسبق بخمسمائة عام، والله أعلم.

وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾، وكان الغالب على أكثر الناس في

---

(١) مسند أحمد، برقم: (١٤٤٧٦)، والجامع لشعب الإيمان للبيهقي: (١٣/ ١٠٥)، برقم: (١٠٠٢٥)، وهو حديث حسن لغيره.

(٢) سنن ابن ماجه: (٢/ ١٣٨١)، برقم: (٤١٢٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم: (٧٦٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٩٧٦).

ذلك الوقت الفقر والفاقة، فأعلمهم الله سبحانه أنه سيفتح عليهم البلدان ويجعل لهم من بعد عسر يسرًا[١]، وقد كان ذلك، وفي هذا تسلية وتصبير للفقير الذي قُدِّر عليه رزقُه، ورضي بما قسم الله له، فلا تيأس فالدنيا دوارة، والأحوال تتغير، فرُب فقير اليوم سيكون غنيًا في الغد، ورُب غني اليوم سيكون فقيرًا في الغد، وغالبًا يأتي اليُسر بعد العُسر، والفَرَج بعد الشدة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾، الكاف للتشبيه دخلت على (أيِّ)، للاستفهام، وهي بمعنى وكم، وتفيد الكثرة، أي: وكم من القرى، وهي كثيرة كفرت، فحصلت لها العقوبة، مثل قوم نوح وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، والمقصود أهل القرية، وهو من باب حذف المُضاف وجعل المُضاف إليه مكانه، والعتو: النفور والكفر والابتعاد عن الحق، والأمر هو الشرعي الذي بلغه الرسل إلى الخلق، وهو الأوامر والنواهي، وهو فعلُ الحلال وترك الحرام، فتُطيع الله باختيارك أو تعصي الله باختيارك، فبسبب كفرهم شدد الله عليهم معيشتهم في الدنيا بالقحط أو بالفقر أو بالزلازل أو بسائر المحن، وفي الآخرة، يعذبهم الله العذاب الشديد النكارة، وهو عذاب النار، نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾، فذاقت شدة العقوبة بسبب مخالفتها لشرع الله، وكفرها بالله وعصيانها لرسله، وكانت نهايتُها أن خسرت الدنيا وخسرت الآخرة، والعياذ بالله تعالى.

---

(١) ينظر: معاني القرآن: ٥/ ١٨٧، والتفسير البسيط: (٢١/ ٥١٧).

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، هذا تفسير للعذاب المنكر الذي وعدوا به، فقد أعده الله وجهزه لهم قبل أن يموتوا، كما قال في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، أي: هيأها وجهزها استعدادًا لقدوم ضيوفها من الكفار كي ينالوا جزاءهم فيها.

ثم وعظ الله السامعين، فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾، فتقوى الله مطلوبة من الجميع، ولكن من يتقِ الله حق تقاته، هم أصحاب العقول الصحيحة السليمة التي تتأمل وتنظر في خلق الله وأمره، فتخرج من ذلك بالعِظة والعبرة والاستجابة والطاعة، ووصفهم بالإيمان، يدل على أن العقل يكون مع المؤمن أكثر صحة وسلامة، وقد تجد كافرًا فطِنًا ذكيًا، ولكن ما دام عقلُه لم يُوصله إلى الإيمان والتوحيد فما زال فيه خَبَل وخلل وضعف في الفهم، والإيمان ليس هو مجرد التصديق، بل هو الامتثال والطاعة لأوامر الله واجتناب نواهيه، والذكر هو القرآن الذي أنزله على محمد، ﷺ، ليبلغه للناس.

وقوله: ﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، فالذكر هو القرآن، والرسول محمد ﷺ(١)، ونُصب الرسول بفعل محذوف دل عليه ما قبله، والسياق بعده يدل عليه، فهو الذي يتلوا علينا الآيات، ويُرتلها، وهي آيات واضحات ليس فيها غموض، واللام للتعليل، فالعلة من إنزال الذكر وإرسال الرسول؛ أن يُخرج الله تعالى بهما الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، وفي

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٢٧).

اقتران العمل الصالح بالإيمان، يدل على أنهما مطلوبان معًا، فلا يكفي الإيمان وحده، ولا العمل الصالح وحده، وإنما يقبل الإيمان من شخص آمن، ولم يجد وقتًا ليعمل صالحًا، كمن آمن ثم قام إلى الجهاد فقُتل قبل أن يُصلي أو يصوم ونحوها، لكن من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويبقى فترة ولا يقوم بالأعمال الصالحة، كحال كثير من الناس اليوم الذين يكتفون بالشهادة دون عمل صالح، فهؤلاء في إيمانهم نظر؛ لأن من لوازم الإيمان العمل الصالح.

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾، فمن حصل منه الإيمان وهو التصديق والامتثال والطاعة، وعمل صالحًا، وهو تنفيذ الواجبات والابتعاد عن المحرمات؛ كان جزاؤه عند الله تعالى أن يدخله جنات، وهي البساتين كثيفة الأشجار التي تُغطي من بداخلها، والتي تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، ومن دخلها لا يخرج منها ولا يموت، بل يعيش فيها أبد الآبِدين، قد أتم الله له فيها الرزق الحسن، وهو النعيم المطلق الذي لا ينقطع.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، الله تعالى هو الخالق البارئ الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع، فالمثلية هنا في العدد، وفي الحديث: "من ظَلَم شبرًا طوّقه الله من سبع أراضين"[1]، وفي معنى الأمر هنا قولان للمسرين[2]، الأول: الأمر الكوني، وهو القضاء والقدر،

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٢٣٠)، برقم: (١٦١٠).
(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٧٦).

وهذا لا إشكال في معناه، فما يجري في الأرض السابعة من براكين وزلازل نحوها فهو من الأمر الكوني.

والثاني: الأمر الشرعي وهو الوحي، ولازم ذلك وجود خلق مكلفين في الأرض الثانية إلى السابعة، قد يكونون من الجن أو من الإنس، وإلى الآن لم يكتشف العلم ذلك، والأول أرجح.

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾، اللام للتعليل أي: لتتضح لكم قدرة الله وعظمته، وأنه جل وعلا، لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ولتعلموا أيضًا إحاطة علم الله بكل شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، والإحاطة أبلغ من العلم، وقد جمع بينهما، فهو يعلم الكليات والجزئيات على وجه الإحصاء والدقة في الكون كله.

فوائد وهدايات من الآيات:

١-وجوب السكن والنفقة على الزوج لزوجته حال الزواج والطلاق الرجعي، وحال حمل زوجته المطلقة طلاقًا بائنًا حتى تضع حملها.

٢-وجوب الإرضاع للطفل سواءً من أمه أو من مرضعة أخرى، والنفقة على الأب.

٣-أن التكليف في كل الأحكام الشرعية يكون بقدر الاستطاعة.

٤-وجوب الإيمان بقدرة الله المطلقة، وبعلمه المطلق، وإحاطته المطلقة بخلقه، حتى يشعر بالاطمئنان والسعادة.

تفسير سورة التحريم

تفسير المقطع الأول من سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ
ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ
أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ
رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ
ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

شخصية السورة:

سورة التحريم؛ سورة مدنية[١]، **ومقصدها العام** الدعوة إلى إقامة البيوت على تقوى من الله وتعظيم لحدوده.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ١٥٨).

وقد جاء في سبب نزول مقدمة السورة روايتان:

الرواية الأولى: عن ابن عباس، عن عمر، قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت له: تدخلها بيتي، ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال: **"لا تذكري هذا لعائشة فهي عليّ حرام إن قربتها"**، قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟، فحلف لها لا يقربها، فقال النبي ﷺ: **"لا تذكريه لأحد"**، فذكرته لعائشة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾[1].

الرواية الثانية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة: أن أيّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير، فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: **"لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له"**، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾[2].

وقد رجح بعض المفسرين الرواية الأولى[3]، وبعضهم رجح الرواية الثانية[4]، وبعضهم قال بالجمع من باب تعدد السبب[5]، ولا مانع أن يكون

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٢/ ١١٧)، برقم: (١٢٦٤٠)، وسنن الدارقطني: (٥/ ٧٥)، برقم: (٤٠١٣).

(٢) صحيح البخاري: (٧/ ٤٤)، برقم: (٥٢٦٧)، وصحيح مسلم: (٢/ ١١٠٠)، برقم: (١٤٧٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٣٠)، تفسير القاسمي: (٩/ ٢٦٨).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٧٩)، و تفسير ابن كثير: (٨/ ١٦٠).

(٥) ينظر: فتح الباري لابن حجر: (٩/ ٢٩٠).

السبب فيهما معًا، لاحتمال أن يكون حصل منه هذا وذاك، فإنه يجوز في علم أسباب النزول أن يتعدد السبب والنازل واحد.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، أَمِن أجل مرضاة زوجاتِك تُحرّم ما أحله الله لك؟!، وعلى كلا القولين سواءً كان العسل أو مارية فهما حلال، فجاريته حلال له أن يستمتع بها، والعسل حلال غير مُحرّم شربه، وتذييل الآية بهذين الاسمين الكريمين؛ يدل على أن ما حصل منه خلاف الأولى في حقه ﷺ.

ثم قال سبحانه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، والنداء وإن كان للنبي ﷺ؛ فليس المقصود أن يكون هذا الحكم خاصًا به، بل هو عام لأمته وهو داخلٌ فيه، ولذا كان الخطاب بعده عامًا، وما شرعه الله من تحلّة الأيمان هو كفارة اليمين التي جاءت في آية أخرى، وهي قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[المائدة: ٨٩]، فإذا حرّم الإنسان شيئًا حلالاً كفّر كفارة يمين، وهي الإطعام أو الكسوة أو العتق، فإن لم يقدر فصيام ثلاثة أيام متتابعات أو متفرقات.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾، أي: ناصرُكم على من خالفكم وآذاكم، والعليم، صيغة مبالغة من العلم، وهو الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، والحكيم، صيغة مبالغة من الحكمة، وهو الذي أفعالُه وشرعُه وأحكامُه كلها

مُحكمة لا خلل فيها.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾، وقد جاء في سبب النزول كما تقدم أن المقصود بها حفصة، وأن الحديث الذي أسرّه لحفصة هو تحريم العسل أو تحريم مارية، فلما أفشت السر، وأخبرت به عائشة، لأنها من حزبها، فقد كان زوجات النبي ﷺ على حزبين: حزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، وحزبٌ فيه أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ[1]، وكانت الغيرة بينهن قوية، فأخبره جبريل بذلك، فعاتبها على ذلك، ولم يدخل في تفاصيل ما قالت، وهذا من كريم خلقه ﷺ، فإن من أخلاق الكريم ألا يُدقق على أهله ولا على أولاده في كل صغيرة وكبيرة، ويكفي أن يُشير إليهم إشارات عن بعض أخطائهم على سبيل التلميح، حتى يترك له مهابة في نفوسهم ويشعِرهم بأنه يعلم ما صدر منهم، وينبغي أن يكون هذا الخلُق مطرداً عند المسلم، فلا تُدقق في أخطاء الناس ولا تُشدد في هفواتهم، وكن كما قيل[2]:

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيدٍ في قَوْمِهِ ... لكنَّ سيِّد قومهِ المُتغابي

ومعناه: من أراد أن يصبح سيدًا مُهابًا مُكرَّمًا في قومه؛ فلا بد أن يتغاضى عن أخطائهم.

وقوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، استفسار له عمن أخبره، وكانت تظن أن عائشة هي التي أخبرته، وهذه عادة عند النساء، أن المرأة إذا أسرت زميلتها أو صاحبتها

(١) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم: (٥/ ٣٨٨)، برقم: (٣٠٠٤).

(٢) ديوان أبي تمام: (ص: ٢٨).

بسر؛ غالبًا ما ينتشر هذا السر بسببها، وما كانت حفصة تتوقع أن الوحي ينزل في هذا الموضوع، فالقضية أمر شخصي داخل الأسرة، فأجابها بصراحة حتى لا تذهب ظنونُها نحو ضرتها، فقال: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾، نبأني الله العليم بكل شيء، الخبير بما خفي من الأمور.

ثم وعظهما بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾، والخطاب لحفصة وعائشة، وللمفسرين في معنى صغت قولان(١)، الأول بمعنى: حقٌّ عليكما أن تتوبا؛ لأن قلوبكما قد مالتا إلى محبة ما يكره رسول الله ﷺ، والقول الثاني بمعنى: لانت للتوبة، وتهيأت نفوسكما بعدما أظهر الله السر على رسوله ودافع عنه، وتظاهرا بمعنى تعاونتا على رسول الله ﷺ، وهذا الذي جعل بعض العلماء يُرجح أن يكون سبب نزول الآية قصة العسل؛ لأنها هي التي جرى فيها التعاون والتظاهر بين حفصة وعائشة، والمقصود النهي عن العودة لأذيته أو التظاهر عليه مرة أخرى، فإن فعلتما ذلك؛ فإن الله هو ناصرُه، وجبريل وصالح المؤمنين وعموم الملائكة، وأتى بهذا الحشد العظيم؛ لأن الموقف يستدعي إظهار مكانة النبي ﷺ عند ربه، في مقابل أن تتآمر عليه زوجتاه، وهما من أقرب الناس إليه، بسبب الغيرة، فأشعرهما بهذا الأسلوب أن الله ثم الكون كله يغضب لغضب رسوله ﷺ، وظهير، بمعنى: نصير، والمقصد به الجنس، فيشمل كل من سبق ذكره، فكلهم سيكونون مناصرين ومُؤيدين ومُؤازرين لرسول الله ﷺ على من يُؤذيه أو يتعاون عليه.

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٨٨).

ثم قال سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، من المعلوم أنه ﷺ كان متزوجًا من تسع زوجات في وقت واحد(١)، فلو كل زوجة غارت من ضَرَّتها؛ فمعناه كثرة المشكلات داخل البيت النبوي، ولأن النبي ﷺ قدوة وأسوة لأمته، فقد أخبرنا الله تعالى عن ما جرى في بيته ﷺ من مشكلات وكيف تعامل معها، ليكون لنا في ذلك القدوة والأُسوة، فلا يستغرب الإنسان أن يقع في بيته مشكلة عائلية أو أسرية حتى لو كان عالمـًا أو داعية، وزوجتُه حافظة للقرآن وداعية، فهذه طبيعة الحياة، ولو سلم بيتٌ من المشكلات العائلية؛ لسلم بيت رسول الله ﷺ، وجاء الخطاب هنا تهديداً لزوجاته بالطلاق في حالة استمرار هذا السلوك منهن مستقبلًا، وقد جاءت هذه الآية موافقة لمقترح عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو الملهم المُحدَّث، **فقد وعظ زوجات النبي** ﷺ بما يشبه نص الآية(٢)، ووعده الله بأن يُبدله أزواجًا خيرًا من النسوة اللاتي معه، ثم وصف البديل لهن، **فقال:** ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾، **أي:** خاضعات ومستسلمات، فالإسلام هو الخضوع بالجوارح، والإيمان هو التصديق والإذعان بالقلب، مطيعات لله ولرسوله، كثيرات التوبة والإنابة والرجوع إلى الله، عابدات لربهن، سائحات؛ **فيها قولان**(٣): **صائمات** يُكثرن صوم النافلة، **أو مُهاجرات** هاجرن من مكة إلى المدينة، وبعض هذه

---

(١) ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: (١٠/ ٤٣٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (١/ ٨٩)، برقم: (٤٠٢).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ١٩٣).

الزوجات من النوع الثيب، وبعضهن من النوع البكر، وقد كان كل زوجات النبي ﷺ ثيبات إلا واحدة، وهي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهنا ذكر سبع صفات سردًا، وذكر الثامنة بالواو، ومن مُلَح العلم تسمية هذه الواو بواو الثمانية[1]، **وهي مذكورة في قوله**: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف:٢٢]، **وفي قوله**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزمر:٧٣]، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأتى بالواو هنا؛ لأن السبع الصفات الأولى يُمكن أن تجتمع مع بعضها في شخص واحد، ولكن لا يُمكن أن تكون المرأة في آنٍ واحد ثيباً وبكراً؛ لأنهما لفظان متعارضان، فالبكر هي التي لم يسبق لها الزواج، والثيب هي التي سبق لها الزواج، وواو العطف اقتضى هنا مغايرة الصفة، وفي ذلك إشارة إلى أن من تظاهرتا عليه أحدهما تزوجها بكراً، والأخرى تزوجها ثيباً.!!

قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يُنقذوا أنفسهم وأهليهم من النار، فيبدأ الإنسان بوقاية نفسه، وإبعادها عن كل ما يُدخلها النار، ثم يقي بعد ذلك الأهل، والمقصود بهم الزوجة والأولاد، ومن كان مسؤولاً عنهم من عموم الأقارب، لأنه سيسأل عنهم، **كما في الحديث**: **"كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"**[2]، والعلاقة بين هذه الآية وما سبق من آيات قبلها واضحة، فالمشكلات العائلية توجد في البيوت التي لم يقم ولي الأمر فيها على إصلاحها، فلأن تُعاقب أسرتك في الدنيا

(١) ينظر: تفسير الثعلبي: (٦/ ١٦٢).

(٢) صحيح البخاري: (٢/ ٥)، برقم: (٨٩٣)، وصحيح مسلم: (٣/ ١٤٥٩)، برقم: (١٨٢٩).

وتُؤدبهم حتى يستقيموا ويذهبوا إلى الجنة خير من أن تتركهم فيُعاقبوا في الآخرة في النار، ونكّر النار تعظيمًا لها وتخويفًا منها وتهويلًا لشأنها، **ثم وصفها بقوله:** ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾، **أي**: تشتعل بالناس، والحجارة، وهذا يعني أن نارها عظيمة، فالحجارة تحترق منها، كما تشاهدون البراكين الآن وهي احتراق الحجارة، ونارُها من أعظم أنواع النار في الدنيا، **وفي الحديث**: **"ما نارُكم التي توقدون إلى نار الآخرة إلا جزءٌ من سبعين جزءًا"**[(١)]، **أي**: بنسبة واحد إلى سبعين، والملائكة يحرسونها وأبوابها مُغلقة، **كما قال**: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[الهمزة:٨-٩]، **أي** مغلقة بعمود يُوضع خلف الأبواب، ثم وصف الملائكة التي تحرس النار بأنهم غلاظ الأجسام وغلاظ الأخلاق وغِلاظ القلوب، فليس عندهم رحمة ولا شفقة بأحد من أهل النار، بل شداد عليهم، وهم مطيعون لله في أمره، كل ما أمرهم الله بأمرٍ نفذوه دون تأخر ولا تردد ولا تجاوز، بل هم مُنضبطون وحريصون على التنفيذ بدقة دون زيادة ولا نُقصان لأمر الله تعالى الذي أمرهم به.

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾، هذا الخطاب للكفار يوم القيامة، يوم أن يبعثهم الله ويُوقفهم بين يديه فيُحاولون أن يعتذروا، فيقال لهم: لا عُذر لكم اليوم؛ لانتهاء وقت الاعتذار وهو الدنيا، لأن الآخرة دار جزاء وحساب وليست دار عمل، فلو

---

(١) صحيح البخاري: (٤/ ١٢١)، برقم: (٣٢٦٥)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٨٤)، برقم: (٢٨٤٣).

تبتم في الدنيا لقُبل منكم، بدليل أن الله تعالى قَبِلَ توبة الكفار الذين أسلموا وحسُن إسلامُهم، وقد كانوا مجرمين ومحاربين للنبي ﷺ، فمن مات على الكفر ووُقِف بين يدي الله، ثم أراد أن يعتذر عما فعله من الكفر، فلا يُقبَل عذرُه؛ لأن الله تعالى قد أعطاه فرصة للاعتذار في الدنيا، كما في الحديث: **"أعذر الله إلى رجلٍ عمّره ستين عامًا"**[1]، فلا مجال للاعتذار بين يدي الله في الآخرة، إنما الذي يجري بين يدي الله هو الحساب والجزاء، فيُحاسب الله العبد ويُجازيه بحسب عمله في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وهذا من عدل الله تعالى، والخطاب هنا موجه للكفار، **والمعنى**: إنما تُجزَون عذاب جهنم بسبب أعمالكم السيئة التي فعلتموها في الدنيا.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- مشروعية كفارة اليمين، سواءً كان الحلف بالله تعالى، أو بتحريم الحلال.

٢- بيان منزلة النبي ﷺ عند ربه، فقد حشد لغضبه الكون كله.

٣- من حسن خلقه ﷺ وكريم طباعه؛ إعراضه عن بعض أخطاء أهله، إبقاءً للمودة.

٤- مسؤولية المؤمن أمام الله تعالى عن نفسه وعن أهله.

---

(١) صحيح البخاري: (٨/ ٨٩)، برقم: (٦٤١٩).

تفسير المقطع الثاني من سورة التحريم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ
سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ
إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ
وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ
وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ
وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا
فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، نادى الله عباده باسم الإيمان، وأمرهم أن يتوبوا إليه، لأن طبيعة الإنسان الوقوع في الذنب والخطأ والتقصير ولو كان مؤمنًا، وجعل التوبة سببًا للفلاح، **كما قال**: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور:٣١]، والتوبة عبادة

وطاعة لله، مُطالَبٌ بها الجميع، المؤمن والعاصي والكافر، ولكنها تختلف بحسب نوع الذنب، فالمؤمن يتوب من المعاصي، والكافر يتوب من كفره، والمشرك من شركه، والمنافق من نفاقه، **والتوبة النصوح للمفسرين فيها أقوال**[1]، كلها متقاربة، وتدل على معنى اكتمال التوبة لشروطها من الإقلاع والندم والعزم على عدم العودة، ورد المظالم لأهلها أو التحلل منهم، والأصل في الوصف أن يكون التائب نصوحًا لنفسه بعدم العودة إلى الذنب، وأصل النصح هو إزالة الشوائب من الشيء، ومنه نصحَتُ العسل، إذا أخرجت منه بقايا الشمع[2]، **فالتوبة النصوح هي** التوبة الكاملة الصادقة التي لا غِش فيها ولا خداع للنفس، وهي من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، والمؤمن مُطالَب بها لعدم عصمته من الذنب والخطأ، **والتوبة من الذنب** تكون إما من واجب قصّر في فعله أو من مُحرّم وقع فيه.

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، عسى تفيد الترجي، ولكن إذا كانت من الله فهي واجبة؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شيء، ومحو السيئات هو إزالة آثارها، والأصل أن السيئة تُكتب، فإذا غفرها الله محيت من السجل، حتى لا يُعيّر العبد بذنبه، ولا يبقى الذنب ظاهرًا على وجهه؛ فإذا محى الله تعالى الذنب وأثره، أدخله بعد ذلك جنة تجري الأنهار من تحت أشجارها وبين يدي قصورها، وفي هذا إبراز للنعمة ولجمال النعمة.

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣١١).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٧٠).

وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، نصب يوم بفعل سابق محذوف تقديره: واذكر يوم وهو يوم القيامة، وهو يوم الفوز والفرح للنبي محمد ﷺ، والذين آمنوا به من أمته، والألف واللام في النبي للعهد، وأتى بلفظ: ﴿مَعَهُۥ﴾، للإشارة إلى معية الاتباع للسنة وأهمية الاجتماع في الدنيا عليها والعمل بها، لأن النبي ﷺ قد توفي من زمان، وأتى مَن بعده فساروا على المنهج والطريق الذي كان عليه، فالمعية هنا معية المنهج، وفي الآخرة ستكون معية الاجتماع به بالأجساد.

وقوله: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، وسعي النور امتداده وانتشاره، وهو نور حسي ينير لهم الطريق المظلمة، ويختلف حجم النور وقوته من شخص إلى آخر بحسب طاعته وعبادته واجتهاده في الدنيا، فالنور يتناسب مع اجتهاد الإنسان في الدنيا في الأعمال الصالحة قوةً وضعفاً، وكذلك سرعتهم في اجتياز الصراط تختلف من شخص إلى آخر بحسب عمل الإنسان وطاعته في الدنيا، فإن كان سريعًا إلى الطاعات مجتهدًا فيها في الدنيا، كان سريع المشي على الصراط، ومكان النور بين أيديهم وهو موضع القدمين، وعن أيمانهم، لأن اليمين مباركة ولها مزية، فالنور يُضيء له أمامه ويُضيء له ذات اليمين وذات الشمال، وعبّر باليمين من باب التغليب، وهذا يدل على قوة النور.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾، يصدر هذا القول من المؤمنين حينما يرون أنوار المنافقين قد انطفأت، لأنها أنوار كاذبة ليس فيها إخلاص، فيتساقطون في جهنم، والعياذ بالله، فيخاف المؤمنون أن ينطفئ نورُهم

كما انطفأ نورُ المنافقين؛ فيدعون الله أن يُتم لهم نورَهم، حتى يجتازوا الصراط ويدخلوا الجنة، ومحل الدعاء على الصراط(١).

ويبقى سؤال: هل ينفع الدعاء في دار الجزاء؟ الآخرة دار جزاء وليست دار عمل، فمن دعا في الدنيا استجاب الله دعاءه، ولكن في الآخرة ليس مطلوب منك أن تدعو، ولو دعوت ليس بمشروع لك الدعاء ولا يُستجاب كما هو حال أهل الكفر، ولكن الدعاء يحصل من المؤمنين في الآخرة؛ لأنهم اعتادوا عليه في الدنيا، وفيه تنبيهٌ للمؤمنين على أن يدعوا الله في الدنيا أن يُتم لهم نورهم في الآخرة، وأن يغفر لهم ذنوبهم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾، **أي:** فلا شيء يُعجِز الله تعالى في الأرض ولا في السماء، وفيه معنى التوسل في الدعاء بأسماء الله وصفاته كي يُتم لهم نورهم ويغفر لهم ذنوبهم.

ثم قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾، النداء للنبي ﷺ؛ نداء لأمته إلا ما كان خاصًا به من الأحكام، وجمع هنا بين جهاد الكفار والمنافقين مع اختلاف نوعي الجهاد، فالكفار يُجاهَدون بالسِّنان واللسان، بينما المنافقون يُجاهَدون باللسان فقط، فظاهرهم الإسلام، فيكون جهادهم بالحجة والبرهان والوعظ والإرشاد، وأمره أن يغلظ على الكفار والمنافقين فلا يرفق بهم، بل يعاملهم معاملة قاسية، ثم بيّن أن مصيرهم جميعًا إلى النار، بل إن المنافقين أشد عذابًا من الكفار فيها،

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي: (١٤/ ٣٥٦).

كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، وبئس المصير مصيرهم، وهو رجوعهم إلى جهنم واستقرارهم فيها.

ثم قال الله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾، المثل: النظير، ثمّ استعمل في القول السائر الممثّل به وله شأن وغرابة(١)، ولما ذُكر في بداية السورة قصة حفصة وعائشة اللتين تظاهرتا عليه، ختم السورة بذكر مثالين، الأول: لامرأتين سيئتين، وهما امرأة نوح وامرأة لوط، وكانتا في عصمة عبدين صالحين، هما نوح ولوط عليهما السلام، وترك التعبير بـ"زوجة" وعبّر بـ"امرأة" لحكمة؛ وهي: أن الزوجة تُذكر غالباً إذا كانت موافقة لزوجها في الدين، وكانت صالحة للحمل والإنجاب، وهنا تخلّف الوصف الأول.

وفي قصة زكريا قال: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾[آل عمران:٤٠]، تخلّف الوصف الثاني، فلما أصلحها الله وصارت صالحة للحمل؛ قال عنها: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾[الأنبياء:٩٠]، ويُشكِل على هذا التعليل قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾[آل عمران: ٣٥]، لتحقّق الوصفين فيها، ومع ذلك أطلق عليها اسم امرأة عمران، والمسألة تحتاج إلى مزيد بحث، والخيانة هنا ليست الخيانة في العرض، فإن الله لا يرضى لنبيٍ أن يُعاشر باغية أو زانية، وإنما الخيانة هنا خيانة الدين أو خيانة الأسرار، فقد قيل: إنهما كانتا منافقتين، وكانتا تُظهران الإسلام وتُبطِنان الكفر، وبهذا استدل من استدل من العلماء على أن النفاق لم يكن في

---

(١) الطراز الأول لابن معصوم: (المقدمة/ ٣٤٨).

أمة محمد فقط وإنما سبق في أمم أخرى، **وقيل**: لم تُؤمنا وكانتا تخونا في إخراج الأسرار إلى قومهما.

وقوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾، **أي**: لم تُغنِ القرابة للصالحين عن الفاسدين شيئًا ولو قريبه نبيّا، كما في قصة إبراهيم مع أبيه، ونوح مع ابنه وزوجته، ولوط مع زوجته، **وفي الحديث**: "**يا فاطمة بنت محمد: اعملي فلن أُغني عنك من الله شيئًا**"[(١)]، فلا ينفع الإنسان إلا عمله، وقال الملائكة للمرأتين زوجتي نوح ولوط: ادخلا النار مع الداخلين، **أي**: لا مزية لكما، بل أنتما وباقي الكفار سواء.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾، وهذا مثال آخر **لامرأتين صالحتين، الأولى**: امرأة فرعون وهي آسية بنت مُزاحم، وقد كانت آمنت بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعَلِم بإيمانها زوجها فرعون، فكان يضرب لها أربعة أوتاد في يديها ورجليها، ثم يضع عليها الحجارة، وما إن يذهب من عندها حتى تُظلها الملائكة وتطعمها[(٢)]، ويرجع إليها وهي تضحك وتبتسم، فيزيد في تعذيبها، فطلبت من الله أن يبني لها بيتًا في جنة الفردوس، لأنها أعلى الجنان وفوقها عرشُ الرحمن، فطلبت الجار قبل الدار، وطلبت من الله أن يُنجيها من فرعون ذاته وطغيانه وكفره وفساده وكل أعماله، ومن ضمنها تعذيبُه لها، وأن

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١٩٢)، برقم: (٢٠٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٠٠).

ينجيها من القوم الظالمين، وهم قوم فرعون وحاشيته، فأراها الله منزلها في الجنة قبل أن يقبض روحها، وخلصها من فرعون وعذابه.

ثم قال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، وهذه هي المرأة الثانية من الصالحات، وهي مريم بنت عمران، التي رفع الله من شأنها بإحصانها لفرجها وعفتها، وطاعتها لله، وكثرة قنوتها واستقامتها، فقد كانت عفيفة، وبعيدة عن سيء الأخلاق والعادات ونحوها، فجازاها الله على ذلك بإرسال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إليها لتبشيرها بغلام صالح يكون رسولاً لقومه، وهو عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **كما قال الله:** ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾[مريم:١٧-١٩]، حيث نفخ روح الحياة في جيب درعها[١]، وهو الفتحة التي تكون في الثوب من جهة العنق، فتسلل ذلك الروح إلى فرجها، فخلق الله منه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالروح الموجودة في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هي الروح الموجودة في كل مخلوق، **وهي المذكورة في قوله:** ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٨٥]، وهي روح مخلوقة تفنى وتموت، خلافاً للنصارى الذين ضلوا بسبب فهمهم القبيح بأن عيسى جزء من الإله، وأنه مخلوق من روح الله، بل إضافة الروح إلى الله إضافة تشريف لا إضافة صفة، مثل بيت الله، وناقة الله.

وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾، **وفي قراءة:**

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٠٥).

(بكلمة ربها)[1]، أي: كلمة كن الذي خلق بها عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبشرتها به الملائكة، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[آل عمران:٤٥]، وأما على قراءة الجمع؛ فالمقصود بها شرائع الله وتكاليفه، كما قال الله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾[البقرة:١٢٤]، أي: الشرائع والتكاليف، وكذلك صدّقت بكتب الأنبياء والرسل التي أُرسلت قبل عيسى ولعيسى، وهو الإنجيل، وكانت مريم كثيرة القنوت، وهو الطاعة والعبادة لله تعالى، وعبّر بجمع المذكر تغليبًا للذكور، أي: من جملة الطائعين المكثرين من العبادة لله تعالى.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- فضيلة التوبة النصوح وأنها تجبّ ما قبلها.

٢- مشروعية الجهاد بنوعيه: جهاد السيف لمن يستحقه، وجهاد الحجة والبرهان وإبطال الشبهات لمن يستحقه، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

٣- أن القرابة في النَّسَب لا تنفع صاحبها يوم القيامة إن لم يكن صالحًا.

٤- أهمية العفاف والستر للمرأة وثمرتُه في الدنيا والآخرة.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٠٥).

فهرس المحتويات